توقّف المطر

عنوان الكتـــاب: **توقّف المطر**

العنوان الأصلي للكتاب: **ANDRÉS BARBA**

Ha dejado de llover
ANAGRAMA
BARCELONA-2012

الموضـــــــــوع: رواية

عدد الصفحات: **184** ص

القيـــــــــاس: **14.5** ❖ **21.5** سم

الطبعـــة الأولى: **1000** / **2015** م – **1436** هـ

ISBN: 978-9933-536-19-0

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

بموجب سماح خطي من المؤلف لحقوق الطبعة العربية

Copyright ninawa

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب **4650**

تلفاكس: **+963 11 2314511**

هاتـــف: **+963 11 2326985**

E-mail: info@ninawa.org - ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة – القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

أندرس باربا

توقَّف المطر

ترجمة

عمار أتاسي

أندريس باربا مونيز (مدريد، 1975)

هو روائي، وكاتب ومترجم وكاتب ومصور إسباني. وقد ترجمت أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والرومانية الألمانية والبلغارية والإيطالية، والصربية، إلى الهولندية واليونانية والعربية. وقد نشر اثني عشر كتابا من الخيال الأدبي، من بينها روايات ثلاثة للأطفال. وقد قام بنشر كتاب من التصوير الفوتوغرافي في جامعة نيويورك، وكتاب الفن والعديد من المقالات. حائز على جائزة تورانت بالستر للرواية، جائزة الجناس، وجائزة خوان مارس للرواية. في عام 2010 تم اختياره من قبل مجلة غرانتا غرانتا في إنجلترا واسبانيا كواحدًا من الكتاب الشباب.

مؤلفاته:

أعماله السردية:

يؤذي العظام (رواية جائزة رامون .J المرسل، جامعة كومبلوتنسي، 1998)
شقيقة كاتيا (التاسع عشر جائزة النهائي Herralde، الجناس الناقص، 2001)
نية اليمين (الجناس الناقص، 2002)
الآن تقدمهم في الرقص والموسيقى (الجناس الناقص، 2004)
إصدارات تيريزا (جائزة السابع عشر تورانت بالستر؛ الجناس الناقص، 2006)
الكتاب يقع (تسجيلات اللازمة، 2006). يتضح من بول انغولو.
الأيدي الصغيرة (الجناس الناقص، 2008)
أغسطس، أكتوبر (الجناس الناقص، 2010)
مقتل التحرير الحصان قبل النصوص. جائزة الرواية خوان مارس عام 2011
لقد توقفت تمطر (الجناس الناقص، 2012)
قائمة المفقودين (التحرير سيبيريا 2013)

أدب الأطفال

تاريخ (Nadas Siruela, 2006) من رافائيل فيفاس بلباو.
قصة مذهلة من خوانيتو توت وفيرونيكا (Flut Siruela, 2008) من رافائيل فيفاس بلباو.
فوق السماء، تحت الأرض (Siruela, 2011) منم سافيدرا.

محاكمة:

حفل الإباحية (الجناس الناقص اختبار جائزة الخامس والثلاثون، 2007). شارك في كتابتها مع خافيير مونتيس.

الأبـوّة

في بعض الأحيان، عندما يتحدّث المجتمعون عن طفولته، يعيد هو قـصّ الحكاية ذاتها: عندما اصطحبته أمه وهو في السابعة للاشتراك في المسابقة الدعائية التلفزيونية لموسوعة «افتح يا سمسم». كان طفلاً جميلاً إلى حدّ بعيد، وهذا يجعلـه يشعر بالحيرة حتى الآن، بعد أكثر من خمسةٍ وعشرين عاماً يشعر بالحـسرة عنـدما يقلب صوره الفوتوغرافية القديمة، كما لو أن جماله الطفولي ينذر بأحداث فظيعة. فخر والدته المدوّي من جراء جمال ابنها تحوّل إلى مـصدر للعديـد مـن الروايـات والقصص الطريفة، لاسيما قصة موسوعة «افتح يـا سمـسم» التـي تعطـي لمحـة كاملة عن طفولته.

فضّـل دائماً لدى سرد هذه القصة أن يبدأ بوصـف بـاقي الأمهـات، وبـأن يوحي إلى أمه من خلال هـذا الوصـف، فهـنّ متزينـات وذوات صـدور كبـيرة، جميعهنّ يشبهن أمه: بعضهنّ تضحك وتقهقه، وأخريات صامتات وهادئات، ثم هنالك من هنّ براغماتيات، يتحدّثن وتـشدن بجـمال بـاقي الأولاد ليكـسبن وُدَّ الأخريات، في حين أن أمهات غيرهن كنَّ متوترات وقلقات. يكمل القصة عائداً أسبوعين إلى الوراء، فقد كان مريضاً بالمعدة، حتّى أنه ذهـب إلى المـسابقة دون أن يُشفى بالكامل. أسبوعان لم يستطع فـيهما التوقـف عـن الـذهاب إلى الحـمام، مـا أعطى بشرته لوناً شاحباً ومصفرّاً. ثم يكمل القصة لكي يعرف الجميع تفاصـيل أدق عنه: في صغري كان لي عينان مميزتان.

في المسابقة يغنّي الأولاد بالدور أغنية الأحرف الأبجدية، وقبالهم يجلس على طاولة كبيرة خمسة أشخاص فظّين يسجلون النقاط. ثم ينتظر الأولاد مع والداتهم المتشوّقات. هو بدا مطمئناً وواثقاً بأنه سيتم اختياره، فقد سمع بالصدفة تعليقاً من أحدهم وهو خارج:

«الفتى الشرقي مثاليّ جدّاً».

إلّا أنّ شرقيته هذه لم يكن لها سبب سوى التهاب الأمعاء، توتّر والدته وهو خارج لا يغادر ذاكرته، سيما عندما سأله الرجل عن كنيته وهو يتوقّع سماع اسم عائلة شرقية، ثم كيف ارتبك الرجل. ولمّا عادوا إلى البيت لم تنفك أمّه ترقص قافزة وهي تردّد: «كنت أعلم ذلك، لقد كنت أعلم».

كلّما كررت ذلك نظرت نحو الأفق، ثم إليه، وبعدها إلى الأفق من جديد، كما لو أنّها تجد فيه مستقبلاً زاهراً يضاهي ارتفاع تلك الأبنية الضخمة في المدينة، وكما لو أنه سيصل إلى مكان بعيد المنال... حتّى هي لم تكن تتخيله. يتذكّر جيّداً التماسَّ المليء بالطاقة مع أمه ويدها الخالية من أي تعرّق، وذلك الإحساس المزور بأنّه قد تم اختياره من بين الصبية لسببٍ لم يكن حقيقيّاً. شعر بالخوف من الاعتراف، لكن فرح والدته دفعه إلى الشعور بالحزن، حتّى أنه في ذلك المساء وعلى طاولة العشاء كاد ينفجر باكياً، وقرّر الإفصاح عن الحقيقة وهو يشعر بحرقة في حلقه:

«أمّي، اختاروني لأنهم يظنّون أني صيني».

«هراء».

«لقد قالها أحد السادة هناك».

هذه هي المرة الأولى التي أدرك فيها بصورة واعية جشع أمه، جشع دفين، يذكر جيّداً أنه لم ينتبه لهذا من قبل، وعندما فهم كم كان مخطئاً، توصل إلى خلاصة مفادها أن عليه عدم الثقة بأفكاره وأحاسيسه. نظرت هي إليه لبضعة

ثوانٍ وعيونها تفضح تهديداً ما يحاصرها، ثم حلّت القضية بجملة بسيطة: «إذا كانوا يعتقدون بأنّك صيني... فلتكن كذلك».

لحظات أخرى ثم دخلت والدته بحالة من التفكير العميق وهي ترتشف بعضاً من الحساء قبل أن تشير نحوه بالملعقة في يدها وبنبرة من التهديد والتفكير والحسم استخلصت نتيجتها: «سأجعل منك الفتى الأكثر صينية في العالم... ثق بي».

في هذه النقطة من الحكاية، عادة ما يكسب انتباه الجمهور الكامل. أمّا باقي القصة فهي أمجاد وملاحم: كيف أن والدته أخذته لشراء الملابس الشرقية من المتاجر الكبيرة والشهيرة، ثم حالة الغيبوبة التي أصابت مخرج الإعلان عندما رآه يدخل إلى القاعة، ثم صرخ بصوت عالٍ: «من الأحمق الذي جعل الطفل يتنكّر بهذه الملابس؟».

ثم الخجل والإحراج عند العودة إلى المدرسة وكيف أن زملاءه أخذوا يسخرون منه ويغنّون الأبجديّة (ألف، باء، تاء هيا نقرأ يا أصدقاء...).

هذه التجربة القاطعة شكّلت لديه مرارة غريبة ممزوجة بالعواطف تجاه أمّه، والتي أحسَّ بها خلال سنين طويلة بعد ذلك، كما لو أن هذه المرأة التي لا يراها الآن إلّا مرّة كل ثلاثة أشهر، والتي لا زالت تعيش مع أختها في المنزل نفسه، كما لو أنها ولدت دون أي خبرات، وفي كل المجالات، كما لو كانت ببساطة مخطئة في كل شيء.

رؤيتها الخاصة للحياة الواقعية، طموحها المغرور، جعلوه يعيش طفولته مصحوبة بخجل دائم ومزمن، استطاع تحويله أحياناً إلى تفهّم رحيم عن بعد، لكن دون القدرة على ضبط الأعصاب وعدم الغضب في كل مرّة يراها فيها.

تلك المرحلة التي ألقى عليها باللوم الكامل في سائر المجالات انتهت منذ زمن بعيد، لكن هنالك شعور ما واصل الإلحاح، مفاده أن مشاعر والدته، كل ما

في داخلها من حب ورغبة وطموح كان ذا طابع بدائي، بدا هذا واضحاً في مجابهتها للحياة بتلك الصعوبة وعدم قدرتها على التأقلم. بقيت إلى الآن تتحدث كثيراً وبحماس شديد، لكن الوقت قد مر عليها وأصبح فمها خاماً أكثر من ذي قبل، تنفسها مختصر، وطموحها أشد اعتدالاً.

هل من السهل فهم كل هذا في حكاية الإعلان لموسوعة «افتح يا سمسم»؟

هذا ما اعتقده، وأخذ يقص القصة ذاتها مراراً، حتّى أنه فعل ذلك مرة في مقابلة على الراديو، ولدى خروجه تقدمت منه موظفة الصوت وأوحت له بفهم الحكاية.

«أتخيل ماذا يعني أن يكون لك أم كهذه» قالت الموظفة.

«لكنك لا تتخيلين ذلك في كل يوم» أجابها مبتسماً.

لكنّ الموسيقا جعلت الأشياء تبدو أكثر تكثيفاً، ثقته المطلقة بموهبته تدفعه للجزم بأن ذكاءه استثنائي، وأنه يميزه عن غيره من سائر الناس، أمضى أيامه وهو يؤلّف الألحان ويذهب إلى الجامعة، ويقضي ما تبقّى من الوقت بصحبة الأصدقاء. يتعرّف دائماً على أشخاص يشبهونه، دون أن يكون في ذلك أي عناء، تماماً مثل التأليف الذي كان في متناول يديه بسهولةٍ قصوى. كأن موهبة ما لديه طورها بدقة ليصادف نوع الأشخاص الذي يبحث عنه.

شكّل فرقة موسيقية، ثم انحلّت بعد شهور عدة؛ لأن الجميع كان يعتقد أنه عبقري الروك. ثمّ شكل فرقة أخرى استمرت لوقت أطول، وسجل معها مجموعة من النماذج قبل أن تنحل كسابقتها. بعدها وصل إلى الشهرة بطريقة لم يكن يتوقّعها، كان في الثامنة والعشرين من العمر، عندها شكل فرقة موسيقية بهدف التسلية لا غير، وقام أحد المخرجين السينمائيين المعروفين باستخدام بعض أغنيات هذه الفرقة في فيلمه، وانتشرت الأغاني في كل مكان، وفي الإعلانات، وفي حانات المدينة.

لم يعلّق عليها آمالاً كثيرة، فهو يعرف عالم الموسيقا جيّداً، لكنّه استمتع خلال هذه السنين بهذا المجد الصغير، كمن يربح اليانصيب ويبدده بسعادة.

«ما هو إحساسك وقد أصبحت مشهوراً بين ليلة وضحاها؟» سألته في أحد الأيام صحفيّة في مجلة نسائية، بعد أن استفسرت أيضاً عن المرّة الأفضل التي مارس فيها علاقة حميمة، كما سألته أيضاً عن مكانه المفضّل في مدريد، وما إذا كان يفضّل الحلو أو المالح؛ لأن أغنيته الشهيرة تدعى: «الحلو».

«لا شيء مميز، في النهاية ما زلت الأحمق نفسه!!»

إجاباته تعكس اعترافه الضمني بالشهرة، تلك القدرة على إبراز الأهمية التي لم يمتلكها معظم المشاهير الذين أجروا مقابلات مع الصحيفة النسائية: الرضا عن النفس والظهور العلني البرّاق.

ربّما أبسط وأصدق ما يستطيع فعله هو الإجابة بأنّه ليس مشهوراً. من وقت لآخر تستوقفه فتيات عشرينيات في الشارع لمعرفة ما إذا كان هو حقّاً، وفي مرّات أخرى يطلب منه المعجبون توقيعاً، لم يدرك تماماً كون ذلك كافياً لاعتباره مشهوراً، لكنّه كان على يقين تام بأنّ هذا سيوقظ غيرة باقي أفراد المجتمع الموسيقي في المدينة، والتي هي أولى عواقب شهرته الصغيرة وأشدها إصراراً، حسد دنيء وبشع، مشحونٌ بالعقد، جعله يخسر عدداً من الأصدقاء في السابق.

يعبّر عن نفسه بمجاملات مزيّفة، وأحياناً يطلق تعليقات حول موسيقاه القديمة (التي يُحبها جداً) قبل أن يحقّق النجاحات، وكيف أنّ موسيقاه الحالية لا تعجبه، لكن دون أن يتطرّق أبداً بحواراته عن الموسيقا التي ألفها في السابق. وأدّت به هذه الشهرة البسيطة إلى نسيان أحلامه وكأنّها انقرضت منه، فتحقيق القليل من خططه قاده إلى حالة من فقدان القيمة، كطفلٍ أمضى المساء في الصراخ لكي يشتروا له الحلوى، وعندما قدموها له استاء من شدة حلاوتها ومن إحساسها الدبق، وشعر بأن رغبته قد تحققت ما نقله إلى رغبات أخرى جديدة،

كالماء مثلاً، ليغسل به يديه ويطفئ عطشه. حتّى أن نجاحه دفعه للظن بأن العالم يتقلص ويضمحل من حوله، ضارباً عرض الحائط جميع القيم الفيزيائية، تاركاً ذاته معلّبة بين أحكامه وموسيقاه وشبابه الهائم.

في هذا العام ذاته تعرّف إلى سونيا، كان قد صادفها في حفلتين موسيقيتين أو أكثر. هي صديقة صديق أحدهم، ظنّ في بادئ الأمر أن باستطاعته ممارسة علاقة معها دون عناء، حيث إن الأمر لطالما حدث بسهولة مع الفتيات اللواتي أعجبنه، لم تحرك هذه المزايا الغرور لديه، لكنّه يجهل تماماً صيرورة الواقع العاطفي لدى معظم الناس من حوله. لم يكن أنانياً إلّا أنّه شديد النسيان وقليل المداراة لا يبدي اهتماماً بمشاعر الآخرين، ولا حتّى بمشاعره هو نفسه. وفي الواقع عاش عالمه العاطفي وحيداً. يستمتع بالعلاقات الجنسية بقناعة كاملة بأنّه يرضي الطرف الآخر، لكن المتعة سرعان ما تتلاشى عندما يقترب من خصوصيات الفتيات ومشاعرهنّ، يرتاح من جرّاء ممارسة الجنس معهنّ بأقصى سرعة؛ لأنه يرى في ذلك تجاوزاً لجميع العوائق والحواجز، فيرتاح ويشعر أنهن أيضاً بتن مسترخيات وأشدّ انفتاحاً. هكذا بدت حياته العاطفية، رديئة ومكسوّة بالذهب. كمن يشغله هوس السرقة ويتمتّع بقدرة وهمية على الإغراء في حين أنّه لا يمتلكها فعلاً.

سونيا كغيرها من الفتيات، أنثوية وجميلة، أرادت إخفاء حماسها وشغفها دون أن تحقق ذلك، جمالها يجعل منها تبدو خبيثة وواعية، وهي قد استقلت للتوِّ عن أهلها، تعيش بمفردها في علية صغيرة أشبه بالعلبة. تصغره بخمسة أعوام.

في بادئ الأمر أخبرته أنها تحب الموسيقا التي يقدّمها، ثم أخبرته بأن إحدى الأغاني التي ألّفها مؤخّراً سيئة جدّاً، بعد نصف ساعة من ذلك قبّلها في الشارع، ثم وبعد ساعتين ذهبا إلى بيته، جسدها صغير ومصمم بدقة، نضرة ومليئة بالعظام، ولكن كمية العقد التي رآها فيها تجاوزت تصوّره، حلمة أحد

ثدييها تغوص نحو الداخل عندما نزع عنها حمالة الصدر: «لم لا تريد الخروج؟» علّق مبتسماً.

تقنية سونيا للتغلّب على عقدها في تلك المرحلة كانت بإظهارها للعلن بأسرع وقت ممكن لمجابهتها على الفور. تبدي الحماس لتقنع نفسها بأنّها شخص شهواني، تقوم بحركات نشيطة وتتلفّظ بعبارات جنسية، ثم تسكت قليلاً وهي تنتظر الإجابات عليها متأمّلة الأغراض التي تحيط بها: «يا لك من شاب مثير».

أمّا هو فكان يدّعي الإثارة مُطلقاً قهقهات متقطعة، في الحقيقة أعجبته أكثر عندما كفّت عن لعب دور المثارة، فيها أمر ما يجذبه لم يعرفه على الفور، ربّما هو تمرّدها. في الوقت نفسه لم يقع في غرامها ولم يحس بالحب نحوها، إلّا أن شيئاً ما فيها ظلّ يناديه دون أن يستطيع التحكّم به.

نظر إليها مطوّلاً عندما كانت نائمة، مستغرقاً في تفكير ذاتي بجمالها وملامحها سعيداً بوجودها وبطباعها، فهي تتحدّث كثيراً، وتمثّل الغموض والشهوانية، إنها فعلاً غامضة، لكن ليس بالشكل الذي تظنه هي، تتجنب على الدوام الحديث عن عائلتها، ما دفعه للتأكد أن هنالك ما هو جدّي ومظلم. كلما سألها عن عائلتها كانت تتهرّب وتكتفي بالقول بأنهم ليسوا مقربين جدّاً: «كجميع الأسر» تعلّق دون أن يكون للموضوع أية أهميّة.

حدث بعد أربعة أشهر من تعرفه عليها، عندما ظهرت في الصباح تدق باب بيته، وعلى وجهها التعب وكأنها لم تنم طوال الليل، ومن عتبة الباب وقبل أن يدعوها إلى الدخول أخبرته بالأمر:

«أنا حامل».

«أمتأكدة من ذلك؟».

«بالطبع».

«غير معقول».

«بالتأكيد معقول».

الحديث كان مضطرباً لدرجة أنه لم يبتعد عن الباب ليدعها تدخل، دخلت بثقة مبعدة إياه وهي تتحدث:

«غير معقول؟؟».

«حسناً، استرخي قليلاً».

«أنا مسترخية».

«هل تريدين الإجهاض؟».

يتذكّر أنها كانت تدير ظهرها له، ثم التفتت نحوه فجأة بطريقة جديدة كليّاً.

«هل تعتقد أنني جئت إلى هنا طالبة النجدة منك أنت؟».

في سؤالها هذا تقليل واضح من شأنه، ونوراً ما كان يشع من وجهها مع ابتسامة طفيفة دامت ثوانٍ قليلة. أدرك في هذه اللحظة بالذات أن ما من شيء يمكن فعله لتغيير ما حدث. ارتسمت ردة الفعل على وجه سونيا ولن تُمحى من ذاكرته أبداً. أمّا النجدة، أو الحب أو حتّى الصداقة أضحت كلّها مسائل هامشية، وفكرة أن سونيا حقّاً ستنجب هذا الطفل. بالطبع ستنجبه، تراءى له هذا التأكد في برهة، ثم حاول تجنبه بحياء، كشخص ناقص لا يمكنه فهم الأساسيات الأكثر بديهية في تحمل المسؤولية. لم يكن يشعر بأي شيء، أو على الأقل لم يملك ما يستطيع قوله، أن يكون له ابن هو أمر بالغ التجريد وفوق التصور بالنسبة له، أمّا سونيا وبأعوامها الأربعة والعشرين بدت واثقة ومتوتّرة بذعر، هو لم يشعر حتّى بوجوده معها في غرفة المعيشة، حتّى الأغراض من حوله كانت صعبة الفهم. بعد ساعة واحدة عانقها، وانتقلت لتعيش معه بعد أسبوعين من ذلك، بقرار أحادي الجانب منها دون أن يمانع هو الأمر. حيث أن سونيا وصلت مع ثلاث حقائب وبعض المصابيح الجديدة ورغبة عارمة بتغيير مواقع الأشياء.

لعبوا خلال عدة شهور دور المتزوجين، لعبة مجنونة بعض الشيء وغير طبيعية، ينامون سوية على الفراش، هو يدير ظهره وهي تعانقه من الخلف دون التحدث بموضوع الطفل، لا يتذكر عمّا كانوا يتحدثون حتّى، يذكر فقط أنه في بعض الأحيان أحس بوجود سونيا معه في البيت، هذا الوجود الغريب والملموس الذي تخطّاه أحياناً، يذهبون إلى السينما وترافقه إلى حفلاته الموسيقية، وبعدها يذهبون لتناول الجعة مع باقي أعضاء الفرقة بما أنها الرفيقة الحامل لموسيقي الروك اللامع. لم يشعر هو بأنه مخدوع أو متوتر لكنّ الموقف سبب له انعداماً في الوزن وعدم مبالاة، بالنسبة له الأمر بسيط فهو ليس إلّا مرحلة انتقالية. انجذابه نحوها في الحقيقة ذو طابع أخوي، مودّة تقليدية وعابرة. يمارسون الجنس من وقت لآخر، حيث إن سونيا لم تتطلب الكثير منه وهو تنتابه الغرابة من الأمر في كل مرّة، وكأن هذا الطفل الذي سينجبونه سويّةً قد حل المسألة بالمطلق.

في يوم من الأيام خرج من المنزل فاقترب رجل في الشارع منه:

«هل أنت خطيب سونيا؟».

«نعم».

«أنا والدها، هل لديك الوقت لنشرب القهوة؟»؟.

لهذا الرجل هيئة رجل أعمال عقاري، لباسه أنيق، وهو نصف أصلع قد رفع ما تبقّى من شعره إلى الوراء، وجهه ليّن قليلاً وناعم يوحي بالبذخ وتفوح منه رائحة عطرة، كأنه في زمن سابق كان يتقمص سيداً راقياً متزوجاً من امرأة شقراء جليدية يأكلون اللحم المشوي في كل عطلة.

أخبره بأنهم يعرفون أن سونيا حامل، وأنهم قلقون حيال الأمر، هي لا تجيب على اتصالات إخوتها، في كل ما يقول يستخدم صيغة الجمع غير المريحة تلك التي تعطي الانطباع بأنه يمثّل منظمة أو ما شابه، حركاته برمّتها تحمل

أسلوباً تجاريّاً، حتّىٰ عندما أمسك يده مانعاً إيّاه من دفع ثمن القهوة وهو يخرج محفظته من جيبه:

«أنا سأدفع».

أراد فقط أن يعرف أن سونيا بحالة جيدة، وبأنها لا تحتاج لشيء، وكيف تتعامل مع الحمل، قدّم له بطاقة كتب عليها رقماً شخصيّاً قال: إن باستطاعته الاتصال به في أيّ وقت يشاء، وطلب منه ألّا يخبر سونيا بهذا اللقاء بشيء من الصداقة والإملاء، أزعجه قليلاً الأمر حيث رأىٰ فيه التزاماً من نوعٍ جاد.

«وأنت؟؟ أنت موسيقيٌّ أليس كذلك؟» سأل في نهاية اللقاء بشكل مستهتر ذكّره بسونيا في تعابير وجه هذا الرجل.

أوّل ما فعله تلك الليلة هو إخبار سونيا، ظنّاً منه أن يتعاون مع والدها، جنّ جنونها في البداية، ثم راحت تستجوبه عن أدق تفاصيل الحوار الذي دار بينهما، أرادت أن تعرف ما الذي قاله له والدها بالتحديد، ثم صارت جديّة ومستغرقة في التفكير. وبعدها دخلت إلىٰ غرفة النوم وأخذت تبكي وحيدة. لحق بها وجلس قربها واضعاً يده علىٰ كتفها.

«ليس عليه أن يكون لطيفاً؟» قالها بطبيعية، ربّما كانت المرة الأولىٰ التي يتعامل معها بطبيعية، لكنّ سونيا رأت في هذا لفتةً مسرحية، آلمه الأمر وشعر أنه غريب وميّت، وأن وجوده غير ضروري في هذا العالم، حتّىٰ عندما قرر ملامسة كتف هذه الفتاة الحامل، إلّا أن شيئاً ما دفعه إلىٰ الفرح من جرّاء ذلك. شيءٌ ما لابد أنه سيحدث وستعود الحياة إلىٰ مجراها الطبيعي، فكر دون أن يعرف تماماً ماذا تعني هذه الكلمات مجتمعة في وصف الحياة، في طفولته لم يستطع التفكير في الحياة إلّا بصيغة مجرّدة، مع أن الحمل يزداد واقعيّة يوماً بعد آخر. سيولد الطفل بعد أربعة شهور إذا سارت الأمور علىٰ ما يرام.

ظلت سونيا شاردة ليومين ثم صارت تدلي بتصريحات غريبة وغير مريحة عندما يحين موعد النوم:

«هناك ما أريد أن أقوله لك، أمر لم أفصح به حتّى الآن».

تلفظت بهذه الكلمات بجدية مطلقة، إلى درجة أنه ترك غسل الصحون بانتباه والتفت إليها: «أجل، قولي».

«أنا مليونيرة».

«ما الذي تعنينه بمليونيرة؟».

بدا له أن الاعتراف خارج السياق وأمسى هو في حيرة حقيقية.

«أعني مليونيرة، أي أملك نقوداً كثيرة».

«كم من المال تقريباً؟» سأل وهو يثير الدعابة. لمْ يعرف لِمَ أثار الحديث الضحك لديه، وأغضبه في نفس الوقت، ربّما هذه هي الكلمات السطحية التي تدفعه إلى الانفعال..(مليونيرة).

«إنهم أكثر من ثلاثمئة ألف يورو نقداً، ثم الاستثمارات ومنزلان في مدريد، هذا دون الحديث عن أشياء والدي».

«وما هي أشياء والدك؟».

«مزرعة، وثلاثة مصانع، مصنع للمفروشات ومصنعي أخشاب، ثم ستة أو سبعة بيوت وربما أكثر وهناك أشياء أخرى لا أذكرها الآن».

فكّر قليلاً ثم خطر بباله سؤالٌ:

«ولم تعيشين في العلية إذاً قبل مجيئك إلى هنا؟».

«لا أدري، وددت ذلك».

أحدث جوابها اشمئزازاً لديه، ثم ردد كلامها:

«نعم، وددت ذلك».

جرى حديث عادي بعدها وخلدا إلى الفراش دون أن تعانقه سونيا في

تلك الليلة، وفي اليوم التالي تـذكر هـو الحـديث بمـرارة. لم يُثـر الموضـوع عنـده إحساساً بالدونية من شدة ثراء سـونيا، فكميـة النقـود التـي ذكرتهـا فاقـت حـد تصوّره. لم يكن المال الكثير يغريه قط، لطالما امتلك حاجته منه سيما بعـد شـهرته الصغيرة التي سمحت له من خلال الحفـلات التـي يُحيهـا هنـا وهنـاك بـالتمتّع ببعض البذخ. ينفق ما في يده من أمـوال بـبعض مـن الإسراف، ويـستغرب ممـن يتوقون إلى الادخار والبخل ويعزيه إلى قلّة السعادة. ما جعله ينزعج مـن حديثـه مع سونيا هو الكذبة التي انطلت عليه لشهور عديدة، بالإضافة إلى الطريقة التـي قررت فيها ربط وجودها بثروتها هذه، والتي بدت له طفولية للغاية، فهي ترفض استعمال نقودها وأملاكها عن سوء نية بطريقة لم يصل إلى فهمها، ما جعل إمكانية التفكير في إمضاء حياته معها تغدو ضئيلة أكثر من ذي قبل.

صادف أنـه في ذلـك الـشهر اضـطر للـسفر إلى عـدة محافظـات لإحيـاء الحفلات الموسيقية، الأمر الذي أبقاه خارج المنزل لوقت لا بـأس بـه، ثـم وبعـد انتهائه من الحفلات قرّر عدم العودة فوراً إلى البيت. خلال عشرة أيام لم يتواصل مع سونيا إلّا من خلال بعض الرسائل النصية وعندما كان في المدينة الأخيرة مـن جولته تعرف إلى فتاة عشرينية وأقام معها علاقة حميمة، ثم رافقها إلى منزلها الذي تشترك فيه مع أناس آخرين.

وفي تلك الغرفة الصغيرة، وهو لا يزال عارياً إلى جانبها في السرير، محاطاً بصورها الفوتوغرافية، خطر بباله أن حياته في العام الأخير بعـد أن قابـل سـونيا وربّما حياته برمّتها قد أصبحت باهتة وغير مفهومة، مثـل كومـة مـن المفارقـات والمواقف المدبوغة باللاجدوى. وعندها أدرك للمرة الأولى، وهو ينظـر إلى ظهـر الفتاة العاري الذي يبدو كظهر رجل مريض، وإلى تـدوُّرِ أردافهـا المغـري الـذي يحمل بقعة غامقة لها شكل إستراليا، أدرك أنه سيُصبح أباً. ما كان من الفتاة إلّا أن استدارت عندما وضع يده على خـصرها. ظلّـت جميلـة رغـم النـوم والكـؤوس

الكثيرة التي تناولتها ليلة أمس، عاودوا ممارسة الجنس ببطء وهدوء، وشيء من البرود والتباعد ريثما انغمس هو في التفكير بسونيا، وأيضاً بالطفل الذي تحمله... حيث إن هذه الفتاة والتلامس بينهما دفعاه إلى الإحساس لأول مرة أنه في غضون أشهر قليلة سيصبح أباً وأن الأم هي بالتأكيد (سونيا).

عندما عاد إلى البيت رآها تعمل على الحاسوب وهي عابسة، التفتت إليه وحدقت به لفترة لا بأس بها، لم يتجرأ هو على الاقتراب منها لإلقاء التحية، وظلّ على بعد مسافة منها.

«هذا ليس ما توقعته، ليست هذه الحياة التي تمنيت».

جملتان بعد تفكير عميق إذاً، لابد وأن سونيا رددتهما طوال غيابه. ظنّ أن الاعتذار سيجعله يبدو كالمعتوه؛ لأنه ببساطة لم يكن عند توقعاتها، تلك التوقعات التي لم يكن جزءاً منها في حياته، فلم يقم بالاستسماح. حتّى هي لم تجبره على فعل ذلك، وفي غضون أسبوع تحوّلت سونيا إلى شخص آخر، لعلها عادت إلى شخصيتها الحقيقة، تلك الشخصية التي لا تأخذ القرارات إلّا بعد أن تقلل من شأنه هو في كلّ مرة.

«تحدّثت مع والديّ، أعتقد أنني سأعود إلى المنزل مبدئيّاً، هل تريد أن أعلمك عندما سأضع الطفل؟».

«أجل بالطبع أعلميني!».

«ساعدني بإنزال الحقائب إذاً، لا أستطيع فعل ذلك بمفردي».

هي امرأة قوية، تولدت لديه قناعة راسخة بأنها أقوى منه بكثير في تلك اللحظة. هذه الفتاة الشابة الحامل، هذه المخلوقة الصغيرة التي تمشي بثقل وتتكئ على الأغراض وهي تضع يدها على وركها كان بوسعها أن تقفز من فوق دبابةٍ إذا ما اعترضت طريقها. رافقها نحو سيارة الأجرة وعندما حان موعد رحيلها انحنى لكي يقبلها بلطف.

«لا تفكّر حتّى بذلك» أجابته وهي تغلق باب السيارة بقوة في وجهه لدرجة أن السائق لم يقوَ على الاعتراض.

بعد شهرين فقط حان وقت الولادة: «سونيا ستنجب الطفل».

أخبره أحد أخوتها بالهاتف «طلبت مني إبلاغك أنها في مستشفى الطهارة غرفة رقم 342 قسم الولادة..».

خلال هذا الوقت تحدثوا مع بعضهم في الهاتف دون أي لقاء. سونيا منقسمة بين الضغينة التي كنتها له وتلك التي كنتها لعائلتها. وفي النهاية انتصرت الضغينة التي كنتها له بما أنها تشاركتها مع عائلتها، وعندما قابلهم كان الأمر مميزاً.

لو علم بحجم التوتر الذي سيلقاه في العيادة لما كان قد ذهب ليرى ابنه للمرة الأولى.

بدا الموقف كأنهم اتفقوا على عدم إلقاء التحية عليه، مد يده لمصافحة والدها وهو يهنئه بالمولود، لكن الأب لم يبادله التحية واكتفى بالرد بجفاء: «شكراً».

وثمة أخ لسونيا بعمره تقريباً يبدو أنه بذل مجهوداً كبيراً لئلّا يقفز نحوه ويحطّم وجهه حيثما كانوا. غرفة المشفى ضيقة ومليئة بالناس، الفتيات الأصغر سنّاً تصدرن صرخاتٍ حماسية، وفي الوقت نفسه فإن الحزن والخيبة سادت المكان، الجميع يسترق نظرات الإدانة نحوه وكأنه المسؤول الوحيد عن تعاسة الموقف. وأخيراً نظر إلى سونيا وعلى صدرها قد استلقى الطفل الصغير، لم تشبه نفسها حينها فكل شيءٍ فيها منتفخ، تدّعي الرصانة وهي مستاءة من جميع من حولها، رمقته بنظرة جادّة، ثم ابتسمت وطلبت من الباقين تركهم وحيدين، لبّوا رغبتها على الرغم مَنٌ انزعاج معظمهم، أكثرهم ابتذالاً كان أخاها الذي اقترب منها وهو يخرج ونظر في عينيها وعلّق: «هل ستكونين بخير؟» كما لو سألها «هل متأكدة أنه لن يسبب لك الأذى مجدّداً؟».

«هل كانوا فظين معك؟» استفسرت سونيا عندما خرج الجميع.

«حسناً».

«انظر، ألا تريد رؤية ابنك؟».

أمسك به بين ذراعيه، قبحه وصغره يفوقان الخيال، ولاحظ أيضاً خفّته وابتلاله الذي قاده إلى استشعار الذنب وإلى الارتباك. لم يكن يشبهه ولا يشبه سونيا. لكن كيف يتعرف على الطفل؟ إذ إن الشيء الوحيد الذي يعرفه هو أنه هناك، وأن هذا الطفل يبذل مجهوداً وهو مستيقظ يحرك جسده ويمدده محاولاً فهم أبعاده الفيزيائية. وبعد خطوة واحدة بدأ يفهم جملة الأحاسيس التي تشكل شبكة الحب بين كائنين والتي لم يفهمها من قبل، أمّا سونيا فقد بدت في أفضل حالاتها.

«ماذا سنطلق عليه؟؟ كيف سنسميه؟» سألها.

«أنطون، كجدّه!».

«مثل والدك؟».

أومأت سونيا ريثما نزع هو قفازات الطفل الصغيرة لكي يرى يديه: «لماذا يضعون له القفازات؟».

«لئلّا يخدش وجهه بأظافره، فهو لا يسيطر بعد على حواسه».

«ويلاه».

نظرت إليه سونيا وهي تفكّر، فهي لا تريد سماع التصريحات المهمة، وهو كذلك لم يجلب أياً منها معه. يحمل الطفل ويركّز على الدفء المنبعث منه، طريقته في فهم وجوده بدت غريبة وفريدة، مثل أحجية طفولية ناقصة القطع، يضع إصبعه أمام أعين الطفل فيمسكه أنطون بكلتا يديه الصغيرتين، انتبه إلى رائحة سونيا التي تفوح في الغرفة، والتي تشبه رائحة لحم ناعم وحسّاس، وأما شكلها فبدا خفيفاً كطائر رقيق.

«لا تفتعل هذا الوجه الغبي» قالت سونيا فضحك هو للمرّة الأولى.

«وجهك يشبه وجه المغفلين» كررتها مجدداً.

«آه... أجل».

ساد الصمت لوهلة، وفي الخارج أخذت أصوات الزحام تتعالى من جراء وقوف عائلة سونيا هناك.

«من الأفضل أن تغادر» قالت له.

خلال السنة الأولى من حياة أنطون عاشت سونيا مع والديها، ولهذا فإن رؤية الصبي بهدوء وطبيعية استحال عليه بالكامل، إلّا عندما تصطحبه والدته معها في نزهة في الحديقة حيث يتجولون هناك ويذهبون إلى البحيرة. مع الوقت.. لم يعد هناك ما يجمعهما كثيراً، فرغت سونيا من الدراسة وبدأت تعمل كخبيرة نفسية، تخطط لفتح عيادتها الاستشارية عندما ترى نفسها مستعدّة، وغالباً ما تتدرّب به وهي تشرح له عن مشكلته المحورية.

«مشكلتك الحقيقية هي أن الحياة لا تبدو لك واقعيّة أبداً».

رددت هذا عدة مرات وأخبرته أيضاً في مناسبات ثانية أن مشكلته تكمن في أنه لا يستطيع الالتزام، وأن أزمته المحورية هي علاقته مع والدته، ثم إنه لا يعي نهائياً معنى التقدّم في شخصيته. تحليلات سونيا جرحته في بعض المناسبات، ربما لأنها أصابت عين الحقيقة أكثر من سابقاتها. تحوّلت هي من شابّة متمرّدة إلى شبه امرأة متغطرسة وواثقة من نفسها، تسبب له عدم ارتياح في بعض الأحيان، سيما في أسلوبها الجديد في ارتداء الملابس ذي الصورة المنهجة والمرتبة، وفي طريقتها الرصينة في الحديث والمستعدة دائماً لاستخلاص النتائج القطعية. وتبنت أيضاً عادة جديدة تلخصت بمناداته: «عزيزي» لكن بشكل طفولي، كأنما تساير ولداً طائشاً و إشكاليّاً.

يجتمعون ويتحدّثون القليل عن كل شيء في الساعة الأولى، خصوصاً

هي، وفي الربع ساعة الأخيرة تسأله عن حاله بشيء من الخجل المستتر من جراء سيطرتها التامة على الحديث، دون الاعتراف الصريح.

«دعنا لا نتحدّث عني» تقول وهي ترسم ابتسامة محترفة على وجهها، الابتسامة عينها التي تخطط لاستخدامها مع زبائنها ومرضاها المستقبليين.

وضعه هو يتدهور بالتدريج، أحد أعضاء فرقته غادرهم إلى فرقة أخرى، وسبّب دخول شخص جديد اضطراب الأجواء في المجموعة. لم يعد يؤلّف الموسيقا إلّا نادراً، وأصبحت موسيقاه الأزلية التي يعزفها في الحفلات دافعاً للهيجان والملل، ثم وصل إلى مرحلة يرفض فيها عزفها بالمطلق. صارحه مدير الإنتاج بصعوبة الموقف، وأن عليه أن يبحث عن مصدر جديد لكسب الرزق، وأنه يستطيع إقناع بعض الفرق به كي يدير حملاتهم الدعائية. لم يكن العمل سيئاً إلى هذا الحد، فالمردود جيد وبدأ ينخرط به لعدم وجود أي بديل. خلال هذا الوقت وإلى أن بلغ أنطون السنتين من عمره ظلّ هاجسه الوحيد رؤية ابنه من وقت لآخر، هذه هي رغبته المطلقة التي تدفع للقلق والتي أطلقت عليها سونيا: «اضطراب في الوعي الآني»، أمّا هو فلم يكن بمقدوره وصف هذه الحاجة إلّا بأنها: «ضرورة وجودية». أنطون لم يعد رضيعاً بشعاً، فقد تحوّل إلى طفل شديد الجمال، ذو ملامح أنثوية طفيفة، صامت دائماً ما دفعهم في البداية للاعتقاد بأنها بذور مشكلة ما، ثم تبيّن أنه فقط ولدٌ هادئ للغاية.

«يا له من حظّ جميلٍ بالفعل» ردّدت سونيا مراراً بقناعة ناقصة، فهي لطالما رغبت بابنٍ شديد الحركة والحيوية.

بدأ يلفظ كلماتٍ قليلة، أو هذا ما أكّدته سونيا؛ لأن الطفل كلّما رأى أباه ينكمش على نفسه ولا يصدر أية أصوات أو ردات فعل، يمشي باتجاه أمه متأرجحاً، ويرتعب من احتمالات أن يقترب والده منه أو يقبله، لا يهدأ سوى بوجود سونيا بالقرب منه، أمّا إذا ما ابتعدت قليلاً، فأنطون يخاف وينظر إلى

والده بعيون صغيرة مذعورة مراقباً إيّاه. كل هذا يدفعه للتفكير في أن الطفل لـن يخترع ما لا وجود له، وأن شيئاً ما فيه لابد أنه ينفّر الصبي، ربّما هو خوفه ينعكس عليه، لكنّ وجوده بالقرب منه يمنعه من التأمل بصفاء، يدخله في حـيرة ويحـول دون إيجاد الكلمات والمعاني لوصف الأحاسيس، تعجبه ملابس الصغير وهدوئـه ويتأمل جماله وكيف أنه يركّز لفهم الأشياء من حوله: كحفنة مـن الأعـشاب، أو لعبة جديدة، له رائحة جميلة، رائحة لحم جديد ونضر ممزوجة بعطر تمس به سونيا جلده الرقيق. كل هـذه المـشاعر مجتمعـة لم تقـده إلى عِـبر أو خلاصـات فهـو لا يستطيع جمعها في فكرة أو نتيجة.

أراد وبشكل حاسم أن يمنح هذا الطفل السعادة، لكن هذه الرغبة بـدت له أكبر بكثير من أن يستطيع تحقيقها، فيلجأ إلى محاولة بناء التحالفات مع الطفل، كأن يبتدع لغة سرية يتواصل معه من خلالها ولا يفهمها أحد سـواهما. يـضع لـه اللعبة بالقرب منه على أمل أن يلتقطها الصغير، أو يقلّده في المشي بجدية كاملة، لم يستطع منذ اليوم الأول أن يجعل الطفل يضحك، أنطون لم يكـن كثـير الـضحك أيضاً مع الآخرين، وهو لطالما كره لعب دور المهرّج. في الواقع أحبّه أكثـر عنـدما يفتح فمه مستغرباً ومركّزاً أو عندما يكـون نـائماً أو منهكـاً، بـل وعنـدما يبكـي. فهناك تتسلل إلى ذهنه إمكانية سبر أغوار دماغه الصغير ومحاولة فهمه والوصول إلى أسراره.

لم ترَ والدته الطفل غير مرّة واحدة لمّا بلغ العام ونصف العام، تذكّر الأمر كان كافياً للحقد على سونيا مدى الحياة. ذلك أن جميع الأعذار قد نفدت وبدأت والدته تهدد بالذهاب إلى منزل والدي سونيا لتصرخ في وجههم أنها جدة الطفـل وان أحداً لا يقدر منعها من رؤية حفيدها الوحيد، الحفيد المختطـف برأيهـا مـن قبل «عصابة عقارية»:

«أنا لا تهمنّي نقودهم، سأكسر الباب وأدخل إن اقتضى الأمر».

وصلت به الإهانة إلى الحدود القصوى، واضطر للتوسل إلى سونيا للمرة الأولى بالسماح له بإمضاء يوم كامل مع الطفل بصحبة أمه.

«سأذهب معكم» أجابت سونيا.

«ألا تفهمين، نريد أن نكون وحيدين مع الصغير. إذا كنت موجودة ستتوتّر أمي، وأنا أريدها أن تبقى هادئة وأن تتمتع بحفيدها ليومٍ واحد... لا أصدق أن عليَّ التوسل لك».

في الحقيقة خشي أن تمضي والدته الوقت في التهجم على سونيا، فهي لم ترها مطلقاً من قبل، وخاف أيضاً من أن يضطر إلى الاعتناء بالطفل بمفرده.

جلبت سونيا أنطون يوم الأحد في الساعة الحادية عشرة صباحاً، بعربة مليئة بالفوط والمساحيق، وقبعة للشمس، ولائحة تعليمات من عدة صفحات، ذلك بعد أن ألغت الخطة لعدّة أسابيع من قبل لعدم اقتناعها. آلمه جدّاً خوفها من أن تترك أنطون معه، هذا الرعب الفظيع وكأنها ستسلم ابنها إلى عصابة من الخاطفين. فزعها لا يمكن تجنبه وفيه ترسو جميع مخاوفها الاجتماعية منه ومن والدته.

قرّروا تناول الغداء في الخارج، فالطقس جميل. بقي على الموعد ساعة واحدة وبدأت الكوارث، فأنطون انفجر بالبكاء دون توقف منذ أن تركته أمه التي ظلت تتصل كلما مرت عشر دقائق لتسأل عنه.

«كل شيء على ما يرام» يجيب هو بألم «إذا ما طرأ أمر ما سأتصل بك لا تقلقي».

استغرقه الأمر عشرين دقيقة حتّى يجد المطعم الذي تواعد فيه مع أمه وهو يتجول في الشارع مع عربةٍ وطفل لا يكف عن البكاء، ينحني نحوه، يداعبه ويطلب منه التوقف عن الصراخ دون جدوى. النساء تمشي في الشارع وتنظر إليه، وهو يشعر وكأنه مطلوب للعدالة أو مشتبه به في خطف الطفل. جلس في

النهاية في أحد المطاعم وركن العربة المحمّلة بالأكياس والغيارات بشكل يستطيع من خلاله إبقاء عين على أنطون، ثم راح يتأمله صامتاً. يمسح له بين الفينة والأخرى دموعه وأنفه الصغير بالمنديل، وأخذ الصغير يهدأ أخيراً دون التوقف عن رمقه بنظرات الحذر. فكّر بأنها المرّة الأولى التي يبقيان فيها وحيدين تماماً، طلب كأساً من الجعة بانتظار والدته. هذه الدقائق بلا منازع بدت الدقائق الأكثر غرابةً في ذلك اليوم، وهي اللحظات التي ستبقى محفورة في ذاكرته بعده. أنطون جدّي وبعيد، ينظر إليه وهو يتناول كأسه ويداعب يد ابنه بخجل دون أن يسحب الطفل يده، ودون أن يرحّب بالأمر من جهة ثانية. ثم قدّم له إحدى الألعاب التي وضعتها سونيا، سيارة صغيرة معدنية حمراء، التقطها انطون وراح يقلبها ويضعها في فمه ثم يضرب بها ركبتيه، نظر إليه بنهم مستغلاً أن الطفل مشغول ومنهمك باللعب، أحس بضيق شديد وانزعاج بسبب غياب الطبيعية بينه وبين ابنه، لم يحس بهذا من قبَّل إلّا بشكل كسول وغير واضح، فهو لا يحب التعاسة والكآبة ولا يمتلك مواهب فذّة في إظهار المشاعر والبؤس، لكن الضعف تسلل إليه في هذه الأثناء، والغصة راحت تقطع أوصاله من الداخل مع مرارة حارقة في حلقه، انحنى وقبَّل أنطون، فلم تحدث قبلته ردة فعل لدى الصغير وبقي يراقب سيارته.

انتابته رغبة عارمة بأن يناديه «يا بني» أحرف هذه الكلمة تقلّبت في رأسه كمن يستذكر يوماً سعيداً وهو على حافة الموت:

«تبدو جميلاً وأنيقاً!!» خاطبه فانتبه أنطون ونظر إليه بفضول.

«أجل إني أتحدث معك يا بني، أنت جميل، وأكثر أناقة من والدك!!».

ربما قال هذا فقط، لأنه أراد أن يسمع هذه الكلمة بصوت مرتفع، لم يعرف السبب، يمكن أيضاً أن يكون بسبب قدوم أمه من بعيد وأن وقت العزلة مع ابنه قد انتهى رسمياً.

بدا شرح أحداث اليوم لسونيا، وخصوصاً ذلك الخدش في ذقن أنطون مستحيل التحقيق. ذلك أنها كانت شديدة الحساسية كما لم تكن من قبل وكأنها في مسرحية ما، ولدى رؤية ابنها الباكي والذي مد ذراعيه نحوها عائداً من رحلته الأبدية، خصصت لأبيه نظرة حقدٍ غاضبة وهي تلتفت إليه: «أتمنّى ان يكون لديك تفسير منطقي لهذا».

لم يمتلك شروحاتٍ عظيمة غير قول الحقيقة، فجدّة أنطون أصرّت على جعل الطفل يمشي وحيداً ووقف هو على بعد ثلاثة أمتار، خطوتان ناجحتان، ثم وقع على الأرض، لم يكن الأمر خطيراً، جرح طفيف ضمدوه له بما قدّم لهم صاحب المطعم في الهواء الطلق حيث جلسوا، الصدمة خفيفة لكنها تركت ندبة صغيرة وفاضحة في القسم العلوي من ذقن الولد وسببت انتفاخاً في شفته السفلية.

«لا تخاف يا حبيبي لن يحدث ذلك مجدّداً» خاطبت سونيا الولد.

«ماذا تعنين؟».

«أعني ما سمعته، ان الأمر لن يتكرر... انظر إليه إنّه مذعور، لم أره هكذا في حياتي».

أنطون خائفٌ فعلاً، فاضطر إلى إعطائها الحق فيما تقول.

«تركت في الكيس بعض الألعاب التي اشترتها له جدّته».

فتحت سونيا الكيس ونظرت دون اهتمام إليه دون أن ترى حقّاً ما في داخله، ثم التفتت وودعته وغادرت. راقبها وهي تبتعد حتى اختفت خلف إحدى المنعطفات هي تنحني باستمرار إلى عربة الطفل.

لم يشرح لسونيا مطلقاً ما جرى في هذا اليوم: أنطون شعر بالذعر من جدّته منذ البداية. خوف ورفض وقرف ربما، وفرّغت فيه الجدّة كل ما فيها من يأس وثقل فنفر الطفل منها. وعندها فقط أدرك كم أنها فكرة سيئة ألّا تكون

سونيا حاضرة، لكن الوقت قد فات على الندم. ظلّت أمه تتصرف بعدم توازن كعادتها، تحاول التودد إلى الصغير والبحث عن شبيه له في تاريخ العائلة السحيق، وخلال نصف ساعة راحت تحدثه وتقسم له أن أنطون هو النسخة الحيّة لخالها ألفريدو. أمّا هو فأخذ ينظر إلى ابنه بحزن وهو يصمم على عدم جعلها تأخذ أي دورٍ في حياته المستقبلية. جسد والدته الموتور والمشدود أكّد له أنها لن تستسلم أبداً للواقع، وأن الطفل هو هدفها المراد، فالنسبة لها، حياتها كاملة وضعت للسنين القادمة على محكِّ النجاح أو الفشل في هذا اللقاء الأول. تخطط وتحكيك مؤامراتها التقليدية الغريبة الأطوار مثلها، استطاع التنبؤ بكل ما سيحصل، وشعر بالتعاطف معها قليلاً، تعاطف لن يدوم حتماً. هي في السادسة والخمسين من العمر، لكن أعوامها هذه لم تجعل منها امرأة رصينة، إنما حوّلتها إلى كتلة من الأعصاب المشدودة والهوجاء، والمثابرة بعناد. فمثلاً أصرّت على أن تجعل أنطون يمشي أمامها للمرّة الأولى، لكن الطفل سقط بعد الخطوة الثانية نحو الأرض، فتراجعت ونال الحزن منها: «لا أستطيع إقناع نفسي بأنني سأراه مرّة واحدة في السنة».

ثم صرحت بأسى: «من الطبيعي أن يخافني الصغير، كيف سيحبني إن كانت علاقتنا ستكون عن بعد... لا أعلم بمَ كنت أفكّر طوال هذا الوقت».

وفي السيارة لدى عودتهم ظهر عصب رأسها الأكثر مدعاة للقلق: «أفضل اعتباره غير موجود» لكن عند الوداع اقتربت من أنطون وهي تبكي وراحت تقبله، ثم ذهبت إلى متجر الألعاب واشترت له بعض الهدايا: «هكذا سيكون لديه ذكرى لي... على الأقل».

اشترت له سيارة بلاستيكية ودمية مطّاطية مرّيخية مفزعة ومغطّاة بمسحوق لابد أنه سام أبعده عن الطفل طوال الوقت المتبقي خوفاً من أن يضعها الصغير في فمه.

اتصل بها مساءً، وفي الأيام التالية، لكن أمه لم تجب على الهاتف إلّا بعد أسبوع كامل.

التفت إلى التركيز في عمله الجديد، في تسويق أعمال فرق موسيقية أخرى. واستمتع من جديد في العمل، أما فرقته هو فقد تبعثرت بشكل نهائي. كلٌّ في عالمه يبني حياته في مكان آخر، بعضهم تزوج وأنجب الأولاد، وبعضهم الآخر غيّر مهنته وربّما انتقلوا إلى مدن أخرى.

أتى جيل جديد من الموسيقيين ذو طاقة تفوق طاقتهم، استطاع هو تفهمهم نسبيّاً، صحيح أنهم مهتمون بأشكالهم أكثر من شغفهم بالموسيقا، ولا يمتلكون الحرية التي تمتع جيله بها، وجل ما يشغل بالهم هو النجاح والشهرة، لكنهم كانوا مفعمين بالحياة ويملكون إمكانيات وطاقة عالية. رغم أنهم يعيشون تحت التهديد الدائم للتجديد الذي لطالما يسحقهم، يظنّون أنهم يخترعون ما هو جديد؛ لأنهم لم يسمعوا إطلاقاً موسيقا قديمة، ومع ذلك فغالباً ما يفاجئونه بموسيقاهم الزاخمة. أنانيّون ولا يفقهون شيئاً، لكنّه أحبهم وأعجب بخفتهم. لم يستطع الاقتناع بأن أربعة أعوام مرّت معهم بهذه السرعة، اكتشف في نفسه خلال هذا الوقت أموراً كان يجهلها تماماً: هو يعشق عمله، ويعشق علاقاته الموسيقية الجديدة، رغم أنها عرضية لكنها حاضرة وموجودة باستمرار. وكان قد طور مهارات جديدة في تعديل الأغاني، لكنّه غير قادر بعد الآن على التأليف نهائيّاً. باستطاعته التعديل بصورة استثنائية، ورصد كل مل ينقص هذه الأغنية أو تلك ببراعة عالية. يتأمل بحماس أعضاء الفرق الموسيقية في أستديوهات التسجيل.

استطاع مع شريك آخر وبعض النقود التي جمعها أن يؤسس شركة صغيرة للتسجيل والنشر الموسيقي، استردّوا في السنة الأولى رأس المال، وخلال السنة الثانية بدؤوا يربحون القليل من المال وبعض الشهرة. أحب تواجده في

قلب إعصار الفرق الموسيقية، في صخب الصالات محاطاً بطموح الموسيقيين الصاعدين، يشهد نوبات غضبهم، وتعاطيهم للمخدّرات، وقصص حبهم السطحية بكل ما تحمل من دراما وحسد ونجاح.

حتّى علاقته مع سونيا تغيرت كثيراً في هذه المدة، فإنّ ما جرى مع والدته شكل مفترقاً للأحداث، ابتعدوا لفترة طورت خلالها هي حقداً خاصّاً نحوه لم يستطع تفاديه. شعرت بالوحدة وكأنها حملت مسؤولية الصغير وحدها من غير سند، وجعلته هو يدفع الثمن في النقاشات التي دارت بينهما والتي وجهت له التهم فيها وفرّغت شحنات اضطرابها النفسي: «الرجال أوغاد، أنتم جميعاً أوغاد».

محاولتان باءتا بالفشل من التودد إلى رجال آخرين، انتقلت بعدهما إلى العيش في منزل كبير وحدها مع أنطون، أحسنت تربية الصغير، لكنّها كانت أمّاً معذبة. يغضبه سلوكها أحياناً، إلّا أنه يتفهّمها في النهاية، ويدرك الصراع الذي تعيشه لكنّ الحديث معها أشبه بالدخول إلى حقل من الألغام. قررت ترك عملها للتفرغ لأنطون وبعض الاستشارات، افتتحت مطعماً واشترت الأسهم في سوق البورصة لتحقق بذلك مرابح لم تكن هي نفسها لتتخيلها. حيث إنها ورثت عن والدها عقله التجاري وأضافت عليه ما لديها من مواهب لجني الأموال. عندما يتأمل سونيا يعرف أن الشيء الوحيد الذي لم يكن واضحاً لديها هو المشاعر، وأنها منذ أن تعرف إليها تغيرت في كل شيء ما عدا الطريقة التي تعيش فيها الحب، فهي لو ترتّب مشاعرها كما ترتّب كل شيء آخر ستجد السعادة وستحصل على زوج ربما يكون بارداً قليلاً لكنّه يعرف تماماً ما يريده ويهنأان معاً.

بلغ أنطون الخمس سنوات، يراه كلّما رأى سونيا. مرّةً كل ثلاثة أو أربعة أشهر، يؤلمه وقع هذا عليهم جميعاً، أصبح أنطون صبيّاً جميلاً وصامتاً، أنثوي بعض الشيء ربّما بسبب ترعرعه مع والدته طوال الوقت، إلّا أن جسده راح يشبه

جسد أبيه كلما كبر، هشٌّ ويوحي بالجبن، لطالما أحس أن الجبن هو دلالة على الضعف، كالزجاج. رآه لفترات قليلة خلال السنين الماضية، ربما خمسة عشر يوماً فقط، كانت كلها نسخة واحدة مكررة، اصطحبه إلى مباراةٍ لكرة القدم وإلى السينما ولرؤية جدته في مرات أخرى، انتابه إحساس راسخ أن الولد يتغير في كل مرة يراه فيها، وكأنه طفل آخر، كل مرة يراه فيها يجلب له هدية تناسب الطفل السابق أي الذي رآه في المرة الماضية. لم يعرف كيف يحدثه، يكتفي بطرح بعض الأسئلة العامّة، أسئلة يجيب عليها أنطون عن ظهر قلب، ويمضي الاثنان أوقات عصيبة، رغم شوقهم لرؤية أحدهم للآخر.

التفكير بأنطون صار أمراً بديهيّاً بالنسبة له، كأنه يسكن أحشاءه دون أن يبذل أي مجهود، إحساس موصوم بالقلق والمضايقة، يشعره بالذنب يُضفي على المشهد صِبغة مؤلمة لا يمكن إزالتها. علاوة على الحب الذي يتشاركه الاثنان، لكنّه أود لو تظهر في أنطون طفولته الماضية ليضع يده على كتفه، ويقول له: «أعرف تماماً ما تشعر به».

لكنهم لم يتلامسوا إلا في المناسبات، فهما يخجلان من ذلك، حتّى إن أنطون يحمرّ إذا ما تلاقت يداهما بالصدفة، وعندما انتهت مباراة كرة القدم تجنب أنطون الدخول في الزحام لئلّا يضطر إلى الإمساك بيده، ولم يستطع التحدث إليه عن أيامه مع سونيا أو عن المدرسة أو عن أي شيء.

في مرة من المرات كسرت يد أنطون، وعندما ذهب للقائه رآه وقد وضع له الجبس عليها وربطها إلى عنقه بمنديل سونيا، وعلى الجبس رسوم وتوقيعات طفولية، فخطر له وهو يسترق النظر إليها أن حياة أنطون الطبيعية وصداقاته موجودة هناك.

«من وقّع لك هنا؟».

«الأولاد في الصف».

«إنها جميلة».

«نعم».

«ما هي أسماؤهم؟ قل لي أسماء أصدقائك!».

أسماء الصغار بدت غريبة عندئذٍ: بابلو، باربارا، مانويل، خافيير، لولا، ريتا، ديانا...

وأخيراً، تعرّفت سونيا على أحدهم، لقد وقعت في غرام رجل في إحدى الحفلات قبل سبعة أشهر، في بداية الشتاء واستمرّوا سوية دون توقّف. تحدّثه عنه بطريقة مستفزّة وواقعية. إنّه محامٍ ذو أربعة وثلاثين عاماً يدعى خافيير، وهو مثقّف ولطيف ومرح ووسيم الهيئة. صادف أن رآه مرّة وهو يخرج من منزل سونيا، عندما ذهب ليأخذ أنطون، وعرف على الفور أنه هو. نظر إلى وجهه بتمعّن وشيءٍ من الفرح، علّه يجد فيه فألاً حسناً.. لم يجد سوى رجلاً في مثل سنّه، أكثر خجلاً، لكنّه يتقن التعبير.

«هل يمكنك تصور ذلك؟؟ أن أقع في الغرام الآن؟» تقول له سونيا.

الحب وأنطون بالنسبة لسونيا كانا الأمرين الوحيدين الذين يمنحانها السعادة الحقيقية، وقد بدّلها الحب فعلاً، أصبحت ناعمة وكريمة، أو على الأقل هذا ما أدركه هو. وربّما أكثر ذكاءً، كما لو أنه أيقظ فيها البصيرة كما لم يلحظها من قبل. وغدت أيضاً أكثر جمالاً، فالبهجة جعلت وجنتيها تتدوران وتتورّدان. الأمر أشبه بلغزٍ ما، فهي تتكلم أقل من ذي قبل، وتستمع أكثر إلى الآخرين، صارت صبورة. دفعه هذا إلى أن يشعر بالسعادة لأجلها في البداية، فبارك لها بصدق، ثم بدأت سعادتها هذه تتحوّل إلى مصدرٍ لقلقٍ غريب مسلط نحوه يحرك في داخله ما هو جديد.

«سنتزوّج بعد الصيف» أعلنت في إحدى الأمسيات.

لم يستطع هو الاعتراف بغيرته: «وماذا عن أنطون؟».

«خافيير تجمعه مع أنطون علاقة ممتازة، يظلان سوية لوقت طويل ويحبان بعضهم بعضاً، يضحكان كثيراً ويمضيان أوقاتاً رائعة».

«صحيح؟».

أجاب وهو يحاول تذكّر تلك المرّات القليلة التي استطاع فيها الضحك مع ابنه... أو التي جعل فيها الصغير يضحك أصلاً.

«أستطيع إثبات ذلك إن شئت!!».

«ليس الأمر ضرورياً».

سكتت سونيا وكأنها فهمت، ولم يرد حتّى النظر إليها واستجرار العواطف، لكنّه فعل ذلك. كانا يجلسان في الحديقة بالقرب من منزلها، الطقس غاية في الروعة. قطّبت حاجبيها وركّزت نظرتها نحوه:

«اسمعني جيّداً، أنت أبوه.. لن يحل أحدٌ محل أحد».

«ماذا؟».

لم يحدثا بعضهما بهذا الوضوح من قبل:

«أعرف أنني لم أفعل ما هو صائب، وسأتحمل مسؤولية هذا، وأنت لم تبد أي اهتمام أيضاً... أعرف أنني لم أفسح لك المجال، أنا مستعدّة لتغيير الأمور إذا أردت».

أجاب بنعم، لكنه سرعان ما تصور أن عزة نفسه لا تسمح له بذلك رغم أن الأمر غريب ومغرٍ، لعل فتح صفحة جديدة مع أنطون لم يكن أفضل ما يمكن أن يحدث وسيجعل منه إنساناً معطوباً. لم يعرف ما إذا أراد هذا حقّاً أم أنه يفضل أن يظل أنطون كما عهده حتّى اللحظة.

«أجل».

«سأذهب أنا وخافيير في رحلة نهاية الأسبوع، كنت سأطلب من والدي الاعتناء بالصغير. هل تريد أن يمضي عطلة نهاية الأسبوع معك؟ يمكنك اصطحابه إلى مدينة الملاهي؟؟ إنّه يعشقها».

شعر بالضعف، ولم يود الادعاء، أشعل سيجارة ليأخذ بعض الوقت للتفكير، فهو يعرف جيّداً ماذا سيحصل: شبح الفشل يهدّده ويحبطه. إلّا أنّ عرض سونيا غير المعهود حمل معه فكرة أن أنطون سيقضي عنده وقتاً لا بأس به وسينام في منزله، في غرفة الضيوف الصغيرة المليئة بالآلات الموسيقية، وهذا جعله يرتاح قليلاً.

«هل تظنين أنه سيرتاح عندي؟».

«سيكون كذلك لو كنت أنت مسترخياً».

«لا أعرف كيف أتعامل معه في بعض الأحيان».

«وهذا ما يحدث معه هو أيضاً، لكن كل شيء سيتغير عندما تسترخيان أنتما الاثنان».

فعلت سونيا أمراً لم يستطع تفسيره، داعبت وجهه، ثم قبلته بلطف كفراشة.

كان يوم الثلاثاء، وعاش هذه الأيام في حالة من السعادة الفائقة وأخذ يرتّب وينظّف الغرفة الصغيرة بدقّة لم يعهدها منذ سنين. اشترى بعض الأفلام الطفولية من المركز التجاري تحت إشراف الموظفة ونصائحها، ووضعها قرب التلفاز دون ثقة كبيرة. وهو على وشك الاتصال بسونيا ليسألها ما إذا كانت ستعجب أنطون، قرر أن لا يفعل ذلك، وراح يتأمل الفراش الذي سينام فيه الطفل ليلة السبت وكأنه يراه هناك.

اتفق مع سونيا أن يمر لأخذه السبت صباحاً إلى مدينة الملاهي. بدأ التوتر يتسلل إليه يوم الخميس، أتته صور عن عطلة أسبوع طويلة، يومان أبديان من صمت أنطون وعدم ارتياحه، وهو كالمجنون يصلي لكي ينتهي العذاب، بأسرع وقت. والصور كانت أكثر من متوقّعة بالنسبة له. اتصل به في مساء الخميس.. أراد أن يسمع صوته ويعرف مدى رغبته.

«هل قالت لك ماما أين سنذهب السبت؟».

«نعم».

«وما رأيك؟».

«أجل».

تصور أنه لم يسمع في حياته كلمة أجل بهذه القناعة المزيّفة.

«يمكننا فعل ما تشاء، لسنا مضطرين للذهاب إلى مدينة الملاهي».

«أنا أحب مدينة الملاهي».

«حسناً إذاً» أجاب وهو يود الصراخ طالباً منه هدنة ما... ليثبت له أنه يحاول ما في وسعه.

نهار الجمعة ككل الأيام، مليءٌ بالعمل. حفلتان لفرقتين يسجل لهما الأسطوانات، أمضى الصباح وهو يتراسل مع الصحافة، والمساء وهو يطمئن على سير العمل بشكل جيّد في تجارب أداء الصوت. فيما كانت الصالة فارغة إلّا من الموسيقيين الذين يعدلون أوتار الآلات تأمل هو روعة الأماكن الفارغة التي ستمتلئ قريباً، ورائحة مكبّرات الصوت الموصولة بالكهرباء، الحدث مجرّد تماماً وقد استطاع أن ينسيه عناء التفكير في عطلة نهاية الأسبوع القريبة. الحفلتان لم تكونا جيّدتين، الأولى بسبب الخلافات داخل الفرقة، والتي كانت على وشك الانهيار وعزفت بشكل سيّئ جدّاً. والثانية فشلت بسبب إفراط الشبان بتناول المخدّرات. وخلال الحفلة الثانية شرب هو الكحول كالمجنون، وتشاجر مع شريكه، ثم ذهب إلى بارٍ آخر حيث تجمّع موسيقيون آخرون هناك. وبعد عدّة ساعات متواصلة من شرب الكؤوس كان يتحدّث مع فتاة في الثلاثين من العمر دون أن يتذكّر اسمها مع أنها أعادته عليه بضع مرّات. لها هيئة المعجبات بموسيقا الروك، شعرها طويل أشقر ومجعّد، وجهها لا يوحي بالشباب وسروالها ضيّق وأسود، جسدها جميل، وتتحدّث معه كما لو أنها تعرفه منذ زمن طويل، بدا له أن

بمقدوره أن يقول لها ما شاء، وهي بدت مستعدّة لسماع أي شيء منه بحماس معتدل.

«لنمارس الحب».

«هل أنت متزوج؟».

«لا».

«أنا كنت متزوّجة منذ أسابيع قليلة».

«متأسّف».

«لا عليك ليس هنالك ما يدعو للأسف».

يتحدثان بصوت مرتفع، لأن الموسيقا الصاخبة لم تساعدهم على سماع واحدهم للآخر، وعندما يقترب منها يشتم رائحة حلوة ويراقب جلدها من فتحات قميصها، جلدها خشن بعض الشيء وثدياها صغيران ومستديران.

«لم لا تأتين معي إلى البيت؟» أصرّ عليها.

«لست متعوّداً على تقبيل الفتاة قبل دعوتها؟».

أجابته بابتسامة تعيسة، عالقة في هذه الشفاه التي تشبه عالماً يفتح أبوابه، ثم يغلقها فجأة، فاضحاً ماضياً أكثر مجداً مما يبدو عليه الأمر، اقترب منها وراح يقبلها ويشعر بطعم الشراب في فمها، وهي انكمشت عليه وأخذت تسحبه نحوها وتضمّه، وحين وصولهم إلى بيته ودون تردّد، مارسوا الحبّ. جسدها الرائع غير متناغم مع وجهها. لم يستطع هو ممارسة الحب بشكل جيد، وهذا ما جعله يتضايق كثيراً ويشعر بالاختناق وما زاد الطين بلّة هو أنها بعد أن انتهيا وضعت يدها على خدّه وقالت: «لا تقلق... هل أنت بخير؟؟».

«عليَّ الاستيقاظ غداً في الصباح» نظر إلى ساعته ليجدها تشير إلى الساعة الخامسة فجراً.

«ما الذي عليك فعله؟».

«عليّ اصطحاب ابني إلى مدينة الملاهي».

«هل يعيش مع والدته؟».

«نعم».

«كم عمره؟».

«ست سنوات».

شعر بالضيق وهو يحدّث الفتاة عن أنطون رغم أن أسئلتها لطيفة.

«ما اسمه؟».

«أنطون».

«وأنا؟؟».

«ماذا عنكِ؟».

«ما اسمي أنا؟؟».

صمت لفترة وهو يحاول أن يتذكّر، في حين ابتسمت الفتاة وهي تنظر إليه دون أن يميز ما إذا كان ما تخفيه وراء ابتسامتها هذه هو تعاسة أم غضب.

«أنا أُدعى مايتي» قالت في نهاية الأمر.

«أجل مايتي!!».

«أجل مايتي!!» ردّدت مبتسمة.

في الطريق وهو يسير باتّجاه منزل سونيا ازداد اختناقه أكثر فأكثر، كان قد استحم وغيّر ثيابه دون أن تختفي رائحة الكحول منه، رغم أنه تناول طعام الفطور بكثرة في محاولة منه لإخماد سكره في أسرع وقت، لكنّ السيجارة التي دخنها بعد الفطور هي من جعلته يتقيّأ أخيراً. ظلّ يتذكّر وجود مايتي ويشتم رائحتها في يديه، في رؤوس أصابعه، وعندما ودّعها لم يسألها حتّى عن رقم هاتفها. بقيت هي لطيفة على الرغم من كل شيء، وكذلك هو لكن بشكل يشوبه البرود.

«سأراكِ في الأرجاء» قال في النهاية.

وأجابته هي دون ضغينة بابتسامتها المعهودة:

«لا تتفوه بالحماقات، إنك أجمل من أن تتفوّه بهذه العبارات»

بدا من الواضح أن سونيا وخافيير كانا قد استيقظا قبل نحو خمس ساعات، وظهرا نشيطين ومفعمين بالحياة، يحمل كلّ منهما حقيبته الصغيرة المخصصة لرحلتهم. حتّى أنطون كان يحمل حقيبة ظهره ويرتدي ثياباً نظيفة لإمضاء العطلة مع أبيه. والذي خلال اللقاء كان له هاجس واحد، وهو ألّا تلاحظ سونيا ثمله، خافيير ظل لطيفاً ولم ينظر إليه بنقمة. حتّى أن هذا الودّ دفعه إلى الإمعان في التفكير حول ما سيقولانه لاحقاً عنه وعن مظهره، وكيف أن قلق سونيا سيظهر لابد في حوارهم بعد مغادرته.

لم ينظر إلى أنطون إلى أن أصبحا في الشارع وهما يمشيان نحو محطة الميترو للذهاب إلى مدينة الملاهي. كان يوماً ربيعياً بامتياز، الطقس رائع وتيجان الأزهار المحملة بغبار الطلع تتناثر في الجو كلما مرت السيارات كأنها حشرات بيضاء سحرية ومستديرة.

لقد حلم بهذه اللحظة طوال الأيام الخمسة الماضية، لكنّه لم يدرك أنها عندما ستأتي سيكون في حالة مزرية من هبوط المعنويات، لم يبد أنطون هو الآخر متحمّساً ولا حتّى سعيداً بالذهاب إلى مدينة الملاهي، أما هو فكان هذا بالذات، المكان الأخير الذي يودّ الذهاب إليه.

كان ثمّة أمر واحد يشبه توقعاته المسبقة، شيء ما في داخله، أشبه بقرارٍ اتخذه أو بإنذارٍ ملحٍّ يحدد النجاح أو الفشل في علاقته مع أنطون، من خلال هذه الرحلة.

«هل ذهبت مراتٍ عديدة إلى مدينة الملاهي؟» سأل ابنه.

«خمس مرات».

«هذا عددٌ لا بأس به».

«لكنّ ريتا صديقتي في الصف ذهبت اثنتي عشرة مرةً».

«ربّما كان أبوا ريتا لا يعرفان مكاناً آخر يصطحبانها إليه، فأخذاها كثيراً إلى مدينة الملاهي ليريحا نفسيهما منها. هل فكّرت في ذلك؟»

نظر إليه أنطون بجديّة شديدة، ثم أجابه كفتاة مجتهدة ومتأملة: «لا».

«إن هذا محتملٌ والأرجح أنه الحقيقة، لذا فكن مطمئنّاً؛ لأنك ذهبت خمس مرّاتٍ فقط، وقل هذا لريتا إن شئت، إن تبجّحت مجدداً بالذهاب كثيراً إلى هناك».

لم يعرف لِمَ قال ما قاله، بل إنه لم يدرك السبب الذي خاطبه من أجله بهذه الطريقة. كان الأمر يصعب تفاديه، أزعجته رؤية أنطون جالساً في الميترو ممشّط الشعر كبنتٍ مدللة، وأنه عندما يتكلم معه يشعر بغصة صعبة التفسير في حلقه، وتنتابه فجأة رغبة لإفساد كل شيء، حتى سعادته الذاتية بتواجده مع ابنه. شعورٌ مفزعٌ راوده بأن أنطون على الرغم من صغر حجمه وعمره يمثّل ثقباً هائلاً قادراً على ابتلاعه وابتلاع كل ما يحيط به في آنٍ معاً، سيما أن يديه كانتا ترتجفان ولازال الكحول يعبث برأسه بين الحين والآخر.

استطاع الذعر طمر الحبِّ واستبعاد المشاعر بالكامل، ينظر إلى أنطون الذي يضع حقيبته الصغيرة على ركبتيه وقد علّق عليها دمية بحجم أصابع اليد يلعب بها، فيظن أنه هو الآخر متردّدٌ وتعصف به الأفكار المتناقضة كرياح سريعة ومضطربة.

«ما معنى (تبجّحت)؟» سأل أنطون أخيراً.

«يعني أنها تصرّفت بتعالٍ، هذا هو معنى تبجحت».

أمضيا باقي الطريق في صمتٍ مطبق، وقبل وصولهم بقليل، شعر بالبرود يتصاعد في رأسه شيئاً فشيئاً وأن أمراً ما غير معقول أو منطقي يباعد أحدهما عن

الآخر، قرر إعطاء هذا الإحساس أبعاده الكاملة، لكي يستطيع التأكد من صحته أو من عدمها. علّه يتمكّن من إنقاذ نفسه.

اضّطرا للوقوف في الصف لمدّة عشرين دقيقة في حر الشمس ليشتريا بطاقات الدخول، ترك أنطون خلال هذا الوقت لعدّة ثوانٍ، حيث ابتاع قارورة من الماء وشربها ضربة واحدة لشدة نقص السوائل في جسمه، أمام أعين أنطون المذعور.

«لقد كنت ظمئاً للغاية».

«هل أنت مريض؟».

«لا، على الإطلاق، هل أبدو كذلك؟».

«أجل».

بعيداً عن هذا البرود، كان من الواضح أن أنطون قد رسم في مخيلته مخطّطاً مسبقاً عن الألعاب التي يودّ الركوب بها في الملاهي، ذهبا أولاً إلى (قطار الموت)، ثم إلى (الأرجوحة الأفعوانية) وبعدها إلى (قارب القراصنة)، وأخيراً إلى (الكوخ المغناطيسي).

صعد هو إلى جانب أنطون في الدورة الأولى فقط، ثم انتابه إحساس بالمرض والإعياء الشديدَيْن، انتظره خارجاً حتّى يكمل اللَّعب، بدت له مدينة الملاهي وكأنها غرفة تعذيبٍ ضخمة، أصوات الموسيقا الصاخبة تقبض على روحه، ووجوه الأطفال السعيدين كالمجانين تشعره بالضيق أكثر. جميعهم ضاحكون ما عدا أنطون.

بقي يتأمله وهو ينزل بالقطار من أعلى (التلّة الروسية) وعلى وجهه النظرة الجديّة ذاتها، لا شيء يغيرها... ولا حتّى الاستراحة القصيرة والدوار خلالها. بدا العالم من حوله صامتاً وأصماً. بما في ذلك - فيما بعد - خفقات قلب أنطون، عيونه المتأهّبة، رائحة الغزل السكري الذي يفوح فمه بها، أو أصوات القطع

المعدنية التي تساقطت من جيوب الناس عندما قلبتهم الأفعوانة رأساً على عقب وجعلت عيون الأطفال تغدو سكاكين مسنونة نحوها. لم يكن المشهد يوحي بما هو بريءٌ بالكامل، وخصوصاً تصرفات أنطون.

قال له عندما نزل من أحد الألعاب:

«هل تعلم أمراً؟؟ من بين جميع الأطفال الذين كانوا على متن اللعبة، أنت الطفل الوحيد الذي لم يكن يضحك!!».

أجابه أنطون وقد انكمش كتفاه وركز نظره على مقدّمة حذائه:

«الأمر مختلف».

«ما هو الذي يختلف؟».

«مدينة الملاهي، إنها مختلفة دون الأصدقاء» أجاب وكأنه فجأة تحول إلى إنسان بالغ!

إنسانٌ راشد وصغير وفي الوقت نفسه غير راضٍ نهائيّاً.

لكن الأهم من هذا كلّه أنه كان منصاعاً لحالة عدم الرضا تلك إلى أبعد الحدود، وهذا ما أغضبه ودفعه للتفكير بأنه الدليل القاطع على طبيعة أنطون المتأصلة فيه.

ازداد الصبي بالانكماش أكثر حتّى أصبح عصيّاً على عدم الرضا ذاته.

«عليك أن تتعلّم إمتاع نفسِك بنفسك، أنا مثلاً لم أشعر بالملل في حياتي».

«إنَّ الأمر مختلف، أنا لا أشعر بالملل» أجاب بغرابة.

«لِمَ إذاً لَمَ تضحك هناك؟».

«لم أرغب بذلك» صرخ وهو ينظر مباشرةً إليه، ثم عبس بعينيه وتغيرت ملامح وجهه وكأنه يكتسب صفة ما في شخصيته الصغيرة، أو كأن إرادة هذا الطفل الضعيفة تضاعفت فجأةً وقرّرت أن تتبنّى الشجاعة. سحب حقيبته التي تحتوي على أغراضه وراح يلعب بالدمية الصغيرة المعلّقة عليها، وتجنب النظر إلى أبيه.

كان هو يرغب أن تطول ثورة الطفل المختصرة هذه أكثر، كان بحاجة إلى دفعه إلى نهاية الطريق.

«ألا تظن أنك دائماً تشعر بالملل؟؟ وأنك لطالما كنت في حقيقة الأمر الطفل الذي يسأم شدّة الملل؟» سأله وهو ينحني نحوه ممسكاً بذراعيه الصغيرتين ويضع وجهه أمام ناظريه مانعاً إيّاه من أن يحيد بهما عنه.

عندما نزل إلى مستواه تقريباً شعر بالندم، وربّما بقليلٍ من التعاطف على هيئة توسّل يرجوه التوقّف عمّا يحاول فعله، ثم يدفعه مجدّداً بمزيد من الهجومية.

رفع أنطون رأسه بوجه تعيس، وبدا مجروحاً وكأنما تم طعنه بأشد المواضع حساسية فاختلطت عليه مشاعر الخجل بالحرقة. شعر هو بأنه تسبب للطفل بالأذيّة، وقد ظهرت عليه ملامح هذا العدوان وكأنه قد تعرض لهجومٍ كاسحٍ لجيشٍ من الأشباح الذين رآهم لتوّه في نفق الرعب، ما دفع الصبي للاقتراب وهو ينحني على نحو طفيف منه ليستشعر ملمسه، لكنّه سرعان ما شد جسده مبتعداً ومتملصاً، ثمّ حاول الركض لكن أباه استطاع التقاطه دون الحاجة إلى الوقوف، ونظر في وجهه الذي كان يتجهّز للبكاء، فانتفض الصغير صارخاً: «أنت أيضاً تعيسٌ على الدوام».

لا يستطيع أن يتذكّر كم من الوقت لبثا على هذه الحال، ربّما ساعةً أو اثنتين.

لعب أنطون بها هذا الوقت بعدة ألعاب، كالناعورة والطبق الخزفي، ثم بالدودة المجنونة والتي كلما فتحت فمها ظهر وجه أنطون المشتّت والمختلف عن وجوه سواه من الأطفال، وجه فارغ وصغير، فكّان مطبقان ويدان مشدودتان إلى القضيب الحديديّ، وظلٌّ شاحبٌ يعكس حياة أنطون بكليّتها، هذا الصبي الغريب والذكيّ والذي لم تعد عيناه مهتمّتين حتّى بالنظر نحو والده، بدا وكأنه يُخرج يديه من تحت غطاءٍ سميك، وقد أرخى وجهه كمتّهمٍ صدرت بحقّه التهمة لتوّها.

كلّ شيءٍ أصبح رخواً فجأةً، كعضلةٍ ترهّلت من شدّة توتّرها.

استطاع أن يستشفّ المستقبل بوضوح كامل، سونيا ستتزوّج من خافيير، وسيقوم هذا الأخير بتحمّل مسؤولية أنطون دون أن يعرف مطلقاً من هو فعلاً. كان الأمر أقرب إلى الحركة الطبيعية للأمور.

قاده الكحول في جسده إلى أبعد مناطق الضعف والانزعاج، وقادته حديقة الملاهي إلى الإحساس بأن كلّ شيء حوله ثمل، ينتقلون الآن من لعبة إلى أخرى بصمت مطبق. يعبرون من وقتٍ لآخر بالقرب من مجموعاتٍ من أطفال يصرخون، أو فتياتٍ غاضباتٍ يطالبن بشراء الهدايا من المحال المنتشرة في كلّ مكان. أمّا أنطون، فقد كان يعبر بين الألعاب ببرود، وبدا كمراهق مستاء من المظاهر الطفولية هذه، لا تستنهض الألعاب فيه أو حتّى الهدايا أي جشع يذكر. ينزل من إحدى الألعاب فيعلن اللعبة التالية التي يودّ التوجّه إليها. ليس بدافع الرغبة على الإطلاق، إنّما بدافع إنهاء هذه المهمّة، أو ليختبر سحراً طفيفاً لربّما راوده حيالها للحظة.

لاح أشبه بقرارٍ ضمنيٍّ ذي دقّةٍ عاليةٍ اتّخذه كلاهما في تنسيق جريح، بغية تدمير سائر أسباب السعادة، الواحد تلو الآخر بشكل ممنهج، ولتحطيم جميع لحظات الفرح التي كانا قد اختبراها سوية كأسرة واحدة، أظهرا استعداداً مطلقاً لحرق كل ما هو جميل، في سبيل منع الغزاة الوافدين من التمتّع به.

خلال عودتهما سوية في المترو إلى بيته، ابتعد أنطون عنه وجلس وهو يضع يديه بوضعية معكوسة على قدميه، وكانت التعاسة قد تمكّنت من كليهما كليّاً.

دخلا البيت ببطء، وبدا منهكاً لدرجة أنه ترك حقيبة أنطون في الممر، ثم خاطبه بهدوء:

«هل تود مشاهدة فيلم ما؟ أنا أريد أن أنام قليلاً».

«حسناً».

توجّه إلى الصالون ووضع في جهاز تشغيل الفيديو فيلم (منقذون في بلاد الكانغارو).

وشغّل الجهاز.

«لقد شاهدت هذا الفيلم» قال أنطون.

«عندي هذا أيضاً».

نظر أنطون إليه دون اهتمام.

«لا يهم» علّق ثم أعقب: «هذا الفيلم مسلٍّ».

تركه هناك وانتقل إلى غرفة النوم، حيث استلقى على سريره دون ترتيبه وهو يستمع من بعيد إلى أصوات الأغنية الطفولية وإلى صراخ الأبطال فيها.

ما إن أغمض عينيه حتّى غط في نومٍ عميق، كأن شبح ما ترصّد به.

شاهد حلماً مرعباً: كان يسافر في قطار، قطار أبيض اللون وأنيق على نحوٍ سخيف، وبداخله طاولات عليها صحونٌ صغيرة مليئة بأعقاب السجائر، وقد انتابه إحساسٌ كسول بعدم الرغبة في المكوث هناك، ورفض الاتجاه إلى حيث يريد القطار أخذه، لكن بالطبع دون أن يستطيع النزول من على متنه. كان يسمع طنين الماكينات، وصوت احتكاك حديد السكّة طوال الحلم. دخلت سيدةٌ القمرة التي يجلس فيها وجلست قباله، ثم علّقت:

«ألم تعرفني؟».

«لا» أجابها.

ومن ثمّ بدا الحزن على وجه هذه السيدة، كانت جميلة جدّاً، أكبر منه بخمسة عشر أو بعشرين عاماً، كما لو أن إجابته هذه جعلتها تشيخ بلحظة واحدة.

وفجأة تحولت السيدة إلى رجلٍ مسنّ:

«أفعلاً أنك لم تتعرّف علي؟».

«لا».

«أنت وأنا كنّا صديقين مقرّبين».

بدا هو الأخر عجوزاً، ينظر إلى الرجل ذي النظرة الحنونة وكلّه رغبة بأن يستطيع فعلاً التعرّف عليه. علّق العجوز وهو ينهض:

«من فضلك، لا تنسَ أن تبلِّغ الجميع تحيّاتي».

«سأفعل ذلك».

ثم استمر هذا الحلم بتكرارٍ مماثل. تدخل في بادئ الأمر سيدة، ثم رجل، ثم رجالٌ آخرون. ويسأله الجميع السؤال ذاته، دون أن يستطيع هو التعرّف عليهم جميعاً. يدخلون من الناحية الخلفية للعربة، ويجلسون قِباله، ثم يسألونه عمّا إذا كان يذكرهم، وأخيراً ينزلون من القطار من الناحية الأمامية.

يشعر هو بالمضايقة في كل مرة، ترتفع سرعة القطار به، وتزداد حدة الأصوات الحديدية وطنينها في آذانه. إلى أن نهض وجرّب الهروب نحو الناحية الخلفية للقمرة، هناك كان المشهد المفزع؛ عشرات من الأشخاص الواقفين في صفٍّ طويلٍ يتحدثون بحيوية، والذين صمتوا فجأة حين لمحوه يدخل قمرتهم كأنهم ممثلون محترفون يؤدّون دورهم على خشبة المسرح. لم يستطع هو فهم ما أرعبه في هذا المشهد ولم يقدر حتّى على وصفه، لذا جرّب الدخول واختراق صفوفهم. فما كان منهم إلا أن أخذوا يمسكون به بصمت مطبق ويشدّونه نحوهم بأيديهم الصغيرة والحادّة. فاستفاق من نومه مكدّراً.

ظلّ خلال فترة قصير من الزمن يتأمل الساعة المنبّه بذعر محاولاً تهدئة نفسه، وكانت أصداء أصوات الفيلم ما زالت تصدح قادمة من الصالون، ثم سمع صوت أنطون متقطّعاً كما لو كان يتحدّث مع نفسه، لكنّ صوتاً آخر كان يأتيه من هناك أيضاً، صوت نسائيّ لا شك، يسمع أنطون، ثم الصوت النسائي يردّ عليه، ثم أنطون من جديد.

نهض واتّجه نحو غرفة الجلوس، رأى مايتي هناك، تجلس مع أنطون حيث يشاهد كلاهما التلفاز.

«مرحباً» قالت مايت وهي تنهض.

«ماذا تفعلين هنا؟».

«لقد نسيت هاتفي الجوال هنا، لكنّي وجدته أخيراً... لديك ابنٌ جميل للغاية!!».

«شكراً لك».

«مايتي أيضاً تحب هذا الفيلم!!» علّق فجأة أنطون.

«آه.. حقاً؟».

«بالتأكيد، لدي ابن أختٍ بسنّ أنطون، أعتقد أنني شاهدت هذا الفيلم في منزل أختي معه قرابة العشرين مرّة!» قالت ذلك، ثم توجّهت بالحديث إلى الطفل: «حسناً أنطون، عليّ الذهاب أعطني قبلة».

«لا ترحلي!!» قال الصغير بنبرة متوسّلة.

التفتت مايتي نحو الأب مبتسمة دون أن تعطي الموضوع أهمية كبيرة، ثم ودّعته:

«حسناً سأرحل، شكراً على كلّ شيء، وأعتذر عن مجيئي هذا».

«لا تذهبي، لم لا تبقين قليلاً» قال هو.

«نعم، لا تذهبي» أصرّ أنطون.

«حسناً.. سأبقى قليلاً» قالت مبتسمة ثم أضافت «إذا كان ذلك مطلباً شعبيّاً».

بداية كان الصوت، ثم الصمت. للمساء أيضاً حرجه الأول. في الواقع أمضوا نصف الساعة الأولى في إكمال الفيلم، جالسين ثلاثتهم على الأرض. هو بالقرب من مايتي التي تتوسطهم وتنحني شيئاً ما نحو أنطون، أحس أن جسدها

يطلق نوعاً من الدفء، يختلف عن ذلك الذي كان يطلقه في الليلة الماضية، تجلس بجانبه وتخفي أنطون وراءها، أقل جمالاً من اليوم السابق، وأكثر لطفاً. يبدو أن التعب قد جعل جلدها أكثر خشونة، وفي نفس الوقت متألقاً وحاسم الملامح. بدا وكأنه لم يمارس معها الحب قط، ترتدي هي ثياباً شبابية مختلفة وأقلّ إثارةً؛ بنطال جينز وقميص أزرق اللون عبره استطاع رؤية خيوط حمّالة صدرها التقليدية.

كان ثمّة بعد ذلك بعض التعليقات التافهة حول الفيلم، سيما من قبله هو، الذي لم يفهم الكثير من أحداثه، وتأتيه الإجابات من الجانب الآخر؛ من أنطون.. إجابات توضيحية وصبورة. في صوت الطفل شيء من الهدوء أيضاً، لقد عاد صوته إلى طبيعته الأولى، ليس فيه الكثير من الحماس، لكنّه صافٍ وعائليّ.

نهض الثلاثة من على الأرض، وشعروا بعدم الارتياح في أجسادهم خلال نصف الساعة التالية، حيث جلسوا على الأريكة، أحضروا بعدها المياه الغازية وعادوا للجلوس، أخذت مايتي تسأل أنطون عن زملائه في المدرس، والطفل واقفٌ أمامهم بشفتيه البارزتين، وعيونه نصف المطبقة، متعب من حبّ أبيه وكرهه، مشوش من وجود مايتي التي يوجّه لها الحديث على الدوام بشيء من الاستعجال، كما لو كان يودها أن تعرف دفعة واحدة الكثير عنه، في كل ما يقول إشارة إلى تفاصيل متوهّجة وحاسمة:

«لقد كسرت ذراعي مرة من المرّات، وأنا ألعب كرة القدم... كنت أتبع الكرة وسقطت.. لم أتألم على الإطلاق».

«أحياناً، عندما أخلد إلى النوم، أشعر أن سريري أشبه بمزلاج ينزلق فوق الثلج».

«أكثر ما أحبّه في الدنيا هو الرسم».

كان هو يتأمّل أنطون وهو يفكّر، لم يكن دوماً يحبه.. فقد مرّت مرحلة في حياته قبل مجيء الطفل شعر فيها أنّه سعيد وراضٍ وكان كل شيءٍ مغلقاً، ولم يكن الطفل موجوداً. شعورٌ مستمرٌّ وغريب يدفعه نحو سلّمٍ متصاعدٍ ويجبره على اعتلائه دفعةً وحدة.

ربّما لو لم يتّصف المساء بالهدوء لكان هذا الشعور غاضباً أو انتقاميّاً، من الحياة ومن الصغير.. أو ربّما مع سونيا. لكنّ هناك ضوءٌ ساطعٌ؛ مايتي التي يجلس قربها على الأريكة، و يستطيع الشعور بتلامس فخديهما معاً. لقد تبدّد الكحول من جسده كليّاً الآن، بقي فقط تعبٌ ناعمٌ يبدو أنّه تسلل أيضاً إلى الطفل، وإلى الأريكة والأشياء من حوله.

هل يتحمّل هو الذنب؟ عَبَرَ هذا السؤال مخيلته كابتزازٍ كاذب... لابد وأنه بالتأكيد يتحمّل المسؤولية الكاملة.. لكن، ما أهميّة هذا فعلاً؟

تسأل مايتي: «ألسيت لديكم أية ألعاب؟».

«بلا، لدينا مونوبولي في مكان ما!!؟».

على الطاولة بعد ذلك، ظهرت شوارع مدريد الضخمة صغيرة ومكثّفة على رقعة اللعبة: (روندا دي فالنسيا، كواترو كامينوس، الكالا، سيرّانو.. إلخ)

يدا أنطون تبدوان أكبر مما كانتا عليه في السابق، وعيونه كذلك. يميل برأسه يساراً عندما يرمي النرد. تبدو أشبه بعادةٍ عائليّة، تذكّر أنه والدته أيضاً تقوم بحركة مشابهة عندما تنوي رمي النرد، ظنّاً منها أن هذا الميلان التلقائي يمكن له تحول القدر ودفع النرد باتجاه الرقم (ستّة).

«حاول أن تشتري كل ما تقدر عليه في الجولة الأولى، هذه هي الحيلة».

علقت مايتي المليئة بالحيل، وأضافت:

«ثم، وفي الجولة الثانية، عليك أن تضع البيوت فوق كلِّ ما كنت قد اشتريته سابقاً».

إنها تفهم اللعبة جيّداً، تعرف تشعباتها، وتستطيع الفصل بين البيوت المختلفة، تجمعها في صفٍّ متناسقٍ حيث تبدو كعمارات حقيقية متناهية الصغر.

هل عليهم أن يفعلوا أي شيء آخر؟ غير الجلوس هناك وادعاء المتعة والسعادة؟

يبحث الطفل دائماً عن التواصل مع مايتي وهو يسحب الكروت بحثاً عمّا يتوجّب عليه فعله، ثم ينظر إليه، أو على الأقل هذا ما يهيّأ له ويقول:

«هيّا، إنّه دورك بابا».

لكن هذا اليوم وأحاسيسه الغريبة لا تريد أن تنتهي، يرزخ هو هناك في اللعبة، يتحرّك من مكان إلى آخر وهو يرى ابنه في مكانين؛ أمامه وفي الذاكرة، يتغير وجه الطفل في اللعبة، ويحافظ على نظرة مدهوشة، كأنها لغةٌ مبينية على الأحداث المتعاقبة والمآرب.

يلعبون جميعهم بتكتّم كامل، يقف هو في شارع (غران بيّا) وعليه أن يدفع الغرامة، ثمّ مرة أخرى في شارع (كواترو كامينوس) وعليه أن يدفع أيضاً. يأخذ أنطون أوراق النقود منه بجشع ومتعة.

«لكن... ماذا ستفعل بكلّ هذه النقود؟».

«هاه» يجيبه بفمٍ مفتوح ووجنتين مشتعلتين.

الشعور بالوحدة أضحى انعكاساً أصمّاً، هو وحيد.. لكن الطفل أيضاً وحيد هو الآخر.

دخل الآن في تفكيره إلى مكانٍ ما.. أو ربّما أن ذاك السلم قد أوصله إلى غرفة جديدة؛ يسعده وجود مايتي معهم، كأنها الشاهد على ما يجري، كما يسعده نمو جسد الصغير، وأنه استطاع الدخول في عالمه الوحيد، بما أن الدخول في هذه الوحدة أمر صعب ويتطلّب العناء والتضحية علاوة عن الانزلاق في خصوصيته. ينظر إلى وجهه كما لو كانت هذه المرّة الأولى، يحاول وصفه مخاطباً

نفسه: له شعرٌ بنّي اللون، طويلٌ يلامس أذنيه الصغيرتين، عينان مستطيلتين كعينيه هو، أنفٌ أفطس ذو أطرافٍ مفتوحة كأنف سونيا، شفتان مستديرتان مرسومتان ولحميّتان. يدقق النظر في ثيابه، في يديه المستندتين بجديّة إلى الطاولة، وفي سلوكه المتماهي مع اللعبة. ثم أخيراً يدقّق في عالمه الوحيد؛ ستّة، ثلاثة، أربعة، السجن، البيت، وورقة العشرين ألفٍ المتلألئة والمنتظرة في كلّ مرة يمرّون بها من الخانات التي ابتاعها.

يبدو أنّه الآن وفجأة بدأ يفهمه فعلاً.

المكر

كانت أمها قد اتصلت بها عدّة مرّات، أربعٌ أو أكثر، لكي تشتكي من الفتاة التي تأتي لتعتني بها. كل اتصالٍ كان يحمل جرعةً أعلى من التوتّر، حتّى أن الأخير كان في المكتب وهي تتجهّز لدخول اجتماع عملٍ رسميّ، الأمر الذي اضطرها لأن تجيب برسالة مفادها: «سأتصل بك خلال لحظات».

كانت هي تدرك أن عدم الرّد على الهاتف سيكون أسوأ بكثير؛ لأن والدتها حينها ستنهال عليها باتصالات عنيدة ومتعاقبة دون أن تدع لها مجالاً، أي مجالٍ للتفكير.

الأمر كذلك على الدوام، عندما تحدث هذه الأشياء ينتابها الإحساس ذاته بالذنب والتّوتر، وكأن رأسها تحوّل إلى طنجرة ضغطٍ محكمة الإغلاق قد وضعها أحدهم فوق نارٍ مستعرة ورحل بعيداً.

اتصلت بأمّها فور خروجها من المكتب.

«لقد رحلت» قالت الأم.

«مَن؟».

«خاثمين».

«لماذا؟».

«لأنها سارقة، لقد طردتها».

استطاعت أن تسمع صوتاً خافتاً من وراء صوت أمها، كان صوت خاثمين نفسها:

«أنا لست سارقةً يا سيدتي».

«هل هي مازالت هناك؟ أعني خاثمين».

«نعم، ها هي تعدّ حقيبتها للرحيل، إنّي أقف أمامها كي لا تسرق شيئاً» أجابت الأم.

«أعطني إيّاها، أريد التحدّث إليها».

ظهر صوت انتقال غريب في الهاتف أشبه برجّة ثم ضربة، ومن بعدها صوت تذمّرٍ حاد أعقبه كلام خاثمين:

«أنا لم أسرق شيئاً من السيّدة».

«أعرف ذلك خاثمين، لا تذهبي من فضلك».

«أنا لست سارقة» كرّرت خاثمين بصوتها الرفيع وهي على وشك البكاء.

«السيّدة تريد أن تتشكّى عليّ لدى الشرطة».

«لن يفعل أحد ذلك خاثمين، كوني على ثقة... إن والدتي هي شخص مسنّ وعاجز، تحلّي بالصبر أرجوك».

«أنا صبورة جدّاً».

«أعرف، أنتِ بالطبع كذلك، لكن لا ترحلي من فضلك».

ظهر بالكاد صوت تنهّدٍ خافت، ثم ساد صمتٌ قصير قطعته خاثمين من جديد:

«في الواقع أنا أفضّل الرحيل، هل ستدفعين لي هذه الأيام الخمسة التي أمضيتها بصحبتها؟».

«بالتأكيد، لا تشكّي بالأمر... لكن، فكري أنت قليلاً بالبقاء».

«سأفكّر».

وصلت إلى منزل أمّها، حيث لم يبقَ من أثر خاثمين إلّا رائحة عطرها الحلوة، وسريرها نصف المرتّب، وبضعُ من قوارير وأدوات التجميل في الحمام بالإضافة إلى منشفتها التي تظهر عليها طبعة عينها كأنها ذكرى من ماضٍ سحيق.

أمّها تجلس في الصالون على الأريكة، تشاهد التلفاز وقد اندسّت تحت الغطاء ذي النقوش الأسكتلندية التي كانت هي أهدتها إيّاه في عيد الميلاد الماضي. منذ بضعة أشهر وهي تشعر بالبرد في جميع الأوقات، أو ربّما هو البيت عينه الذي بات بارداً دائماً. كان من الصّعب تحديد السبب الحقيقي، هل هو التدفئة، أم توقّف والدتها الكامل عن الحركة. هل الجّو بادر حقّاً، أم أنّه من الطبيعي أنّ أي إنسان كسولٍ على هذا النحو سينتهي بهذه الرجفة المزمنة.

في مرّات كثيرة تدخل إلى هذا البيت ويخيّل لها استحالة أن تكون فعلاً قد عاشت فيه لسنوات طويلة، طفولتها، ومراهقتها في تلك الغرف، بين ذاك الأثاث الذي لم تطرأ عليه أيّ تغييرات منذ أن غادرت المنزل عندما كانت في العشرين من عمرها، ورغم ذلك، يبدو لها أن شيئاً ما قد أصبح أكبر هناك... كلّ تفاصيل المكان تبعث لها ما يشبه الرسائل.

«هل ذهبت خاثمين؟».

«لقد طردتها!» أجابت الأم كالفرعونة.

«لِمَ تفعلين بي هذا؟» كانت زلّة لسان؛ فهي في الواقع أرادت لسؤال أن يكون فقط وببساطة: «لِمَ تفعلين هذا؟».

لكن أمها لم تتأخر في الرد:

«أفعل بِك؟؟».

تمشّت هي قليلاً في غرفة الجلوس دون أن تخلع معطفها، متجنّبةً السؤال والنظرات التي لابدّ أن الأمّ الآن ترمقها بها من أعلاها إلى أسفلها.

حتّى عيون الأم قد تغيّرت في السنتين الأخيرتين، فظهر فيهما إطارٌ رفيعٌ

أبيض اللون، يوحي بأنّه بضعٌ من قطراتٍ حليبية اللون قد وزّعت حول حدقة العين فجعلت نظرتها أقسى بعض الشيء، بعيدةٌ وأكثر كثافة، كمفترس يترقّب فريسته في الظلام.

الرفوف مملوءةٌ بصور طفولتها، وصورٌ لوالدها الذي توفّي عندما كانت في العاشرة والذي لم يبقَ من أثره الكثير في ذاكرتها، وهناك أيضاً صورٌ لحفل زفافها مع بابلو، وأخرى لشقيقتها راكيل في لندن وفي أسطنبول وأمام نهر بيريتو مورينو المتجمّد.

الجميع مبتسمٌ في هذه المشاهد، لحظاتٌ عالقة في الزمن... كأنها شظايا تتطاير، ثم تسقط في الهاوية.

«لقد اتّصلت راكيل» علّقت الأم، ثم أعقبت: «قالت أنها لن تتحمّل وجود شخصٍ يسرقها في بيتها ولا حتّى ثانيةً واحدة».

راكيل تعيش في لندن، وهي تعمل في وكالة اتّطالات، لقد تزوّجت منذ ثلاث سنوات للمرة الثانية من رجلٍ إنكليزيٍّ ذي هيئةٍ بيضاء مذعورة، يُدعى دونوفان.

استطاعت هي بالتالي أن تتخيّل الحديث الذي دار بين أمها وراكيل بحذافيره الدقيقة:

لا تأتي راكيل إلى مدريد إلّا لكي تطلّ إطلالاتها النجوميّة، الابنة المثالية التي تزور والدتها في بيتها محمّلة بالهدايا للجميع. إنّها أشبه ببابا نويل مسعور وخارج سياقه.

مضى وقتٌ طويلٌ عليها، سنين لم يعد باستطاعتها إحصاءها لا تذكر خلالها أن علاقتها بأختها تعدّت حدود الصمت المحبط والمرير، يتخلّله بين حين وآخر لقاءات مختصرة ومزيّفة تتركها منهكةً في نهاية الطاف؛ لأنّ طبيعة شخصيتها في الحقيقة كانت بعيدة كلّ البعد عن المجاملات والادّعاء. حتّى بابلو

عندما يتحدّث عن راكيل، لطالما يشير إليها كما لو كانت زوبعة أو ما شابه، فيسأل مثلاً: «هل ستطلّ راكيل هذه السنة؟».

تترك راكيل لبابلو خلفها إعصاراً من ملابس يتعذّر ارتداؤها، وكذلك منحوتات وخزفيّات مطلية وغالباً ما تكون سوداء اللون، لا تستطع هي فهم مغزاها، وللأولاد تترك ملابس داخليّة صغيرة وغير مناسبة. وأما لأمّها؛ فهي تخلّف لديها الإحساس الراسخ بأنها لم تكن محبوبة كما يجب خلال حياتها، تفعل ذلك تقريباً تسع مرّات في كل عشر زيارات لها.

«أعرف ما تقوله راكيل يا أمي!!» علّقت أخيراً.

«أنتِ لا تصدقينني أليس كذلك؟ إنّك تتحالفين على الدوام مع الرّومانيات ضدّي» ثم أكملت بسخط: «أنتِ لا تصدقين أي شيء ممّا أقول».

اعتادت على تسمية جميع الفتيات اللواتي يعتنين بها ويقمنَ معها في البيت: (رومانيّات) حتّى لو لم تكنّ من رومانيا، في واقع الأمر أنّ اثنتين منهنّ كانتا فعلاً رومانيّتين ولابد أنّهما تركتا لديها انطباعاً قويّاً، لكي تتحدّث عنهما دائماً كما لو كانتا نذيرتين للشؤم.

«فلتجمعي أغراضك!! سنذهب إلى بيتي».

في هذه الحالات يتحوّل صوت والدتها إلى النبرة المسرحيّة التعيسة:

«كم سأمكث هناك يا ابنتي؟».

«يوم أو يومين، إلى حين نعثر على فتاة جديدة».

«لن نعثر على أحدٍ بهذه السرعة!».

«سنرى، هيا اجلبي حاجيّاتك... أم أنك تريدين البقاء هنا وحيدة؟».

«لا، لا أريد ذلك حبّاً بالله!!».

حاولت التركيز على احتواء غضبها ريثما نهضت والدتها باتجاه غرفتها لتجهّز حقيبة صغيرة، قطعت الصالون عدّة مرّات مجيئةً وذهاباً، ألقت بعدها

نظرة من النافذة، ثمّ جلست على الأريكة الملوّنة وهي لا زالت ترتدي معطفها، بدا عليها الحزن الشديد وأنها على وشك إخفاء وجهها بيديها والانفجار بالبكاء من اليأس. سيصيب بابلو الغضب، وستتصل راكيل مساءً ثماني عشرة مرّة، وهي سيعاودها التوتّر والإحساس بالضيق في بيتها، ذلك النقص بالأوكسجين حيث ستخترع أمّها الاحتياجات في كلّ ثانية، ثم أخيراً الشعور بالذنب والدموع المرفقة بشتائم والدتها الكثيرة، والأسوأ من هذا كلّه ذلك الصوت المستجدي عندما تستوقفها في ممرات البيت لتسألها عمّا إذا كانت تحبّها أم لا، وهي تنظر إليها كجروٍ كسولٍ.

لا مفرّ عند ئذٍ من تعاقب هذه العناصر والأحداث، وستكون الحيلولة دون انطلاق هذا السيناريو ضرباً من الاستحالة، وبالطبع فإن النتيجة حتماً ستتمثّل بوقوعها هي في الفخ.

تسأل نفسها في كلّ مرّة تصطحب فيها والدتها إلى البيت السؤال ذاته: «أين بدأ كل شيء».

تأملتها بطرف عينها عندما أوقفت السيّارة على إشارة المرور، وبعد أن أشعلت سيجارة هي تتماهى مع السؤال وتغوص في ثناياه؛ «أين، أين».. لابد وأن التحول هذا بدأ في مكان ما.. في لحظة محدّدة... ذات يومٍ معيّن...

تأتيها فجأة أفكارٌ مرعبة كالتشنّجات، وينتابها إحساسٌ مشوّه عن مستقبلٍ عبثيّ تصبح فيه كوالدتها، نسخة عنها.

عالمُ أمّي الحسّي يدور حول نفسه بلا توقّف، وهي تتحكّم به بليونة، نعم هذه هي الكلمة... لأن الليونة هذه تشبه إلى حدٍّ بعيد أداةً مطّاطيّةً تنحني مهما حاول أحدهم تصويبها. لكنّ نواة هذا المطّاط صلبةٌ وقاسية، غاضبةٌ من الحياة برمّتها، ومستعدّةٌ لإلحاق الأذيّة إن لزم الأمر، لنصب الأفخاخ وللابتزاز.

سمعتها تقول مرّة لحفيدها – أي لابنها هي- ذي الأعوام الثمانية: «هل تعلم؟ أنّه لو لم أكن أنا موجودة لما كنت أنت موجودٌ البتّة؟؟».

«لماذا قلت ذلك للصغير؟؟».

«لأنّها الحقيقة» أجابت أمي كرصاصةٍ طائرة... ثم سألت: «أم تظنّينَ أنّها كذبةٌ من اختراعي؟».

في الواقع كان كلّ شيء سيبدو كوميديّاً أو قريباً إلى ذلك، لو لم يكن يخرجها عن طورها، في بعض الأحيان يتحول الأمر فعلاً إلى ضحكٍ عندما تتحدث مع بابلو عن الوضع، لكن ضحكاتِ بابلو الصادقة والصحيّة، تقابلها ابتسامة صفراويّة متشنّجة من قبلها.

لم يكن الموضوع دائماً هكذا، فهي تذكر أنه في طفولتها وشبابها تمتّعت والدتها بطبع عصبيّ وحيويّ، ولابدّ أنها تحلّت بكثير من الشجاعة ورباطة الجأش لكي تستطيع تربية ابنتيها بعد أن ترمّلت في عمرٍ مبكر، بالإضافة إلى إدارة متجر الأقمشة. لم تكن شخصاً جاهلاً، كما لم تكن امرأة قبيحة. كان لها خطيبان بعد وفاة والد الفتيات، أحدهم استمر في خطبتها عدّة سنوات. متجر الأقمشة ازدهر خلال عقدٍ من الزمن تحت إدارتها الأشبه بحكمٍ عسكري ذي قبضة فولاذيّة، فهي لا تقوى على نسيان تلك الصفعة التي وجّهتها أمّها أمام عينيها ذات مرّةٍ إلى إحدى العاملات في المتجر، والتي مزّقت دون قصد قطعةً من الحرير. تذكر أن الفتاة بدأت ترتجف فتصطك أسنانها من الرهبة والفزع والخجل أمام سلوك أمها الصارم والذي يمزج ما بين القوّة والاقتناع. أحسّت لوهلة أنها لا تنظر إلى أمها، بل إلى زوجة أمبراطور سحيق القِدم.

قرارها ببيع المتجر لاحقاً شكّل لغزاً حقيقيّاً هو الأغرب في حياتها، تزامن ذلك مع زواج راكيل من زوجها الأوّل من جهة ومع خروجها هي من بيت أمّها. لطالما انتابها إحساسٌ عميق بالخجل من كونها وحيدة لم تستطع فهمه

مطلقاً، ربّما كان بسبب ارتباط راكيل، ويمكن أن أيضاً أن يكون بسبب قوّة والدتها.

كانت تعيش في عالمٍ ساذج وبليد. تدفعها سائر الأحداث إلى الاحمرار خجلاً، تخرج يوميّاً من كلّة الحقوق وهي تشعر بالقبح والذكورية، ثمّ تسير عائدةً إلى بيتها المستأجَر مع طالبين آخرين وهي تركل أوراق الشجر المتساقطة على الأرض طوال الطريق، تدخل غرفتها بعد ذلك وتتأمل النافذة التي تطل على مدريد. لطالما تراءت المدينة لها وكأنها واجهة هائلة الكبر من أبوابٍ غير متساوية.

فقدت عذريّتها مع شاب وسيم بعد إحدى الحفلات الطلابية التي كانت تقام في بيتها، بدا لها أنّ ممارسة الحب مع الشاب هي الطريقة الوحيدة للتخلص منه وعدم رؤيته من جديد، فبمجرّد كونه جذّاب هذا سيعني أنه لن يكرّر الأمر معها ثانية.

جلّ ما أرادته هو أن تفقد هذه العذريّة المرتبطة بشكل وثيق بسذاجتها وبراءتها، أن تدفع بها خارج جسدها وتنتهي منها مرّة واحدةً وإلى الأبد. تلا ذلك الحدث وخلال أربعة شهور إحساسٌ بالاضطراب والفوضى الذهنية، عمدت بالأحرى إلى معاقبة نفسها بشدّة على الخطيئة تلك، ظنّاً منها أنها ستطهّر نفسها على هذا النحو من الجبن وقلّة الشجاعة. وبما أن الأمر لم يكن طبيعيّاً دخلت في حالةٍ من الاكتئاب.

راكيل انفصلت عن زوجها بعد مرور ثلاثة أشهر، وانتقلت للعيش في باريس. واتصلت بها أمها بالتزامن مع ذلك لتبلغها أنها باعت المتجر، قالتها بسهولة تامّة كمن يخبر شخصاً بأنه قد باع خبزة. شعرت هي بصفّارة إنذار مفزعة، فبيع المتجر سيعني لها ولأمها حالة من القلق وانعدام الأمان.

«وما الذي ستفعلينه الآن؟».

«سأرى، لا شيء حتى اللحظة».

«لكن لماذا فعلت هذا؟».

«لم يرقني يوماً هذا المتجر».

«كنت أعتقد أن العكس هو الصحيح».

«لا أستغرب قولك، فأنت لا تفهمين الكثير من الأشياء» بالنسبة لها كان جواب والدتها سيكتمل إذا ما أضافت مثلاً: «ليس كشقيقتك راكيل».

تعرّفت على بابلو في مقهى الكليّة خلال الفترة ذاتها، انتبهت إليه من بعيد مرّاتٍ عديدة، كان أحد هؤلاء الشبّان الذين عندما يدخلون مكاناً ما يدّعون أنهم يبحثون عن أحدٍ ما، وسرعان ما يتوقّفون عن البحث ويجلسون بمفردهم. من هؤلاء الذين ليس عليها أن تغوص في حبّهم، أو أن تقلق كثيراً من صحبتهم. شابٌّ يشبه الكثيرين، خجولٌ بعض الشيء وغير اجتماعي، ينتمي إلى الجامعة كما تنتمي حمامة إلى حديقة لفترةٍ مؤقّتة، يتحرّك بصعوبة كما لو أنّه غير مرتاحٍ على الدّوام، ثم يختفي دون أن يترك أي أثر يذكر. يرتدي معطفاً ذا لونٍ باهت يصل حتّى كاحليه، ويضع قبّعةً بنيّة اللون. يبدو كمزيجٍ بين متآمر أناركيٍّ وشخصيّةٍ من شخصيّات دوستويفسكي معاد إنتاجها في فيلمٍ إنكليزيّ. يبدو أنّ هذا التشابه كان هو القاسم المشترك بينهما في البداية: فكلاهما يرتدي ملابس يبدو أنه قد سرقها من أكياس الثياب المستعملة لكنيسةٍ ما. يتمتّع بابلو عن قرب بجمالٍ خاص، نوع من غريزة نائمة، تقلق أكثر من كونها عنصراً جذّاباً في شكله. لا تذكر متى تحدّث أحدهما للآخر أوّل مرّة، لكنّها تذكر جيّداً أن اللقاءات الأولى كانت متعبةً وغير اعتياديّة، حيث حاول بابلو إذهالها من خلال لائحةٍ طويلة عن آخر مئة كتابٍ قرأها عن النظريّة الماركسيّة دون أن يدع لها حتّى مجالاً للحديث. تتذكّر أيضاً أنهما عندما مارسا الحب لأوّل مرّة لم تكن تودّ اللقاء به مجدّداً، لكنّهما التقيا مرة ثانية، وثالثة، ورابعة ثم خمس مرّاتٍ فأصبحت مواعيدهم أكثر لطفاً ومتعة. تظنّ هي أحياناً عندما يخرجون من السينما أو عندما يدخلون مقهىً ما،

تظنّ أنهما مجرد منبوذين. أمّا هو فيطيل التأمل فيها، ثم يدلي بتعليقاتٍ عبثيّة؛ كأن يصرّح مثلاً بأنّه حلم بكل الأشياء إلّا بأنه قد يغدو محامياً، سائق سيّارة أجرة مثلاً.

في إحدى اللّيلات، وبعد أن فرغا للتو من ممارسة الحب، غفا بابلو وهو يغطّي رأسه بساعده كعادته دائماً، وبقيت هي صاحية تتأمل جسده النحيل، ووضعيّته التي توحي بأنّه قد سمع لتوّه انفجاراً ضخماً. تذكر أنها في تلك اللحظة بالذّات فكرت لأوّل مرة في الأمر، بدأت الفكرة أقرب إلى ما يشبه الغطرسة؛ إنّها تنتمي إليه.

حتّى جسدها، حوّلته ذهنيّاً إلى مكتسبٍ ما، وهذا قد منحها إحساساً رائعاً بالسكينة. جسدها إذاً، أحلامها وأفكارها كلّ ذلك كان ينتمي لبابلو؛ إنها ملك له. أُضرجت نار الحبّ بادئ ذي بدء في داخلها على هيئة حدسٍ عنيفٍ تمثّل في الاستملاك الذي سرعان ما ينعكس عليها وإليها كهديّة إعجازيّة من خلال لطف بابلو القاسي والعصبي، تبادلٌ عاديٌّ للمكتسبات صعب الإدراك.

تجلس في تلك الأيّام بهدف الدراسة، وينتابها إحساس بالغبطة ينقض عليها على حين غرّة، فتشعر بلامبالاة مريحة حيال مدريد ونهرها الجاف، وشمس شتائها البارد، وحيال أيّام الأحد في بيت والدتها ساعة الغداء؛ «لست مضطرّة للمجيء إذا كنت لا ترغبين بذلك، أنها جيّدة بمفردي»، لم تعد تكترث حتّى إلى (قانون الشريعة)، أو ورق الجدران، في غرفتها الطلابيّة الصغيرة والسخيفة، والتي كانت تدفع أمها أجرتها في السنين الأولى، ثم أصبحت هي من يدفع بعد أن بدأت العمل الجزئيّ كسكرتيرة متدرّبة في مكتب محاماة.

أمّا الآن، وهي تقلّ والدتها نحو منزلها لعددٍ لا يحصى من المرّات، خطر في بالها أنه الأمر قد يكون قد بدأ هناك، خلال هذه السنوات. أمها وبابلو لم يستسغ أحدهما الآخر منذ اللحظة الأولى. قاطعتهم الأم عن قصد، متذرّعةً بأمراض

وهميّة طوال عامين من زواجهما. كانت هي قد أنجبت ابنها الأول في الصيف، ثم ابنها الثاني بعد عامٍ واحد تماماً.

استطاع الكسل تحويل والدتها إلى شخصٍ آخر، مختلفٍ كليّاً، حتّى أضحت متآمرةً غير متحرّكة، ومتطفّلة محنّكة يحرّكها الجشع والتناقض.

«حتّى الاحترام، أنتِ لا تكنينه لي» هكذا تعلّق في كلّ مرّة تحاول هي فيها التهرّب من غداء يوم الأحد لكي تخرج مع بابلو والأولاد إلى الريف. وبعد ذلك تأتي المكالمات الهاتفية كسيل من قطرات الماء الغزيرة؛ «ماذا تناولتم على الغداء؟؟» بما أن هشاشة العظام أيضاً منحتها حديثاً دائماً؛ «أشعر بأن الكلاب تنهش ساقيّ».

لطالما أحسّت في كلِّ مرّةٍ تزور بيت أمّها أن شيئاً ما تغيّر في الصالون، وفي جسد والدتها كذلك، شيءٌ عالقٌ وراكد في رائحة البيت، كما لو أنّ جسد أمّها قد انكمش في داخله كزهرةٍ تعرّضت لأشعة شمسٍ قويّة.

حياتها الشخصيّة كانت فعليّاً تسير بشكلٍ موازٍ مع حياة أمّها، اكتشفت هي نفسها أنّها أمٌّ غير أنانيّة ومرحة، يسعدها أنّ أبناءها فرحين لا ينفكّون ينغمسون في اللّعب، تنظر إلى نفسها في المرآة وتجد أن الأمومة قد منحتها طيبة ومظهراً طبيعياً في تفاصيل الوجه. حتّى ممارسة الجنس قد أصبحت مختلفة خلال هذه السنوات، انطلقت أكثر في ممارسته وبدا لها كتفريغٍ نفسيٍّ ضروريّ.

غدا كلّ شيءٍ واضحاً الآن، لا بد وأنها خلال تلك الفترة انطوت بشدّة على سعادتها الداخلية ما لم يتح لها فهم ما كان يجري حولها، وحينها بدأت أمّها تنزلق على أرضيّتها الصابونيّة المتمثّلة في سلوكها هذا المستند على عدم الرضا والتشكّي، بالإضافة إلى جرّ الانتباه نحوها والكذب المستمرّ والتواطؤ مع راكيل. من المؤكّد أن البيت بدأ يبرد خلال تلك السنوات بالتحديد.

بعد أسبوع تماماً، كانت قد أجرت مقابلاتٍ لعشر فتياتٍ جديدات.

العمليّة لم تكن سهلة البتّة، وجاءت راكيل هي الأخرى في عطلة نهاية الأسبوع لتمدّ يد العون. اضطرّت هي إلى النزول إلى الكنائس وإلى المنظّمات غير الحكوميّة لكي تستفسر ما إن كانوا على تواصل مع فتيات يودّن المكوث مع سيّدة عجوز في بيتها، تركت لهم رقم هاتفها معلومات لا يشوبها بعض الكذب؛ (نبحث عن فتاة شابّة ولطيفة ذات خبرة في الاعتناء بامرأة مسنّة هادئة للغاية تعاني من مرض السكّر) وبطبيعة الحال كانت تعرض على الفتيات الراغبات إقامة كاملة في المنزل؛ غرفةٌ صغيرةٌ مجهّزة للفتيات (هذه كانت فكرة راكيل)، ومضيئة، لا يسمح باصطحاب الزوّار، الراتب الشهري هو ستمئة وخمسين يورو مع إمكانية لتوقيع عقدٍ رسميّ في حال استمرّ العمل لمدّة تتجاوز سنة كاملة (في هذه الحالة سيخضع الطرفان لفترةٍ تجريبيّةٍ مدتّها ثلاثة أشهر).

تقرأ بعناية عبارة (في حال استمرّ العمل لمدّة تتجاوز سنة كاملة) ولا يسعها إلّا أن تضحك، فمن بيت والدتها وخلال أسبوع واحد كانوا جميعاً قد شاهدوا فرار دايسي، وخاثمين، وسارة، وديبورا، وأخيراً نيكوليتا.

تدخل معهم البيت لتعرّفهم على أمّها التي يصدف أنّها ترتدي لباس سهرة أنيقٍ، أو طقماً رسميّاً مع معطفه، وهي تمسك دفتراً صغيراً وقلماً كانت قد اشترتهما لتسجيل ملاحظاتها وانطباعاتها:

مارغاريتا

قبيحة

إكوادور؟؟

هيئة لصوصيّة

3 أولاد.. في الإكوادور؟؟

كثيرة الكلام

بعد مرور بعض الزمن جاءت ماريّا، ثم مونيكا، وعادت الأم الكرّة، فيما حاولت هي أن تضع نفسها مكان إحدىٰ هات الفتيات اللوات يدخلن غرفة الجلوس الباردة تلك، ليجدو سيّدة كبيرة تجلس مرتدية معطفها وحاملة مروحتها الفاخرة وهي تسجّل الملاحظات علىٰ دفترها، وليجدوا أيضاً ابنة منهكة تحاول دون جدوىٰ أن تعطيهم إيحاءاتٍ وبوادر لطفٍ واحترام.

يخيل لها أحياناً أنها في الواقع لا تفعل شيئاً سوىٰ تمثيل مسرحية هزليّة تبدأ باستعراضٍ طفوليّ مخادعٍ ورديء، ثم سرعان ما تنتهي بأن تبقىٰ واحدة من تلك المغدورات سجينة بيت أمّها وتواجه الذعر الذي ينضوي عليه الفخ، بعد تنكف الحقيقة المخبّأة خلف جميع جدران اللوز والسكر وأبواب الحلوة المغرية التي تتراءىٰ لها في بادئ الأمر، عندئذٍ سيتحول المشهد إلىٰ أصفادٍ معدنية صلبة.

هنّ كنّ أقوىٰ ممّا كان بوسعها التصوّر، ترتدين أثواباً مبتذلة، وتضعن روائح عطرٍ تخترق الأنوف، وتتحدثن بأصوات رفيعة كالناي.

مسرح النوايا الحسنة هذا لم يكن ينم إلّا عن التناقض الذي سيحمل فيما صراعاً شرساً، يصعب – بالنسبة لها – علىٰ فهمه الرجال. تنهض والدتها من الأريكة لتري دايسي الغرفة، تمشي هي بالقرب منهما، وتحاول دايسي سند الأم في إشارة منها إلىٰ الحماسة لبدء العمل، في الواقع هي تريد ملامستها وحسب، أن تشتمّها وتعاين ملمسها لتكتشف ما إذا كانت ستستطيع تحمّل عبئها. وعندما تدخل الغرفة تقف الأم هذه المرة خلفها لتعاينها برويّة:

دايسي

35 سنة... تبدو في 45

هل أحب الطعام البيروانى؟

أنانيّة

يتملّكها شعورٌ بالقلق كلّما دخلت فتاة جديدة غرفة الجلوس لإجراء المقابلة، فتخاف أن يكشف أمر توتّرها أو تزويرها للحقائق. فهي لم تتعلّم مهارة الكذب طوال سنوات حياتها الأربعة والأربعين، وعندما تضطر لفعل ذلك، تشعر أن العالم بأسره قد انطبق عليها وكأنّه معدةٌ عملاقة. أعجبتها في الواقع جميع الفتيات؛ الرقيقات منهن والمهذّبات، والأكثر جدّية وتنظيماً إذ كنّ سيتحملن وقتاً أطول في المهمّة.

تتصّل راكيل يوميّاً في الليل، وتدوم المحادثة بينها وبين والدتها طويلاً وهنّ يقلّبن الاحتمالات، حيث تفصح راكيل عن آرائها بالفتيات بحدسٍ يبدو عابراً لآلاف الكيلومترات. أخذتا برفض الفتيات العشر الواحدة تلو الأخرى، لا لأنّ لدى راكيل أية معلومات تستند إليها، بل لأن ملاحظات الأم أوحت لها بذلك. ثمّ بعد ذلك تحدّثت هي إلى أختها بغيظٍ حامض، حيث كررت راكيل حتّى الرمق الأخير بأن والدتها هي التي ستعيش أو ستتعايش مع إحدى تلك الفتيات لا هنّ. هكذا هو الحديث مع راكيل: تسير الأمور بشكل يوحي بأن كل شيء تحت السيطرة، ثم لا يلبث الحديث فجأة أن ينزلق ويدخل في حيّز الشخصنة بينهما:

«كل هذا العناء سيغدو أبسط بكثير لو اعتنيت أكثر بأمّنا».

«ما أسهل قول هذا وأنت في لندن».

«لو كنت في لندن أو في كوالالامبور، لا فرق... أنت تتحملين المسؤوليّة».

تدور جمل راكيل دائماً حول هذه اللغة صعبة الفهم، والتي تستقيها من ترجمات حرفيّة مستعارة من لغاتٍ أجنبية. بل إن راكيل بأسرها هي أقرب إلى ترجمة حرفية من لغةٍ ثانية، وهذا تماماً ما يجعل الجفاء بين الاثنتين سيّد جميع المواقف.

بودّها في بعض اللحظات الوقوف وطرح سؤال صريح وواضح:

لماذا لسنا قادرتين على التعامل بحب إحدانا مع الأخرى؟

إلّا أنّ هذا السؤال بحدّ ذاته سيكون اعترافاً مفتوحاً بالفشل، وسيمثّل خطوةً نحو المصالحة.

في اليوم التالي ظهرت أنيتا، بين ثلاث فتياتٍ قد أرلسها (المركز الإسباني الكولومبي) لإجراء مقابلات التوظيف. وصلت الفتيات وكان عليها هي أن تجعلهنّ ينتظرن في الردهة وأن تدعهن يدخلن واحدة تلو الأخرى لكي يتسنّى لأمها أن تقابل كل واحدة على حدة. وقعت عين الأم عليها من اللحظة الأولى، وبدت وكأنها منوّمةٌ مغناطيسيّاً. لم تكن أنيتا حتّى تبلغ العشرين من عمرها، كتفاها منكمشان قليلاً، لها جسمٌ أشبه بجسد مراهقة وعينان صغيرتان، يداها ترتجفان بتوتّر طوال الوقت وهي تلعب بمطّاطة صغيرة لربط الشّعر. تركت الأم دون عمد أنيتا حتّى النهاية، وعندما أدخلتها أخيراً، بدت الفتاة عاجزة ومنهكة وكأنّما يتم إدخالها إلى ميتم أو ما شابه، ولكنّها بلحظة ما قررت أن تشدّ جسدها وتفعّل في داخلها شخصاً آخر أكثر ثباتاً، الشخص المطلوب ربّما. - لم تكن هي تعرف في هذه الأثناء أن كل شيء سيكون مختلفاً مع وجود أنيتا، وأنّ هذا ما ستكتشفه لاحقاً-

أنيتا في واقع الأمر كانت كذلك، تتغيّر على حين غرّة، وتظهر بشخصيّات مختلفة دون أن تعطي أيّ إحساسٍ ينذر بأنها تخطّت خجلها، بل تحافظ دائماً على خاصيّة الحيادية التي تذوب في جميع المواقف بأكثر من ستّين شخصيّة مجتمعات معاً.

«من أية مدينة أنتِ؟» سألت الأم.

«من مدينة ميديين، في كولومبيا».

«وكم عمرك؟».

«تسعة عشر».

«ألديك عائلة؟».

«نعم، أمّي ولي أيضاً خطيب يدعى مانويل، وعندي ولد: اسمه لوليتو».

كتبت الأم في دفتر ملاحظاتها: (عندها ابن)، ثم بعد ذلك أصابتها الحيرة، وأخذ القلم يرتجف في يدها، ظهرت على وجهها علامات التعجب، ولم تتأكد من ضرورة إضافة ملاحظة ما أم لا... ثمّ فعلت أخيراً.

«كم عمر ابنك؟».

«سنتين».

«ألا تشتاقين له؟».

فعلت هنا أنيتا شيئاً غير مفهوم، شيءٌ دفع الأم إلى أن تخجل من سؤالها؛ التفتت إلى النافذة، ثم نحو الصور الكثيرة للسيدة العجوز والموضوعة فوق الرفوف، وعادت بعدها لتنظر إليها وإلى أمها بعينيها البنّيتين الغامضتين. ابتسمت برقّة، وباستقلالية مذهلة وبدا أنّها لم تسمع حتّى السؤال، أو أنها سمعته، ثم نسيت أنها سمعته على الفور.

رأت هي في أنيتا سموّاً ما، ليست أنيتا بالضرورة سامية، لكنّ شيئاً ما في هذه الفتاة يسمو على كليّتها، وعلى عمرها الذي لم يصل للعشرين، وعلى عينيها اللغزيّتين وشعرها الأسود الطويل المسدل على كتفيها، كلّ ما في هذه الفتاة يعيش مستقلاً: أظافرها، شعرها، عيناها التي ترمقهما بهما بنظرات مفتوحةٍ ورطبة. ابتسامتها ليست عنيدة أو متجبّرة، لم يكن في نيّتها الإجابة بوضوح على سؤالٍ بديهيّ. ابتسامة أنيتا أشبه بابتسامة قناعٍ مصريٍّ خلف زجاج المتحف، لطيفة وغائبة، لها آلهة مختلفون لا يشبهون الآلهة التقليديّين، ذوو خبرةٍ أعمقَ ومعرفة أدقّ.... ظلّت هي مختبئةٌ خلفهم.

«قالوا لك في المركز كم سيكون راتبك مقابل العمل؟».

«أجل».

«هل تودّين رؤية غرفتك؟».

«بالطبع»

في غضون توجُّه أنيتا إلى الغرفة نظرت هي إلى أمها لتتأكد من أنها لا تريد إضافة شيءٍ جديد إلى الدفتر... لم تفعل. الملاحظة ظلّت مقتضبة:

أنيتا

عندها ابن!

وضعت يدها على كتف أنيتا وهي تخرج من البيت وعلّقت دون أن تعرف السبب، ومن غير استشارة أمها:

«ستكون الوظيفة من نصيبك، أتستطيعين المباشرة غداً؟».

«بالتأكيد» أجابت أنيتا مبتسمة.

لم تقل أمّها كلمةً واحدة.

حاولت في مناسبتين أن تصف أنيتا لبابلو، بيد أن الفشل الذريع كُتب لهاتين المحاولتين. لم تكن بوارد وصف جمالها؛ لأنها لا تمتلك من ذلك الكثير، ولا حتّى بوارد الحديث عن شخصيّتها، فهي لم تتعرف عليها بحقّ بعد، الموضوع إذاً يتعلّق بأن الفتاة التي دخلت منزل والدتها لتبقى فيه قد نجحت، مستأثرة بهذا الحق ومتغلّبةً بذلك على حفنة من المرشّحات الأخريات. تحاول تذكّر شكل وجه أنيتا فتضيع بين أكوامٍ من الانطباعات الكسولة، يُهيَّأ لها أن هذه الفتاة لابد أنّها تعرضت لأحداث خطيرة، كانت تغيب فجأة وتشرد، يظهر عليها بعض الذعر أيضاً، ليس حيال أمرٍ ما يدور حولها، إنّما هو شعور داخلي وحميم بالتعاسة ينتابها من داخلها فيحلّق بها في لحظة ما، ثم سرعان ما يعيدها من جديد إلى الواقع. تعود أنيتا وقد تبدّدت موجبات حزنها.

أمضت أمّها أوّل يومين مع أنيتا متأهّبة كما تفعل مع سائر الفتيات الجديدات، تحتفظ بأوراقها ولا تظهرها بسرعة. أمّا أنيتا فهي تغسل الملابس وتحضّر طعام الغداء والعشاء، ترافق الأم في نزهات عندما يكون الطقس جيّداً، وتقوم بتنظيف البيت بشكلٍ مرضٍ، رغم أن التدقيق قليلاً يكشف أنّها تفعل ذلك بأقلّ جهدٍ ممكن.

زارتهما مرّتين وعاينت في أنيتا قدرةً طبيعيّةً على القيام بأعمال المنزل، تقفز من مكان إلى آخر برشاقة وهي تتراقص تقريباً دون أن تجول في خلدها أفكارٌ من أي نوع، ثم تأخذ نفساً عندما تشعر ببعض التعب وبعدها تنهض من جديد كطفلةٍ حديثة الولادة.

اصطحبتها في إحدى الزيارات إلى المقهى المجاور لبيت والدتها لشرب القهوة، وكانت الحجة أنها تريد شرح بعض التفاصيل لها، في حين أنها في حقيقة الأمر أرادت الاختلاء بها واستجوابها حول بعض الأمور. استمعت أنيتا إلى المعلومة التي قدمتها لها عن أمّها باحترام، لكن دون الكثير من المبالاة. على الرغم من صغر سنّها لكنّ أنيتا لم تكن قليلة الصبر، تنكمش قليلاً عندما تتحدّث عن عائلتها في كولومبيا؛ والدها متوفٍّ (لم تذكر تفاصيلاً عن الأمر)، وأمّها تعتني بلوليتو في ميديّين (أظهرت هنا صورةً لطفل يصعب وصفه، خائفٍ وظريف متنكّر بزيّ الرّجل العنكبوت، ولا يبدو معروفَ الأب)، ثم مانويل الذي قدم معها إلى مدريد، وهو يتشارك السكن مع أناسٍ آخرين.

«إنّه يحترمني كثيراً»، قالتها وكأن الاحترام شيءٌ مفقود، أو ممنوعٌ وشاق، وقابل للزعزعة في أي لحظة، بعدها أقبلت على قول شيءٍ ما، ثم ظهرت عليها بعض الدهشة وختمت الأمر بابتسامتها الرقيقة.

أحياناً تبدو لها كطفلةٍ، تنظر إليها الآن وهي على ثقة تامّة أن محاولاتها وصف أنيتا لبابلو لم تكن صائبةً البتّة. أخبرت راكيل أن الفتاة الجديدة جيّدة

ومرحة، ولكنّها الآن تكتشف عدم ملاءمة كلماتها هذه أيضاً لحقيقة أنيتا. تتفحّص ذهولها، ثم ثيابها المناسبة جدّاً لسنين عمرها التسع عشرة ويخطر لها أن هذه الفتاة لابد أنّها عايشت حدثاً عنيفاً، حتّىٰ لو كان ومضةً سريعة حفرت في نفسها هذه الذكرىٰ وفي ملامح نظراتها، فإنّ الكيفية التي تحرّك بها عينيها تقود إلىٰ الاستنتاج بأنها تبحث عمّا قد ضاع منها، لا يتعلّق الموضوع فقط بغيابها هذا، إنّما أيضاً بأسلوبها في الاعتناء بالوالدة، بطريقة لمسها لها، كيف يعقل لشابّة في عمرها فهم ظاهرة معقّدةٍ وشرّيرةٍ بهذا العمق!!

عندما يقرّر شخصٌ مسنٌّ تدمير نفسه وسحق محيطه بالكامل فما باليد حيلة سوىٰ الجلوس أمامه ومراقبة الاستعراض.

ليست لطيفة، لكنّها طفولية... ليست مرحة لكن متفائلة... ليست نشيطة، لكن سرعتها فائقة، شديدة التركيز وقليلة الحركة، خطّها سيّئ ويشبه شباك العنكبوت، تكتب مثلاً علىٰ ورقةٍ أسماء أدوية الأم، أو تسجّل الأرقام عندما تقيس لها منسوب السكّر في الدّم من خلال أخذ عيناتٍ منه كأنّها عالِمٌ يدرس عيناتٍ من صمغ الأشجار. تقرأ أحياناً روايات زهريّة اللون لا تليق بها أبداً، تقوم بذلك بشراهة ذات خصوصية، كلّما أتت لزيارة أمّها وجدتها معاً في غرفة الجلوس، الأم تشاهد التلفاز، وهي غائصةٌ في كتابها.

«هل أنتِ سعيدةٌ أنيتا؟».

«سعيدةٌ بِمَ؟».

«أقصد مع أمّي، هل بدأتِ تتعوّدين؟».

«السّيدة صعبة المراس» أجابت بعد صمت قصير، نظرت إليها حيث يبدو أنها حاولت استثمار الأوراق، علّها تسمع شيئاً جديداً، لكن أنيتا عادت للصمت مجدّداً.

«ماذا تعنين؟؟ ما الذي تريدين قوله؟».

ابتسمت أنيتا ولم تبدُ مستعدّة لأن تضيف المزيد. ظنّت هي أن الفتاة ربّما خافت من أن تخسر عملها، ما إذا جعلت منها شريكةً في أن تتصارحا معاً.

«إنّ أمّي غاضبة، من العالم ومن حياتها، لا أدري، ربّما منّي أنا أيضاً... لم تكن هكذا دائماً، كانت في السابق امرأةً قويّةً... حتّى لو أنّ هذا يبدو الآن كذبة».

«أعرف ذلك!».

هذه هي المرّة الأولى التي تتحدّث فيها بانطلاقٍ مع إحدى الفتيات اللواتي يعتنين بأمّها، بل على العكس من ذلك، فهي تفاخر دائماً بترك مسافة مهنية بينها وبينهنّ في العادة. في أنيتا إذن ما يدفعها لفعل هذا، ربّما هي رغبةٌ عبثيّة بإنقاذها من براثن والدتها، وقد يكون أيضاً شعورٌ غريبٌ يجمع الاثنتين كما لو كانتا متواصلتين روحيّاً.

قالت أنيتا هنا: «أمّك تخجل».

ما قالته أنيتا بدا لها بعيد التصّور فلم تجرؤ على سؤالها عن قصدها أو مِمَّ قد تخجل والدتها فعلّقت: «خجل؟».

جاء النّادل عندها لكي يأخذ فنجاني القهوة واستغّلت أنيتا الموقف لكي تقفل الحديث بابتسامةٍ بريئةٍ ونادمة، من الوجود هناك ومن التواطؤ الذي شعرت أنّها تقوم به، أمسكت بخصلةٍ من شعرها بتوتّر ثبّتتها خلف أذنها على الفور.

بدت ملامحها أكثر وضوحاً وانتبهت إلى الشامات الداكنة والصغيرة المتناثرة على وجهها والتي لم تكن قد لاحظتها من قبل:

«لماذا تقولين أنّها تخجل؟».

«لا أدري! أنا أيضاً لا أعرف إذا كانت أمّي تحبّني أم لا».

دامت احتفالات الميلاد ورأس السنة طويلاً في ذاك العام، وظلّت كلمات أنيتا عالقةً في ذهنها طوال أسابيع، من الواضح ودون أدنى شك أنها أصابت

قلب المشكلة. قامت أمّها بالمكوث عندها خلال أسبوع الأعياد، بدت معكّرة المزاج وأكثر صمتاً من المعتاد. لم تستطع راكيل المجيء إلى مدريد هذا العام بسبب ذهابها إلى بوينوس أيريس. لكنّها بقيت تتصل كل يومين لتحدّثهم عن الطقس الحار هناك، وعن جمال الشواطئ في بونتا ديل الأيستيه، وكيف أن دونوفان أصبح أحمر اللون من وهج الشمس، وكيف اكتسبت هي لوناً أسمر لامعاً: «عليك أن تري الرجال هنا يا أمّي، هؤلاء رجالٌ جميلون بالفعل.. ليس كالإنكليز».

تنظر هي بطرف عينها إلى أمّها التي تتحدّث على الهاتف في محاولة منها لفهم أسباب التغيير الذي حلّ بها. لأن تغيرُّاً ما قد طرأ في لحظة ما عليها لا محالة. شيء ما قد حصل مع والدتها وربّما معها هي أيضاً، أخذت تجرّب فهمه، فكّرت: إنّها تخجل.

حاولت في عدّة مناسبات توظيف هذه الكلمات منذ أن تحدّثت مع أنيتا لفهم أمّها، عندما تجلس مع أبنائها بالقرب من أمّها في غرفة الجلوس، على طاولة العشاء في ليلة الميلاد، وعندما تساعدها على الاستحمام في الصباح. كانت قد تعوّدت على رؤيتها عارية، واعتادت شكل جسدها بعد أن رأته منذ أربعة أعوام للمرّة الأولى بعد أن أدخلوها إلى المستشفى بدافع مرضٍ جلديٍّ.

لطالما أبدت والدتها خجلاً من الظهور عارية، وشعرتا كلتاهما بالغرابة، لكنّها كانت تحاول التصرّف بطبيعية إلى أن أصبحتا معتادتين على الأمر، تجلسان سويّة كل صباح في الحمام الكبير، تساعدها على خلع ثيابها وعلى الاستلقاء في حوض الاستحمام، ثمّ تفتح الماء قليلاً ريثما يصبح ساخناً. تتحرك والدتها بشكل أهوج كفتاةٍ مريضة. تتأقلم مع الأمر في بعض الأحيان، وفي أحيانٍ أخرى تعود الغرابة لتسيطر على الموقف.

تفكّر: إنها خجلة. يلوح هذا الإحساس مهيمناً، لكن ربما كانت هي

الوحيدة التي تستطيع إدراكه، دون أن تقوىٰ علىٰ منعه من أن يُهيِّج مشاعرها ويجعل الاكتئاب يتسلّل إلىٰ أعماقها ويسبب لها ضيق النفس.

بشرة الأم رقيقة للغاية، يتخلّلها بقع دموية وكدماتٌ طفيفة من جراء ارتطام والدتها المستمر بالأشياء. هل هذا ما عنته أنيتا حقيقةً بكلامها؟ هل يكون خجلاً من البقع والكدمات؟ تملّكها الفضول وكانت علىٰ وشك الاتصال بأنيتا لتستفسر منها أو لتخبرها أنها فهمت قصدها. بقعة في الفخذ، وضربة في الساق قرب الركبة، وأخرىٰ في الساعد، وبقعة تحت الصدر، وانتشار لتلوّنٍ متدرّج كصبغةٍ علىٰ الأرجح حتّىٰ أنّه ليس كدمة علىٰ الإطلاق، بل أحد نزوات جلد الوالدة تظهر، ثم تختفي ببساطة.

بدأت تفهم كيف أن أنيتا عندما تأخذ منها عينات الدم لفحص منسوب السكري كانت تفعل ذلك وهي باردة تماماً وكأنها لا تتعامل مع مخلوقٍ بشري. وتفعل هي الأخرىٰ ذلك وهي تساعدها علىٰ الاستحمام وكما لو أنها لا تلمس جسد أمها الحقيقي. ترىٰ أيكون هذا هو الخجل الذي قصدته أنيتا؟

لم تستطع أن تروي هذه المشاعر التي انتابتها في فترة عيد الميلاد ذاك بسهولة إلىٰ الأشخاص الآخرين، خصوصاً عندما وصلت الأمور إلىٰ تلك النقطة:

حيث جاء بابلو وهو يحمل الجريدة الصباحية وأخذ يتصفح أرقام اليانصيب الرابحة فصاح فجأة:

«ربحت أمّك خمسين ألف يورو!!»

ظنت بادئ الأمر أنها مزحة أو ما شابه، وعندما أدركت العكس لم تعرف ما إذا كان الخبر الذي عبر رأسها كالسهم سعيداً فتفرح، أم أليماً فتحزن.

«ماذا تقول؟».

«ما سمعته لتوّك، ربحت أمّك خمسين ألفاً».

استمرّت والدتها بالبكاء طوال الصباح، خشية أن يقولوا لها أي شيء، وخشية أن يسألوها أو يطيلوا التحديق إليها. بكت من الفرح، لكنه فرح متوتّر وبشع. أمسكت بجهاز التحكم بيدٍ أشبه بالمخلب وجلست تشاهد التلفاز علّهم يعلنون الخبر، أو علّ هناك خطأ ما في الجريدة، ولم تربح هي بالفعل الجائزة.

يعرضون في التلفاز احتفالات الفوز بالجائزة الكبرى، في إحدى القرى. في إدارة إحدى الشركات البائسة، حيث أفرغ المحتفلون زجاجة من مشروب السيدرا فوق رأس رجلٍ عجوز، وأخذوا يرفعون بالمديرة ويقذفون بها في الهواء أمام الباب.

أشعل الأمر الإثارة عند أولادها، بينما ظلّت هي حائرة يشوب إحساسها السعيد شيء من عدم الرضا الممزوج بجشعٍ سرّي تمثّل في طمعٍ ربّما من أنها ستتلقّى من أمها هديّة ما.

الوحيد الذي ظل طبيعيّاً هو بابلو، هبط لشراء زجاجة شامبانيا، تناول طعامه بغبطة، ثم بعد ساعة من الوقت خلد إلى قيلولته كالعادة كأن شيئاً لك يحدث.

المبلغ فعلاً كبير، لكن الخمسين ألف يورو لن يغيرّوا بالتأكيد حياة أحد بعد كل شيء. هو مبلغ قاصر، وقاصر جدّاً على إحداث تغيير فعلي وجذري، علاوة على أن حياة والدتها بالذات كان من الصعب فعليّاً تغييرها، وإلّا كيف لها أن تتغير بوجود هذا المبلغ؟

رغم كل هذا، هنالك ما تغيّر بأمّها منذ أن أعلن بابلو نبأ فوزها بالمال، فقد تخدّر فكّها، وتلاشت ملامح وجهها كلياً تاركةً توتّراً واضحاً، بقيت ساكنة الحركة تتنفس بصعوبة مصدرة ضجيجاً مسموعاً.

علّقت بحزنٍ طفيف: «إنّني أحبك يا ابنتي» في محاولة لإعادة إحياء نفسها

على الأرجح، تماماً كما استمرّت بشرب رشفات صغيرة من كأس الشامبانيا الذي بدا أشبه بالعلقم، لكنّها أصرت على شرب الكأس وكأنه دواء هشاشة العظام الذي تتناوله يوميّاً. راكيل بدورها اتّصلت كالعادة، وأكدّت أنهم سيحتفلون بالجائزة الليلة ويشربون النخب على شرف والدتها، بعد أن أطلقت صيحات السعادة وجعلت أمّها تبكي مرة جديدة.

اصطحبتها للنوم ليلتها، وكانت تبدو كالأطفال من شدّة كثافة هذا اليوم وأحداثه، وفي الوقت نفسه بدت الشيخوخة عليها على نحوٍ فجّ وصارخ.

«سنذهب غداً لأخذ الجائزة، أليس كذلك يا ابنتي؟».

«لا أدري إن كنّا نستطيع أخذها غداً».

«بالتأكيد نستطيع، هذا ما قالوه في التلفاز».

عادت إلى غرفتها، وعندما فتحت الباب ووجدت بابلو يقرأ كتاباً في السرير تملكتها رغبة بالبكاء، لم تكن ممن يجيدون لغة الأرقام، راحت تنزع ثيابها وتحاول تمالك نفسها، استلقت بعدها في السرير وغطّت وجهها بيديها.

«يومٌ غريب أليس كذلك!!» علّق بابلو ثم ابتسم.

حاولت مسايرته بضحكة لكنّها سرعان ما أمالت رأسها وقبلته بيأس فسألها:

«ما الأمر؟».

«أحتاج إلى ممارسة الحب».

أطلق بابلو ضحكة في البداية لكنّه عاد إلى جديّته عندما رآها تحدق به.

«لكن، فعلاً... ما الأمر؟».

«لا أعرف.. أشعر أن كلّ شيء يشعرني بالخجل».

تراودها تلك الفكرة العبثيّة بأن أنيتا وحدها هي القادرة على انتشالها من هذا المأزق، تنتظر بفارغ الصبر قدوم اليوم الذي ستعيد فيه والدتها إلى بيتها

وتلتقي بأنيتا، وفعلاً عندما حان الموعد ووجدت أنيتا تنتظر هناك على بوابة البناء أحست بطمأنينة فريدة وكأنّها طفلة صغيرة اجتازت أخيراً عامها الدراسي.

أسبوع الإجازة هذا جعل أنيتا مرتاحة أكثر، فاستقبلتهم كعادتها بابتسامتها الغريبة.

يخطر ببالها في بعض الأحيان أنه في عالم أنيتا الداخلي تقطن فتاة عصبية للغاية، مملوكة بشهواتٍ شرسة، كأنّها مفترس يترصّد بهدوء حذر فريسته لينقضَّ عليها.

«باركي لأمي يا أنتيتا، فقد ربحت اليانصيب هذه السنة!».

«حقّاً؟ هل ربحت الكثير؟».

«خمسون ألفاً، لقد تقاضينا المبلغ منذ ثلاثة أيام!».

«هنيئاً لك يا سيدتي!».

لم تكن أمّها مسرورة من أنها تبلغ النبأ إلى الجميع، أما هي فقد شعرت بفطرتها بوجوب فعل ذلك، وأن اليانصيب بحد ذاته هو أشبه بغرفة يجب تهويتها دائماً.

بقي إحساس الجميع غريباً في الأيام التي تلت حصول الأم على المال، فعلى الرغم من ارتياحها الكبير أخذت تظهر عليها ملامح الشيخوخة والهرم أكثر فأكثر، وراحت هي تراها مختلفة كأنما غدت شخصاً آخر أكثر تعقيداً، متحفّظة وغامضة، تشوبها الفضائل والرذائل بصورة عابرة، معلقةٌ في الزمان كأنها تقف على غصنٍ آيلٍ إلى السقوط، لكنه في نفس الوقت يبرعم ويزداد اخضراراً.

فقدت الأم لحظيّاً تركيزها في الأيام الأخيرة هذه عدة مرات، ففي ثلاث مناسبات مثلاً أجابت بشكل غريب وغير مترابط على ما يطرح حولها من أحاديث. سألتها مثلاً عندما خرجتا من باب إدارة اليانصيب عندما ذهبتا لتقاضي الجائزة ما إذا كانت سعيدة فأجابت الأم:

«قولي لي أي شيء ذا أهمية، حول ما يمكنني فعله».

«بالمال؟».

«ليس بالمال!! إنما عني أنا، أنتِ لا تقولين لي أي شيء، عما يمكنني فعله... فقط تقفين وتنظرين إليّ».

خرجت كلماتها هذه من فمها بصيغة غير مفهومة، وبدت كشاب يمازح صاحبه.

وعندما عادتا وشاهدتا أنيتا عاد سلوك أمها الغريب هذا ليطفو على السطح من جديد:

«لماذا يقول الناس أنكِ ذكيّة، ولا يقولون ذات الشيء عني؟».

«ما الذي تقولينه يا أمي؟».

«أنا أيضاً أستطيع التفكير مثلك تماماً».

لم تستغرب أنيتا البتة من الحديث الدائر، واكتفت بمساعدتها على دخول المنزل.

مكثت هي مع أمها ومع أنيتا ساعة إضافيّة، حيث إنها لم تستطع المغادرة، ساعدت أنيتا في إفراغ حقائب الأم، ثم أعدتا معاً عشاءً مبكّراً. حلَّ الليل فجأة دون انتقالٍ واضح بينه وبين المساء، خيمت الظلمة في المنزل على حين غرّة تاركةً إيّاه كمكتبٍ مهجور، أحسوا فجأة بأنهم خفافيش وأن الظلمة قد حلت قبل نصف ساعة دون أن ينتبهوا، جلست هي في الممر الذي يفصل الصالون عن غرفة أمها، وأشعلت سيجارة لتدخنها قبل أن ترحل، جلست وهي تتوق إلى أن تتملكها أفكارٌ معينة، لكن الشيء الوحيد الذي جال في خلدها كانت تلك الذكرى البليدة عن سنين أمضتها في هذا البيت الذي لم تشعر قط – حتّى في طفولتها – أنّه كان منزلها فعلاً. على الرغم من أنه في الواقع لم تعرف بيتاً آخر غيره. تفكر بعمق وهي تسأل نفسها: «متى رحلت عن هذا المكان؟».

ثم تفكّر بأمها دون عتاب أو ملامة: كانت أمّاً مخيفة، ذكيّة لكنّها غير حصيفة، تخبر الجميع رأيها بهم بوقاحة، لم تكن لطيفة أو حساسة، عملت بجدّ ودقّة عندما كان الأمر لازماً وضروريّاً، ثم لم تلبث أن سجنت نفسها في حياةٍ مريحة ووحيدة.

ربّما تحب الوحدة بطبعها، أو ربّما أن الأمر أبسط من ذلك لدرجة يصعب تخمينها الآن. لطالما تمنّت لو أن أمها تجد شخصاً ما تتزوجه، لكن الذكرى هذه بعينها بدت كإحساسٍ غريب وهي تجلس في العتمة. دخلت أنيتا فجأة وهي تحمل بعض الشراشف النظيفة لتضعها على سرير الوالدة، فأصيبت بالذعر وسقطت الشراشف من يدها فانحنت لتلتقطها وهي تعلّق بابتسامة متوتّرة:

«لقد أفزعتني!».

«اعذريني أنيتا، فقد انغمست في أفكاري».

«نعم، إنّها أفكار النساء» علقت أنيتا كرجلٍ حكيم.

دخلت لتساعدها في ترتيب السرير وسألتها في غضون ذلك عن العطلة، وحدثتها أنيتا عن العطلة التي أمضتها مع مانولو في المنزل، وكيف أن هذا الأخير أكثر في الشرب، وأنّها رأت ابنها لوليتو عبر السكايب، وشعرت بالحزن؛ لأنه يكبر بسرعة بعيداً عنها.

أعجبتها الطريقة التي تشير بها أنيتا إلى حياتها الشخصية، أسلوبها بسيط ومقتضب ومخلص في سرد الأحداث. في بعض الأحيان تجد تقاطعات مهمة معها سيما مع ذكريات مراهقتها هي، يتمثّل في تدفّق الوقائع...

ترتّب أنيتا سرير الأم، فتتذكر هي نفسها في نفس الموقع عندما كانت بعمرها، ويعمر قلبها باللّوم على أمها عندما تراقب جسد أنيتا الفتي، تتذكّر رائحة أمها في ذلك الوقت وملابسها ونهديها.

«هل حقّاً ربحت أمك خمسين ألف يورو في اليانصيب؟».

«نعم، إنّها الحقيقة».

«إنه مبلغٌ ضخم».

«هيّا قولي لي أنيتا، ما الذي كنتِ لتفعلينه لو ربحتِ مبلغاً كهذا؟».

بدا السؤال كلعبة مسلية.

«أعود إلى بلدي».

عندما ودعتهما قبّلت أنيتا للمرّة الأولى، اقتربت من أمها الجالسة على الأريكة تقرأ روايتها انحنت وأعطتها قبلة. لاح المشهد كالكذبة لوهلة: رقة أنيتا من جهة، وجلوس أمها الكسول بالإضافة إلى المنزل بأكمله. بدا كل شيء كأنه يمثل شبحاً ينذر بالموت.

ربما قبّلت أنيتا لأنها أحست بالذنب، فهي تترك هذه الصبية هناك وحيدة وهذا ما يدفعها إلى الندم.

«لديكِ رقم هاتفي، يمكنكِ الاتصال بي إذا احتجت أي شيء اتفقنا؟».

قالتها بشيء من الخجل وهي تستدير لترحل، أجابتها كلّ من أنيتا وأمها في الوقت نفسه:

«أجل».

جاءتها الهجمة الأولى، ثم جاءت الثانية بعدها على الفور. اتصلت بها أنيتا بصوت مخنوق وحزين، وقفت في البدء تراقب أولادها وهم يلعبون في غرفة الجلوس، ولما خرجت إلى الشارع أحست أن أصوات السيارات والشاحنات في المدينة وأن حوارات الناس من حولها، أن كل هذا كان أشبه بدويٍّ اندلاع الحروب.

كلمة (هجمة) في عينها توحي باندلاع الحرب، كررتها أنيتا ثلاث مرات في مكالمة واحدة: «لقد جاءتها هجمة قوية، إنها تنتفض كما لو أن أحداً يقصفها بالمدافع».

ثم الحوار مع بابلو: «ابقَ أنت مع الأولاد، سأذهب أنا إلى المستشفى، سأتصل بك لاحقاً، اتصل براكيل» لم يكن لديها أي إحساسٍ بالأمان، بدأت مشاعر جديدة تصيبها وكانت تلك المشاعر باردة وحربية.

خرجت إلى الشارع فاكتشفت أن ثمة عالمين متوازيين: عالم الذين يبقون داخلاً، وعالم الذين يخرجون.

هي من الذين يخرجون، لكنها رغم ذلك لا تعرف في الواقع إلى أين، أو إلى أي غرض.

حتّى شارع منزلها بدا خالياً من أي معلمٍ تستطيع تمييزه، تجرّأت فقط على التفكير في أمر واحد، هو أنها محظوظة فكل هذا يحدث نهار السبت، أي في عطلتها، ويدع لها بالتالي الفرصة لتكون حاضرة في غضون لحظات.

استقلَّت سيارة الأجرة وبدأت صور عاطفية لأمها تعبُر ذهنها، أحست أن هذه الصور هي ذخيرتها التي لا تملكها، فكّرت بالاتصال براكيل، ثم تراجعت عن ذلك. دخلت المستشفى وهي تشعر بالضيق، كل حركة أو كلمة أو سؤال يعبّر عن حياة كاملة. عن جهد يترتّب عليها أن تبذله لكي تدرك الأحداث. وهي لا تبذله.

دخلت الغرفة فوجدت أمّها نصف مستفيقة وإلى جانبها أنيتا، كانت قد فقدت الكثير من الوزن، وترهّل جلدها فأصبح كسائل أصفر اللون. أمّا هي فلم تشعر إلّا بغياب الشعور لديها، حالة الفقد هذه كانت أقرب إلى جزمٍ يسمح لها بالمضي قدماً في الغوص بعالمها الداخلي، ويعطيها الفرصة للابتعاد عن الوجود. اقتربت أنيتا منها وعانقتها وهي ترتجف، كان عناقاً دون أمل مليئاً بالعظام، لكنه في الوقت نفسه صرخة استنجاد من شخص يريد أن يقترب من أي كائنٍ بشري، دون أن يهمه من يكون هذا الشخص، أو ربّما اكترثت أنيتا حقّاً بهوية الشخص الذي تعانق.

«أكره كل هذا» علّقت أمها بثقل وهي تحت تأثير المخدّر.

أجابت أمّها وهي تدرك تماماً أنها فعلاً تكره كل هذا.

«دعيها وشأنها، ودعيني أنا أيضاً وشأني».

شَكَرَت أنيتا على كل ما فعلته، ثم أمسكت يد أمّها وهي تشبك أصابع يدها بأصابع والدتها الباردة والساكنة وعلّقت أخيراً بجملة عبثية:

«إنّني هنا الآن».

تغلي أعصاب والدتها، وترتجف جفون عينيها مظهرةً هاتين العينين اللتين تشبهان أفواهاً موصولة إحداها بالأخرى، جلستا هي وأنيتا لساعتين إضافيتين معها، تحاول الأم النوم فتغفو ثم سرعان ما تستفيق من جديد وهي هناك صاحية تجلس بالقرب منها، الفارق بينهما لا يعدو كونه اختلافاً طفيفاً في نوعية اللحم الذي يغطيهما.

يقول الطبيب أنّها نجت بأعجوبة؛ لأنه وفي هذه السّن عادةً ما تكون هذه الهجمات قاتلة. تنظر إلى شعر الطبيب المبيض وهو يقول جملته وينسحب بمخيلة فقيرة وبحرفية معظم الأطباء غير المبالية، فيخيّل لها أن الغباء ربّما يكون سمةً أصيلة في مهنة الطبّ لا يمكن تفاديها، غباء ضروري ليحميهم مثلاً، لكنّ المرونة في تحركاته تشعرها بالغيظ، ويدفعها إلى الدهشة أكثر من المعجزة التي أبقت على حياة أمّها. سرعان ما تغفر له، لكن دون رحمة وتقول في نفسها: «ينبغي على هذا الرجل الخروج من هذا المبنى، عليه أن يجلس على المائدة ويتناول طعامه بشهوة، أو أن يمارس الحب مع زوجته، من المحتّم أنّه يدفع القروض للبنك... لابدّ وأن راتبه رديءٌ ولا يكفيه» جميع هذه المعطيات لم تنفع في تغيير سلوكها تجاهه، يعلّق الطبيب من جديد:

«اطلعت على تاريخ والدتك الطبي، عانت أمّك من اضطراب في دقات القلب ومن بضع عوارض قلبية أخرى في العام الماضي».

«إنك تشعرني بالقرف».

«عذراً».

«لقد سمعتَ جيّداً ما قلت».

لم تفهم نهائيّاً عدائيّتها هذه، فهي لم تكن قط عنيفة هكذا، تكتشف في شخصيّتها مناطق لم تخبرها من قبل ولا حتّى شكّت بإمكانيّة وجودها. يسير الطبيب مبتعداً دون أن ينبس ببنت شفة، وتقف هي بفرحٍ تعيس ناجمٍ عن هذا الخدش الذي سببته لهذا الهيكل الأبيض الناصع.

تتذكر وتنسى وجود أنيتا بشكل متقطّع، ثم تفهم أنها بحاجة ماسّة لوجودها معها، كرغبةٍ ظلاميّة بامتلاكها كونها تدفع لها ثمن ساعات العمل، يدفعها هذا التفكير إلى الخجل.

أمّا تجاه أمّها فينتابها شعورٌ غامض، مرتعش ومتردد، تستذكر عقليّتها وإرادتها وضغينتها، ولعها بالمراوح الهوائية والأقمشة، كبرياءها المهزوم، تاريخها الهزيل، كل هذه السنين التي أمضتها جالسة على الأريكة في الصالون تشاهد التلفاز، علاقاتها الغريبة مع الآخرين، أسرارها وتعلّقها بالحياة، وعدم قدرتها على تحمّل عواقب تصرفاتها. إنّها كأي امرأة أخرى، لكن هذا لا يغيِّر في الأمر الكثير، إنّما يجعل منه مركّزاً إلى حدّ مؤلم.

عندما حل المساء أخبرت أنيتا أن بإمكانها المغادرة، رافقتها إلى بوابة المستشفى، ولمّا خرجتا من المصعد فوجئت من ظلمة المدينة لكن وجود أنيتا هناك أشعرها بشيء من الطمأنينة الحذرة، كاد هذا يدفعها إلى الابتسام تقريباً، فهو جديد كليّاً. علّقت وهي تخاطب نفسها في الواقع:

«سأتصل بك حين أحتاجك، اذهبي أنتِ إلى البيت ولا تقلقي فنحن سندفع لك كل هذه الأيام القادمة».

«لا يهم إن كنتم ستدفعون لي» أجابت أنيتا وهي تمد لها يدها في خطوة غير

متوقّعة، أمسكت هي بيد أنيتا النحيلة والمليئة بالعظام كأنها يد حيوان أليف لم ينبت الشعر فيها بعد، شعرت باختناق حزين في حلقها.

«سندفع لك بكل الأحوال، لا يهم».

بدا الأمر وكأن أنيتا لا ترغب فعليّاً بالرحيل.

«ماذا سأفعل الآن؟» سألت بجدية.

«اذهبي إلى البيت، تحدّثي إلى خطيبك، خذي حمّاماً ساخناً، مارسي الحب معه!».

ابتسمت أنيتا من جراء اقتراحاتها واحمرّت وجنتاها خجلاً، ثم أجابت: «حسناً».

راودتها رغبة في أن تعانقها في تلك اللحظة، ثم عادت إلى غرفة والدتها وهي تتصل ببابلو: «إنني أحتاج إلى وجودك معي هنا، هل يمكنك القدوم في الحال؟».

وصلت راكيل بعد ذلك بيوم، كانت سمراء على نحو لا يمكن تصديقه، ومعها دونوفان الذي لم يستطع إخفاء استيائه من أنهم قطعوا عليه إجازته. توجّهت راكيل إلى المستشفى على الفور، بدت كعضوة في فريق إغاثة طبية أكثر من كونها ابنة أو ما شابه، سرعتها كانت توحي بأن حياة أمّها متعلقة بها وبلهفتها. ثم انفجرت بالبكاء ما إن ألقت النظرة الأولى على أمّها، بينما بقي دونوفان واقفاً على مسافة منها وألقى التحية، لم تكن برودته الإنكليزية لتجدي نفعاً أمام برودة الأم التي لا تقهر الآن.

كانت الليلة التي أمضتها مع والدتها في المستشفى، ثم اليوم الثاني هذا الذي جاءت راكيل فيه، متعبين إلى حدّ لا يمكن وصفه، فقد أمضت ساعاتٍ طويلة من الوقت تراقب الوالدة بالعتمة وهي تحاول دون جدوى أن تنعم بغفوة أو قيلولة. كان الأمر أشبه بالدخول في غابة من الظلال والبقع المضاءة، أو

كالتجسس على منزل من شباك ما، ورؤية ساكنيه غير القادرين على الجلوس أو الاستلقاء بوضعيّة طبيعية. وبعد فترة من الزمن تركزت أفكارها في تأمل سائر الأشياء والأغراض التي تحيط بأمّها: جهاز رسم دقّات القلب، قارورة السيروم الذي يغذيها، القضبان المعدنية التي تحمل السرير وترفعه، الكراسي البيضاء، والأريكة الصغيرة بالقرب من الطاولة التي أخبروها أنها قابلة للفتح، لكنها كانت معطلة.

كانت تتبّع وتتأمل أشكال هذه الأغراض كأنها في حكاية للأطفال تصف قصراً ما، تتنفس الأم بصعوبة وثقل، حيث إنها خلال هذه الليلة الطويلة تجرأت على لمسها مرّة أو مرتين فقط. تحدثتا سوية بشكل مقتضب جداً في مناسبة واحدة، وكان الموضوع سخيفاً: رحلة راكيل الجوية، عن أنيتا وما إذا كانت قد رحلت، عن الفطور في الصباح، وفي الرابعة صباحاً سألتها حول الجائزة، جائزة اليانصيب «هل تقاضينا الجائزة؟».

«نعم لقد تقاضيناها، ألا تذكرين؟».

«بالطبع أذكر».

«ولم تسألين إذاً؟».

لم تخاطبها بتوتر أو بقلة صبر، وهذا ما بدا غريباً، غياب الأحاسيس هذا لابدّ منه، إنّه موضوعي تماماً كجهاز تخطيط القلب، أو المقعد الأبيض، وفي الواقع لم يكن غياباً في الإحساس، بل شيئاً أغرب: ربما كان صبراً. صبرٌ رقيق وحميد، كصبر أحدٍ وهو ينتظر دون ضغينة قدوم الشخص الآخر.

«لقد سألتك لأعرف إن كنتِ ستقولين الحقيقة».

«وما الذي سيدفعني للكذب؟».

«طمعك في الحصول على المال».

أصابها الجزع لوهلة، ثم تمنَّت أن تصبح قاسية، وانتقلت بها الأمور من

الصبر نحو الهيجان، كما لو أنها تعبر نفقاً طويلاً ذا ماءٍ بارد طوراً وساخن تارةً أخرىٰ.

«لن آخذ نقودك، كوني مطمئنة، اعطه لمن شئتِ، لراكيل مثلاً. أو احرقيه في بيتك، ورقة بعد أخرىٰ حتّىٰ ينفذ»

«أنتِ لا تحبينني!» علقت الأم ولا يبدو أنها سمعت الجواب، كان جواباً غريباً حتّىٰ عليها ولم تعرف كيف خرج من فمها، لكنها احتاجت أن تفصح به علىٰ الملأ:

«أنا لا أعرف إن كنت أحبك أم لا».

ثم شعرت علىٰ الفور بوجوب تمثيل العرض المسرحي في أن تنحني نحوها وتبدأ بالبكاء وهي تخاطبها معانقة إياها ومردّدة طوال ساعات: «إنّي أحبك، هذه هي الحقيقة... هل تحبينني أنتِ؟».

لكنّها في الحقيقة أمضت ما تبقّىٰ من الليل غارقة في التفكير في جوابها الذي بقي معلّقاً في الهواء، تذكّرت حادثة قديمة: كان عمرها ستّ سنوات، تقف إلىٰ جانب أمّها المنهمكة بالنظر في المرآة تجهّز نفسها للخروج، هي جالسة علىٰ السرير وأمها واقفة قابلة المرآة الكبيرة المعلقة علىٰ خزانتها، تصفف شعرها بطاقة مفعمة، ثم تسدد ضربات خفيفة إلىٰ شعرها بالمشط لتثبيته. إنّها لم تكن قط لتتخيل التشابه بين أمها هذه وبين راكيل التي وصلت لتوّها من الأرجنتين، كانتا متطابقتين.

استغل دونوفن هذه الأيام ليتجول في مدريد ويتعرف إلىٰ المدينة، وأمضت هي مع راكيل معظم الوقت في رعاية الوالدة في المستشفىٰ، تحسن وضعها شيئاً فشيئاً، أمّا الطبيب الذي أساءت له في اليوم الأول، فقد تبادل الود والتلاطف مع راكيل، ربما فقط لكي يعاقبها. وبدا متفائلاً ويوغل في التفاؤل، علىٰ الأقل ساد جوٌّ من الإيجابية في المكان.

«إنها مسنة، لكن وفي الحقيقة لا أحد منا يعرف ما الذي يمكن أن يحدث» قال الطبيب.

من وقت لآخر تهبط هي وراكيل إلى المقهى المجاور للمستشفى، أو للتنزه في الحديقة القريبة، يتحدّثون عن أمهم طوال الوقت تقريباً، عما إذا كانت بحالة جيدة أم لا.

تهيمن الإيجابية والإفراط في التفاؤل على خطاب راكيل، فهي تفكر في الأماكن التي ستصطحب أمها إليها عندما تُشفى في الصيف، لكي تستجمَّ أكثر. لم تعرف هي إذا كانت راكيل تصدق فعلاً هذا الكلام، فقد كانت متوترة وحزينة وظنت أن أختها أيضاً كذلك وهي تحاول الترويح عنهما.

اعترفت لها راكيل في إحدى هذه النزه بأن لديها عشيقاً سريّاً:

«لست ودونوفان بأحسن أحوالنا في الفترة الأخيرة».

«آسف لذلك».

«ليس عليك أن تأسفي» علقت راكيل مبتسمة، ثم أضافت: «إنني سعيدة».

«حقّاً؟»

كل هذا بدا غريباً بدوره، ثقة راكيل هذه التي تمنحها إليها من غير مبرر، فكرت على الفور بأنيتا، وتساءلت عما إذا كان لديها هي الأخرى عشيقاً. رأسها مليء بازدحام الأفكار التي تعبره، لم تفكّر هي في أن يكون لها عشيقٌ قط. تذكّرت في أنها في إحدى أسفار العمل قبّلت رجلاً، علاوة على أنها رافقته حتّى بيته، لكنها عندما جلست معه وحدهما تراجعت على الفور وبدا لها الأمر سخيفاً جداً، ثم رحلت مسرعة. إنها تفهم جيّداً أن على الناس أن تقع في الحب، لكنها في معظم الأحيان التي يخبرونها فيها قصصاً من هذا النوع تشعر أنها محاطة بالأطفال الذين عليها جرهم من يدهم وتوبيخهم وإفهامهم أن هذ الشيء ليس لهم ولا يتوجب عليهم لمسه.

«نعم إني سعيدة، أنه إسباني يعيش في لندن، هو متزوج أيضاً... معقّدة هي الحياة أليس كذلك؟».

بدت راكيل في غاية النشوة من كل هذا التعقيد، الطريقة التي تتحدث وتحيا بها تنم عن حكمة معينة، وحلول لكل شيء، إنّها عبثية لا تملكها هي. أجابتها دون أن تعرف السبب:

«أنا فرحة جداً لأجلك».

في الحقيقة أن خوفاً غريباً ومشوشاً انتابها، ولم يشفه فيما بعد وجود بابلو إلى جانبها، خوفٌ يشبه ألماً جسديّاً محدقاً دون هوادة.

لم يكن بابلو على علاقة جيّدة بأمها طوال حياتها، وعلى الرغم من ذلك كان لطيفاً جداً معها، يزورها الآن في المستشفى ويطمئنّ على حالها، لكنه ليس الشخص الذي يمكن أن تحدّثه بطبيعية عن الموضوع، راكيل من جهة أخرى تسمع فقط ما تود سماعه، فهي غارقة في تفاؤلها وفي جهلها التام عن حقيقة حياة والدتها وربما في الواقع، جهلها بشخصيتها أيضاً. لم تكونا تثقا ببعضيهما جيداً وبالكاد يمكنهما الحديث وهما تنظران إحداهما بالأخرى. تظن أنها ما إن تبدأ بفتح أي حديثٍ معها عما يقلقها ستفتح راكيل فمها وتمد لسانها كالعادة وهي تردد: «هراء». هي دائماً كذلك.. فلِمَ ستتغير الآن بسبب مرض الأم؟

الاتصال بأنيتا لم يكن قراراً طبيعياً وحسب، إنما شكل الاستجابة الصحيحة لغياب الخيارات.وهذا ما هدَّأ من روعها قليلاً، سيما عندما رأتها في هذين اليومين، حديثها العذب والبريء، ذهبتا إلى وسط المدينة، تمشتا وفي المرتين انتهى بهما الأمر في أحد المقاهي بسبب البرد.تشعر وهي تسير إلى جانبها بجسدها الصغير واللغزي، تقول لها جملاً بسيطة تجيب عليها أنيتا باختصار وجيز.

«هل تعلمين يا أنيتا، إن وضع أمي سيّئ للغاية».

«إنّها مسنّة».

جميع أجوبة أنيتا تسبب لها ابتسامة مجهولة المصدر، فهي وبالنسبة لها كانت تعتبر أن الاستجابة للأسئلة ربما تكون جزءاً من عملها فتجيب بغرابة، وكما هو الحال لدى والدتها، هناك شيء تغير أيضاً في أنيتا، فقد غدت أكثر حذراً تحاول أن تقول أشياء ثم تعدل عن ذلك، تخبرها أحياناً عن أمور شخصية من طفولتها وعن مراهقتها في كولومبيا، تتحدث عن أمها وعن مدينتها، شرحت أيضاً لحظة أخبرت والدتها أنها حامل، وكيف أن أمها حبستها في الغرفة، ثم انهالت عليها بالضرب بحزام جلدي حتى احمرَّ لحمها من شدة اللسع. تروي ما ترويه دون حماسٍ أو رغبة بالانتقام، ودون أي نية في أن تضيف للحدث تشويقاً إضافيّاً. بل تروي بلامبالاة تنم عن قوةٍ غامضة. تستمع هي إليها وتزداد شدة الغرابة التي تشعر بها، تسرح في بالها مكتشفة عالماً آخر، عالمٌ لا تنفع فيه غرائزها الحقيقة مطلقاً، ولا حتّى سخطها من غياب الشرائع العادلة.

قالت في نهاية الجلسة الثانية أخيراً، كانت ترتدي حينها معطفاً أسود رخيصاً وذا قبعة تقي من المطر، وكانت خلال الحديث لا تتوقف عن اللعب بهاتف جوال زهري اللون يبدو أنها اشترته للتو براتبها الأوّل. تبدو تماماً كتلميذة مدرسة، رفعت القبعة عن رأسها وقالت وهي تنظر إليها:

«أنا لا أريد رؤية السيدة وهي تموت!! هل تفهمينني؟ لا أريدها أن تموت أمامي».

بدا التهور والذعر واضحين عليها وهي تقول قولها هذا، ثم سرعان ما استرخت قليلاً واكتسبت جمالاً فجائيّاً ظهر عليها لأول مرة منذ أن تعرفت إليها. أما هي فقد شعرت بالدوار والإعياء على حين غرّة، دون أن تعرف إن كان ما قالته أنيتا هو السبب أم لأنها ببساطة لم تأكل جيداً منذ ثلاثة أيام. يبدو أنها وللمرة الأولى في حياتها تفكّر بواقعية بإمكانية وفاة أمّها. ليس افتراضاً أو

محاولات لتقبُّل الموضوع أو إدانته، إنما واقعية الموت بكل ما تحمله من قسوة وغموض. اختلط البرد عليها بالحر بمرارة ثقيلة.

«لا يتعلق الأمر بحضرتك، فأنتِ تعجبينني كثيراً».

«أنا كنت أودُّ لو أفعل مثلك تماماً» جاء هذا الاعتراف غير متوقع أبداً.

«مثلي أنا؟».

«نعم» أجابتها بشيء من الانكسار، ثم سألتها: «أنتِ تريدين المغادرة صحيح؟» سألتها بنبرة متعاطفة.

«أجل، أنا آسفة».

«ستخرج أمي من، هل يمكنك المكوث معها أسبوعاً واحداً ريثما أجد فتاة أخرىٰ؟».

تأخرت أنيتا قليلاً في الإجابة هذه المرة.

«سأفعل هذا من أجلك أنتِ».

غادرت راكيل في اليوم الثاني مع دونوفان الذي لم يُخف استياءه الدائم، اصطحبهم بابلو إلىٰ المطار، ذرفت أمها الدموع لحظة رحيلهم بضعف غير مسبوق رومق راكيل بنظرات التوسل وكأنها تطلب منها سراً ألّا تتركها وحيدة معها هي. أخذ أولادها يجولون في الغرفة بضجر وإثارة، هي المرة الأولىٰ التي يرون فيها جدتهم في المستشفىٰ. يلعبون حول السرير حتىٰ كادوا يوقعون الأشياء من حولها. أمسكت هي أيديهم بقوة وخرجت بهم إلىٰ الممر وأنبتهم بضربات علىٰ اليدين ما أثار غضب بابلو.

«لم فعلت هذا؟».

«لكي يبقيا عاقلين».

«اهدئي قليلاً من فضلك» طلب منها ذلك منفعلاً، ثم اصطحب الأولاد معه إلىٰ المطار.

دخلت إلى حمام الغرفة لترتب أغراض أمها ونظرت إلى نفسها في المرآة، أوحى لها وجهها بالسذاجة، وتفجرت في أعماقها مشاعر وتخبطات غير مسبوقة ومنهجية: الحب، الرغبة في الحياة، الامتلاك... تلمع هذه الرغبات مع أضدادها: عدم القدرة على الحب، أو على الحياة والتملك. أكملت ترتيب الأشياء بهدوء وعناية أكثرمن اللازم، ثم وصلت بعد ذلك أنيتا لمرافقتهم. عندما رأتها بدت لها أكثر شباباً من قبل، قبلتها قبلت الوالدة، ثم ساعدتها على الوصول إلى سيارة الأجرة. عادت بعد ذلك إلى رؤية ذات الظلمة التي لاحظتها فيها أول مرة في بيت والدتها، وكأن حياة أنيتا بأكملها ليست إلا حادثة، وإن كانت حادثة تستحق خوض غمارها. حركاتها مثلاً توحي بتفوق صحي على نحوٍ مدهش. لم تكن خادمة لأحد، ويصعب التصديق أنها ذاتها الفتاة التي قالت منذ يومين أنها لا تريد للسيدة أن تموت أمامها. تلامس الأم بخفة وطبيعية رائعتين، وترد الأم على هذا اللطف بسلوك ملكة تدخل رواق قصرها.

قالت لها وهي تتركهما:

«سأتصل بك حال عثوري على فتاةٍ جديدة».

«أعتذر عن تلك المرة، لقد قلت أشياء قبيحة فعلاً» أجابت أنيتا بجدية.

«ما قلته ليس بشعاً، لا تقلقي».

«بل كان كذلك» ردت على الفور بشخصية قوية، ثم أكملت: «لقد ندمت لاحقاً، ليس عليك البحث عن فتاة جديدة».

لم تظهر الإثارة حينها على ملامح أنيتا، وكأن كلماتها هذه كانت باباً أغلق بقوة بوجه تلك التي تفوهت بها المرة الماضية منذ أيام. كأن تفاهماً راسخاً قد أبرم بينهما دون كلام، ربما كان حبّاً، لكنه لم يكن كأي حبٍّ عادي، بل أشبه بذاك الذي ينشأ بين الجنود.

«هل فكرت جيداً؟».

«أجل».

مر أسبوعان بسرعة مذهلة، العمل من جديد، وبابلو والأولاد. ملفات الطلاق ملأت سطح مكتبها، خصوصاً بعد مرور احتفالات الميلاد ورأس السنة، غزارة الملفات المتوقعة تحوّلت إلى مزحة تداولها الجميع في مكتب المحاماة التي تعمل فيه. قبل ذلك كان المدير يقول ساخراً: «لابد أن الأزواج الذين سيؤمنون لنا لقمتنا في شهر كانون الثاني يتقاذفون أغراض البيت على رؤوسهم الآن».

تبدأ هي عملها في التاسعة صباحاً، تستقبل الموكلين (معظمهنّ كنّ موكلات)، تطلب إليهم أن يقصوا عليها حكايات جيزاتهم، ودوافع رغباتهم بالانفصال. يجلسون في قاعة جميلة في ركن المكتب، يشربون القهوة ويغلقون الباب، تمسك هي بمسجل صوتي وتنهال على الشخص بلائحة من الأسئلة التي كررتها إلى حد أنها لم تعد مضطرة إلى النظر إلى الورقة لتقرأها. وأخيراً تختار الأسئلة التي تسمح بسردٍ طويلٍ ووافٍ.

ينتابها الشعور بأن لكل واحد من هذه الأسئلة خاصية حبة الإقياء، الموكلات تبكين في الجلسة، بعض الدموع صادقة، مصحوبة بسعال مخنوق كردة فعل جسدية، من شدة الحزن والحرقة تترجمَها بكاءً. لا تجد أفصح من وصفها بعبارة لطالما قالتها لبابلو عندما تحدثه عن عملها: «يحلبن السم فيعتصر من أجسادهن». في أحيان أخرى يكون النحيب مسرحيّاً أو شبه مسرحي، يصعب الفصل بين الحقيقي والمزيف في تلك الغرفة.

يشكون قلة الوفاء، الخيانة والأنانية، وفي بعض المرات عنفاً وإساءات، ومعظمهنّ تعتبرن أنفسهنّ مظلومات وقد أعطين الكثير لمن لا يستأهلون، يتحدثن بقرفٍ واستياء، أو قرفٍ وحزن، منهنّ قليلاتٍ لم يلمن أحداً ويرددن مقولة أن الذنب مشترك ولا يقع على عاتق أحد بحد ذاته. أمّا هي فلم تستطع

التعاطف مع أي منهن قط. عندما تخوض هذه الجلسات تشعر علاوة عن البرود بسمة ساخرة أو بابتعادٍ كبير. قلة الثقة التقليدية السائدة بين النساء في الحديث والمشاعر وخصوصاً في الدموع.

إحدى تلك النساء، ومنذ عامين فاجأتها فعلاً، فهي في اللحظة التي دخلت القاعة فيها سببت لها إحساساً مختلفاً، تسير على مهلٍ وهي أكثر حزناً من أي أحد سبقها إلى هناك، مشوشة ومهمومة وقد طغت على محياها الكآبة. تعبر عن نفسها بشكل جيد جداً ما يدل على أنها امرأة مثقفة، لا يبدو عليها أنها قد عملت في حياتها وهذا ما يعطيها القليل من المظهر الفضائي. أمّ لولدين، أحدهما في السابعة عشر من العمر، والآخر في العشرين. الكبير مدمن على الهروبين، ولهذه العائلة أملاك عقارية بما يعادل حيّاً كاملاً في مدريد. وفي حين كانت توجه لها الأسئلة بصرامة، وتسجل لها الأقول انتبهت إلى الطريقة الفريدة التي تجيب بها؛ بوضوح وجرأة دون أي انفعالات وفي الوقت نفسه بما يسمح بفهم المشاعر التي تنتابها في كل حركة مدروسة تقوم بها. كانت بلا شك جميلة في صباها، طبيعية وواثقة من نفسها، وفي نهاية الحديث لم تستطع تفادي توجيه سؤال إضافي حول المكمن الخطأ.

«عن أي خطأ تتحدثين؟» سألت المرأة.

«عن خطئك أنتِ» ثم أضافت: «أو ليس خطأك أنتِ، إنما خطؤنا نحن النساء».

«أنا لا أعرف ما قد ترتكبه باقي النساء من أخطاء، أنا فقط أعرف الخطأ الذي ارتكبته بنفسي... وربما في نهاية المطاف هو ليس خطئي».

«وما هو؟».

«أعتقد أني عشت حياتي دون مكر، هل تفهمين؟».

«لا».

أخذت السيدة تشرح أكثر:

«حياتي مليئة بالخيال، لست امرأة غبية، جنبني امتلاك المال مصاعب كثيرة ولكنه في الوقت عينه فرض عليّ مصاعب أخرى لا يدركها معظم الناس، كان لي زوجٌ وولدان أحدهما هش للغاية، لطالما اعتقدت أن على إحدانا عدم مواجهة المشاكل المحدقة بعنفٍ فتكسر نفسها، بل عليها بالصبر، ثم تأتي اللحظة التي تزول فيها الشدائد وتهدأ الأنفس، لكني أيضاً كنت أعرف أن الصلابة ضرورية في هذه الحياة وفقاً لخبرتي، وأن على المرء أن يكون شديداً في بعض المواقف، لكنّي نسيت أمر شيءٍ لم أكن قط عليه، إنني لم أكن امرأةً ماكرة! مرّت الأيام السيئة وأخذت تزداد سوءاً دون أن أستطيع احتراف المكر، ليس هذا فقط، إنما اكتشفت أن المكر غير موجودٍ في طبيعتي لذلك فإني لا أعرف إن كان باستطاعتي الصمود أكثر. هل تفهمنيني الآن؟».

تنتهي ذكرى الحوار هنا، مع تعابير وجه السيدة شبه المبتسمة، ومع إحساسٍ بأن جسدها أصبح أكبر وأكثر أناقة من ذي قبل، راودتها هذه الذكرى عدة مرات بإلحاح طوال أسابيع. وأما أمّها، فهي توقفت تقريباً عن الحديث، قالت ذلك أنيتا في عدة اتصالات هاتفية، ثم تحققت هي بنفسها من الأمر في الزيارات المسائية التي تقوم بها لبيت والدتها بعد خروجها من عملها. تدخل إلى الصالون وتجدها كعادتها مستلقية على الأريكة في غرفة الجلوس تتلفح ذات الغطاء الأسكتلندي، تسألها عن حالها، فتجيب أنيتا عوضاً عنها:

«السيدة هادئة اليوم، أمضت طوال الوقت مستلقية هنا، أكلت جيداً؛ فاصوليا خضراء والقليل من اللبن». ثمة ما هو متجمّد في نظرة الأم، بدا الأمر لها أشبه بميزان حرارة يقيس ردات فعل الوالدة. الغريب أيضاً هو وضع أنيتا فهي متأهبة أكثر من أي وقت مضى، على الرغم من أن المهام اليوم أقل بكثير من ذي قبل، تتجنب المكوث معها وحيدتين وتتحرك من مكان إلى آخر بشكل

مستمر تنظف هنا وترتب هناك، ثم تنطلق لتحضير العشاء، تجلب كأساً من الحليب للسيدة، تنتظرها حتّى تشربه لتعيده إلى المطبخ من جديد، لغة جسدها توحي بأنها مركزة بأشياء أخرى كليّاً. يبدو أنها تلوذ بالفرار من الأم على طريقتها عبر الإفراط بالنشاط، أحست لبرهة أنها تعاقبها لها لا لأمها. في الواقع أن كل هذا منطقي على نحو عنيف: وضع والدتها، استعداد أنيتا وجوّها هي هناك، في البيت الذي أمضت فيه سنوات طويلة.

تعود إلى البيت لاحقاً، ويتردد صدى زياراتها لأمها وأنيتا في رأسها حتى تغمض عينيها، أو يتبدَّد الصدى عندما تمارس الحب مع بابلو. ينتابها شعور طفيف بأنها يتيمة، أو أنها في الحقيقة ليست ابنة أمها أو ابنة أي كان، مشاعر الحب مع بابلو ترتبط بهذه الاختلاجات، ثم سرعان ما يتفكك كل شيء. يراودها إحساس بالابتعاد عن أبنائها يسبب لها الخجل، كأن حدث ضربها لهم في المستشفى سيترك ندبة فيها إلى الأبد ترافق ضميرها وعينيها الذكيتين الآخذتين بالبرود. تمنت طوال الوقت لمسهم، وأن يلمسوها هم أيضاً، أو أن يقوم بابلو بذلك، أو أنيتا نفسها، اختلط الأمر عليها لكنّه كان أصيلاً.

حياة أمها في الأيام الأخيرة لم يكن فيها ما هو مميز، لم تكن ممن يبحثون عن الإشارات المخفية، فلم تفعل ذلك. اتصلت أنيتا أكثر من المعتاد، وفي مرة من المرات في إحدى زياراتها لهم هبطت مع أنيتا للتسوق وتحدثتا لوقتٍ لا بأس به، خرجتا من المتجر واقترحت على أنيتا أن تتناولا شيئاً قبل الصعود إلى البيت، وافقت أنيتا، وأخبرتها أن الأم مشوشة وتشتكي من ألمٍ في الرأس.

«لا أعرف كيف سأشكرك على كل ما تفعلينه».

«ماذا تقصدين؟» سألت أنيتا.

«هذا، كل هذا...أنك بقيتِ معنا».

«لا عليك، إن مانولو رحل بكل الأحوال».

«مانولو خطيبك؟».

«نعم».

«ماذا حدث؟».

الأمر ببساطة هو أن مانولو قد تعرف إلى فتاة أخرى وتبخّر، لم تشك أنيتا نهائياً في الأمر، ولم تكن حزينة كذلك. في الحقيقة هي لم تعرف كيف أحست، هل كانت جيدة أم لا؟ هي لم تخبر والدتها في كولومبيا، الاثنتين لم تكونا تتفاهمان كثيراً، كل هذا لم يكن ليحدث لو إنها لم تبقَ للاعتناء بالوالدة. لأنّ الرجال لا يتركون هكذا لوقت طويل بمفردهم، فهم لا يستطيعون تفادي حدوث هذه الأشياء. تتحدث أنيتا بصعوبة لكنها لا تحمل أي نية للانتقام، تشعر بثقة مهزوزة بالنفس، لكن عنفوانها الصلب يطغى على المشهد. إنها وحيدة بنفس الطريقة التي كانت فيها بصحبة أحدهم من قبل. لكنها بحاجة ماسة إلى المساندة الآن، وكأنها مشت حافية الأرجل طوال حياتها حتّى وصلت إلى هذا المقهى، ولما وصلت، استدارت بعد أن اكتشفت أن الجميع هناك حافيو الأرجل مثلها.

لقد عاشت حياتها دون مكر، وهي الآن تعتني بامرأة مسنة، قد تموت في أي لحظة، حتّى هذا الأمر لا يفزعها الآن. لم تعد في التاسعة عشرة من عمرها بعد كل هذا، عمرها يفوق تصور الزمان بأسره. إنها كصخرة صغيرة تحاول تسلق جبل شاهق العلو.

الأيام التي سبقت وفاة الوالدة حملت معها تشويش من مستوى جديد، تدور الأفكار في رأسها متعبة، لم تفكّر حتّى بأمها، إنما بصورة مختلفة عنها، ربما بوحد أمها وهي تمضي الوقت مع فتاةٍ كأنيتا، بدأت تشعر بالتعاطف معها، أو مع الاثنتين بالأحرى.

حدث في الساعة الثانية والنصف ليلاً، وكان اليوم يوم ثلاثاء، في أول يوم

من شهر شباط، البرد قارس تذكرت أنها قالت لبابلو الكلمات ذاتها التي أخبرتها أنيتا بها على الهاتف:

«لقد تعرضت لهجمة جديدة، إنها ميتة».

تذكر شدة البرد الممزوج بالنعاس حين استقلت سيارة الأجرة، اتصلت براكيل عدة مرات حتى استفاقت، خرج صوتها أشبه بطنين المعادن وبدت القوة عليها فجأة:

«لقد توفيت ماما، تعرضت لهجمة جديدة».

«هل أنت معها الآن؟».

«لا، أنا في طريقي إليها، الفتاة اتصلت».

هي لم تستخدم قط مصطلح (الفتاة) للإشارة إلى أنيتا، ربما فعلت ذلك الآن بدافع الخجل، وليس بسبب البعد بينهما. كأنها تريد التغطية على أحدهم بدافع الحب. أحست أيضاً وللمرة الأولى بالشفقة على راكيل، تخيلتها حزينة بصحبة دونوفان، أو بصحبة عشيقها ربما، ليس مهمّاً، لكنها الآن تنهض من فراشها بثقل، امرأة في أواسط عمرها، فقدت جمالها وهي تدرك ذلك، لكنها تتصرف بشكل يتجاهل هذه الحقائق وتحاول الاحتيال عليها.

«سآتي في الطيارة الأولى، لا تحركيها من البيت، لا أريد رؤيتها في برادات المشافي، أتسمعين؟».

«نعم»

لا تذكر أنها أعارت أنيتا أي اهتمام لدى وصولها، لم تنظر إليها حتّى، ولم تستغرب وجودها بالانتظار في الشارع. وجدت أمها مستلقية في سريرها، بشكلٍ مائل كأنها قد أطفأت المنبه ثم عادت للنوم. بعينٍ مفتوحة وأخرى مغلقة، أغمضت لها العين المفتوحة بإصبعها والقشعريرة الباردة تعبر جسدها. بضع قطرات من العرق تصببت من تحت الشعر في نقرة الأم وفكرت بخشونة شعر

أمها التي لم تكن تلحظها من قبل. هل كان شعرها هكذا دائماً؟ تتذكر أنها أحست أن شيئاً ما لا زال حيّاً داخل جسدها، ربما يكون نبض صلابتها. وأيضاً قدميها اللتين لا زالتا معلقتين بالشراشف، حيث تفوح رائحة طفولية، وجهها يحمل تعابير تدل على أنها لم تتعذب في اللحظات الأخيرة، يوحي المشهد أنها توقفت فجأة عن التنفس، أو كأن شيئاً ما دهسها فوق الفراش، صُدمت عندما كانت تسند والدتها بأن جسدها تحول إلى كتلة من العظام الثقيلة والقاسية، أعادت سندها إلى السرير، ثم خرجت من الغرفة.

راودها الخوف من الظلام ومن جسد أمها، ومن رائحته، ومن الضوء الأصفر الموضوع بالقرب من سريرها. خرجت من هناك وهي تدرك أنها لن تعود بمفردها مهما جرى، إنها تحتاج إلى وجود راكيل معها. عندما خرجت اكتشفت أن أنيتا تقف على العتبة وتراقب كل شيء.وجه الوالدة لا زال أليفاً كما هو، أما وجه أنيتا فقد تبدل بالكامل كانت قد مرّت بلحظات من الذعر الفظيع، أضحى وجهها صغيراً وأكثر قساوة، كل شيء فيها أصبح مختصراً ومدفوناً في داخلها.

«اشرحي لي ما جرى».

بدأت أنيتا تجهش بالبكاء، اقتربت منها هي ووضعت يدها على كتفها الصغير الذي يتحرك مع تنهداتها: «لا عليك»، ثم تفكر في نفسها عما يمكن أن يحدث الآن، لا شيء. فقد حدث كل شيء.

عانقتها أنيتا، وكانت رائحة اللحم تفوح منها، لكن شيئاً ما بدد حبها تجاه أنيتا على شكل برودٍ منطقي.

«احكي لي ما جرى».

ندهت السيدة لها في منتصف الليل، وأخبرتها أنها ليست على ما يرام. وشعرت هي بالخوف، طلبت منها الاقتراب وأمسكتها من يدها، فأفلتت أنيتا

منها وهربت بعيداً. ولمّا عادت كانت السيدة ميّتة، لم تكن تتنفس، فخرجت راكضة إلى الشارع واتصلت بها. روت كل شيء بارتجاف في البداية، ثم تبنَّت نبرةً جدية وسألت إذا كان باستطاعتها المغادرة الآن.

«وإلى أين ستذهبين؟».

«لا أدري، إلى أي مكان».

«لا، ستبقين معي».

لم يكن طلباً، ولا رجاءً، بل أمراً. أمن أجل هذا تدفع النقود لها إذاً؟ شعورها بدا أشبه برجل يطلب من مومس البقاء في بيته للممارسة الحب. جلستا في المطبخ وحضرت أنيتا قهوة بطفولية مفرطة، وببلادةٍ مترفعة. أثارت الطبيعية التي تتحرك أنيتا بها في مطبخ الوالدة حماستها، فهي عاجزة عن أن تجد ملعقة في هذا المطبخ. ماذا ستفعل الآن بكل هذه الأشياء. هناك ما هو لغزي وغامض عندما تتذكر الساعات الأربع التي أمضتها مع أنيتا هناك ليلتها.

لا تتذكر أنهما تحدثتا كثيراً، لكنهما لم تنفصلا حتّى لثانية واحدة، وأنهما كانتا خائفتين. هي لم تستطع التفكير بصفاء، واستمرت أنيتا بالتنهد دون دافع معين. سألتها عن خططها المستقبلية وأجابت أنيتا أنها ستبحث عن منزل آخر. فعلتا أيضاً أشياء أكثر عملية، سجلت لها في الأجندة عنوانها ورقم حسابها المصرفي لكي تدفع لها راتبها، كون الأم هي التي كانت تدفع في السابق عن طريق شيكات تحررها لها. تأتيها بين الفينة والأخرى ومضات فتتذكر أن والدتها ميتة في الغرفة فتأتيها أفكار عبثية، بأن لا ضرورة لأن يكون الضوء مفتوحاً هناك مثلاً. طلبت منها أنيتا الانصراف لتوضيب حقيبتها فعرضت عليها هي المساعدة. هي المرة الأولى التي تفكر أن أنيتا طوال هذه الشهور قد عاشت في غرفتها، وكذلك فعلت سائر الفتيات من قبلها، لابد أنها لم تهتم كثيراً بالأمر؛ لأنها حتّى عندما قطنت هذه الغرفة لم تشعر يوماً بأنها لها.

تساعد أنيتا الآن، بوجود أمها المتوفّاة في المنزل، وتسيطر عليها ذكريات حياتها هناك، مراهقتها الحبيسة بين جدرانه، وكيف أنها بعد أن كبرت هجرت المنزل بالنفس ذاته الذي تفعل به أنيتا ذلك الآن. يلفت نظرها ترتيب حقيبة أنيتا المقتضب: ثلاثة قمصان، كنزتين شتويتين، أربعة غيارات داخلية، وبضع كلسات. ثم ست روايات، صورة للوليتو المتنكّر بزي الرجل العنكبوت، صورة لمانولو، منبه، وعلبة مكياج صغيرة، هذا كل شيء.

تضيع ذكرى هذه الليلة مع كل اقترابٍ لساعات الفجر الأولى، وصلت راكيل في الصباح المبكر، استقلت أول طائرة قادمة من لندن، دون دونوفان. دخلتا غرفة الأم سويّةً وجرى الأمر بعد ذلك بسرعة عجيبة: المستشفى، الدفن، شعور تقليدي بالتسليم الكامل كما يحدث عادةً في هذه المواقف؛ المعاملات الحكومية، اختيار التابوت، والتعب المصاحب، خصوصاً عند فتح قبر الأب والذي تكفلت به راكيل بمساعدة بابلو؛ لأنها لم تشأ هي التواجد في هذه الغضون. يوم الدفن كان مليئاً ومشبعاً بالأحداث المنطقية المتصاعدة والتي لم تكسر إلا من خلال بعض الأمور الدقيقة؛ لحظة عانقها أبناؤها على حين غرّة، أو قبلة بابلو، أو التلامس باليدين مع راكيل لحظة إنزال التابوت في القبر، عندها أصدر التابوت أصوات زقزقة أصابت الجميع بالقشعريرة.

لا تتذكر لحظة وداع أنيتا، هذا إن فعلت ذلك أصلاً. تذكر فقط أنها شاهدتها للمرة الأخيرة في منزل الوالدة، عندما خرجوا نحو المستشفى، وكانت مشوشة الذهن فلم تفكر بأنيتا إلا بعد مرور أسبوعين على الوفاة، ونسيت أن تودع لها في المصرف راتب آخر شهر عملت فيه لديهم. استغلوا الأيام الأخيرة من وجود راكيل معهم في مدريد في تصفية حسابات أمهم المصرفية، ولكي يقرروا ما الذي سيفعلونه بالمنزل.

قرروا بيع البيت أخيراً، مكثت راكيل أسبوعاً كاملاً في مدريد، عادت

بعدها إلى لندن لتتابع عملها، ثم رجعت من جديد لتمضية عطلة نهاية الأسبوع معهم. أقامت في فندق طوال الوقت وكانت هي تذهب في كل صباح لملاقاتها، تصعد إلى الغرفة وتبقيها راكيل جالسة تنتظر ريثما تتبرج هي وتتجهّز للخروج. تتذكر جيداً رائحة النوم المنبعثة من غرفتها مختلطة برائحة الصابون التي تخرج من الحمام هذه الخصوصية الغامضة والرتيبة التي تتمتع بها شقيقتها. ثم تتحدثان.. لا يهم الموضوع، لكنهما تحدثتا مطوّلاً خلال هذه الأيام، خصوصاً راكيل التي بدت متنشطة ومفعمة بالحياة. ظنت هي أنهما ستغدوان صديقتين الآن، وامتزج هذا بإحساسٍ حزين مفاده أن أمهما هي التي حالت دون هذه الصداقة طوال حياتها. بدت لها راكيل أكثر شباباً، أو على الأقل أكثر من الكرة الأخيرة التي عادت فيها من الأرجنتين.

في إحدى تلك الأمسيات تناقشن مطولاً لمدة ساعة تقريباً حول من يفوق الآخر جمالاً: روبرت ريدفورد، أم بول نيومان.

التفكير بأمها أضحى شارداً وأقل وضوحاً، عاد من حين لآخر في الأسابيع التي تلت موتها، محملاً بأصوات وسلوكيات جديدة، تفكر مثلاً بموت أكثر صخباً وغضباً مما حدث، حين تتحدث مع بابلو يصور لها أن أمها قد عانت من آلام فظيعة عند موتها. تحاول أن لا تتحدث كثيراً، لكن اللحظة الأتعس كانت عندما حولت لها راكيل حصتها من أموال والدتهما، فقد اكتشفت حين نزلت إلى المصرف أن هنالك ثمانية وعشرين ألفاً في حسابها، لم تتردّد حينها ودخلت المصرف وحولت منهم خمسة آلاف لأنيتا، ثم لم تخبر أحداً بذلك، بمن فيهم بابلو نفسه.

وخلال الأيام القادمة انتظر أية إشارة من أنيتا، اتصال أو رسالة، حتّى أنها كانت على وشك الاتصال بها في مساء أحد الأيام، ذهبت إلى الحديقة مع بابلو والأولاد، ثم ابتعدت عنهم عدة خطوات، أخرجت هاتفها وسجلت رقم

أنيتا لكنها أغلقت السماعة ولم تفعل ذلك، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي فكرت عملياً بها. أرادت فقط أن تعرف ردة فعلها عندما تكتشف التحويلة، لم تكن تكترث لأمر النقود، ولك تبذل جهداً في التخلص منه، إنها فعلت ما هو طبيعي. استذكرت هنا فصلاً من طفولتها، عندما طلبت أمها منهم توصيل شيء ما، كانت تلعب هي وراكيل، واعتادت أمها أن تطلب ذلك مرة أو مرتين بانتظار أن تتطوع إحداهنّ، ثم تقوم بمكافأة المتطوعة بهدية عادة ما تكون ورقة نقدية من فئة الخمسمئة بيزيتا، وفي تلك المرة أعطتها إدي مجوهراتها لكي تغيظ راكيل وتثير غيرتها. رغم كونها بخيلة بشكل عام، لكنها بين الفينة والأخرى تحب القيام بهذه الحركات التي لا تحاكي من خلالها الكرم، إنما مبدأ تقسيم الثروة كما تفعل الحياة في توزيع المزايا. لتقوم بعدها باسترجاع كل ما منحت في مناسبات غير متوقعة حيث تسترجع ألفاً إذا ما قدّمت واحدة.

لقد شعرت بالتسلية عندما قامت هي بذلك مع أنيتا، ربما ورثت هذا الأمر من أمها، وشعرت أن جسدها محتل من قبل إرثٍ يملؤها كما لو كانت هي كأساً فارغاً ينسكب فيه هذا السائل.

لا تعرف أن اللقاء جرى حقّاً مع أنيتا أم لا، مرّت سنتان منذ ذلك الحين، ولم تفكّر بها طوال سنة كاملة، وعادت حياتها من جديد إلى الغموض الروتيني ذاته والذي تستحيل السيطرة عليه، الحياة الباهتة والمتخفية والتي أصبحت ذكرى الوالدة فيها ذات طعم أكثر حلاوة، واقتصرت العلاقة مع راكيل على مكالمة هاتفية واحدة في الشهر، وزيارة في عطلة نهاية السنة. واستطاعت أن تقوم بزيارة إلى لندن بصحبة بابلو، حيث ظلت راكيل ثلاثة أيام تنزههم في المدينة. كانت قد حصلت على الطلاق من دونوفان، وتعيش بصحبة عشيقها الإسباني الذي يصغرها بثلاث سنوات ويعمل في مجال الفندقية، وقد أفصحت لها سرّاً أنهما يفكران في إنجاب طفل سوية. موت الوالدة حرّك لدى راكيل الرغبة

بالإنجاب بشكل تلقائي. هي تظن أن الأمر جنوني وأناني، لكنه ممتع ويثير الحماسة، كرغبة مراهق في أن يرسم وشماً على جلده.بشكل عام تصورت الابن الذي يمكن لأختها أن تنجبه صغيراً ويتمتع بقوىً خارقة، تتمثل في التفكير المفرط بالذات والشهرة وكأنه مركز الكون، كأمه بالضبط، تصورت أيضاً النزاعات المستقبلية بينهما، لابد من رؤية ذلك! لكنهما سيكونان سنداً أحدهما للآخر حتماً.

موت الأم حرك في راكيل مزايا مدهشة: لقد أصبحت راكيل ملحمية وأسطورية حتى غدت تشبه الساحرة في حكايا الأطفال، لقد انخرطت في خيالها الشخصي على نحو صلب، كالأبطال الذين عليهم أن يؤمنوا بشكل دائم ومستمر بأشياء لا تمت للمنطق بأية صلة، ويعيشون حياة تختلف كلياً عن حياتهم الحقيقية.أحياناً تمسك بها من ذراعها وتحدثها عن أمهم بصوت حزين وضعيف، وهي أدركت منذ المرة الأولى أنه لا يمكن لها ممانعة راكيل عندما يخطر لها أن تبدأ بهذه الأقاصيص الحسية. راكيل بحاجة للقيام بهذا، ويجوز أنها بحاجة إلى تواطئها أيضاً. تجلس هي وتكتفي بالاستماع إلى حكايات أختها كمن يلعب بهاتف معطل ويدعي الحديث مع أحدهم من خلاله. لم يكن بمقدورها أن تشرح لها كيف أن أمهم قد تحولت مع مرور السنين بالنسبة لها إلى شخصٍ صعب القراءة والفهم. تشعر بجسدها أنها قريبة منها وفي نفس الوقت تحس بالابتعاد والظلمة كأنها دخلت أنفاقاً معقدة وحارّة.

رأتها فور عودتها من السفر، في البداية كان الإحساس غريباً، لكن بعد عدّة ثوانٍ ظنت أنها قد لا تكون هي أصلاً. كانت وحيدة في مركز تجاري بعيد عن بيتها دخلت إليه عن طريق الصدفة لكي تشتري حبراً لطابعتها، وقفت هناك ضائعة بين مئات الاحتمالات على الرفوف، وعندها انتبهت أن هنالك في الطرف الآخر من المكان شخص يتحرك على الجهة اليسرى منها بطريقة

بدت لها مألوفة. تأخرت قليلاً في التعرف عليها، ثم وفي لحظة سريعة أدركت أنها أنيتا. مرت سنتان على لقائهما الأخير، ولم تكن هيئتها قد تغيرت فعلياً، عمرها الآن بحدود الواحد والعشرين عاماً ولازالت تحافظ على وجهها الطفولي والنحيل، لا يبدو أنها خادمة الآن، ولا حتّى فتاة عادية، بدت وكأنها مخلوق برمائي، أشبه بمزيج بين الفتاة التي تعرفت عليها في السابق وشخص جديد بالكامل.

لم تستطع أن تشرح لأحد التوتر الذي شعرت به في تلك الأثناء، والذي بدأ بردة فعل جسدية: قشعريرة تشبه التي تختلج مراهقةً وجدت نفسها فجأةً وحيدة مع أحد الفتية في غرفة مغلقة، وسرعان ما تبدد الإحساس وتحول إلى ضجيج داخلي يشبه العواء طغى على كل شيء وطرحها أرضاً، ثم قام بتثبيتها بإحكام. خطر لها بادئ الأمر الاقتراب منها وإلقاء التحية عليها لكنها بعد أن تقدمت خطوة واحدة عدلت عن الأمر. أنيتا كانت وحيدة أيضاً ولم تكن تبحث عن شيء معين. تتجول بين الأزقة في قسم الحواسيب ملقية نظرات غائبة قليلاً على الأشياء، تضيع الوقت دون نية فعلية للشراء، لكنها تسير مجذوبة تجاه سائر المعروضات التي على الرفوف دون أن تستحوذ أيّاً منها بالذات عليها، ترتدي فستاناً ربيعياً جميلاً لا يشبه الألبسة التي كانت تضعها عندما عملت معهم في الاعتناء بالوالدة، فستانٌ منمَّق وطويل حتى أسفل الركبتين يرسم جسداً غير مكتمل النمو بالكامل، لم يتجسد مظهرها الطفولي فقط في الكيفية التي تتحرك بها، بل ببنيتها قاطبة، وبداخلها أيضاً، بدا لها الأمر غير محبب دون أن تعرف السبب، ربما لأن هذا يولد في أنيتا آلياتٍ دفاعيّةً تزوّدها بحصانة ضد الهزائم والانهيارات التي تتهددها.

قامت أنيتا بحركةٍ متململة، ثم انصرفت مبتعدة، ولحقت هي بها متتبعة خيالها، لم تعرف لماذا فعلت هذا وما الذي أرادت البحث عنه، لكنها تفضل أن

تكتشف أنيتا وجودها عن طريق الصدفة. وأن تختار هي بعد ذلك الكلمات التي ستقول وتختلق الأعذار المناسبة. وما عليها هي إلّا أن تدعي السرور باللقاء. ساد المشهد توازنٌ غريب أيضاً:مرتبطٌ بقدمي أنيتا عندما صعدت السلالم الكهربائية نحو قسم السيدات، ثم قسم الرجال وأخيراً قسم الفتية. لم تكن هي تفكّر بأمها على الإطلاق، تشعر بالوحدة وبالغرابة، ولا تعرف في الواقع بِمَ ظلت مشغولة طوال الوقت، لكن هذا الشيء كان ميتاً ومقفلاً عليه طوال الوقت. لكنّه قابع بالفستان السوقي والربيعي الذي ترتديه الفتاة، في حركة أقدامها، في هذا الشعر الأسود المصفّف الآن بطريقة مختلفة والمربط بقطعة قماش مدرسية.

تقدمت أنيتا في نهاية المطاف إلى موظّفة ووجهت لها سؤالاً، تحدثتا بعض ثوانٍ وأشارت أنيتا إلى صدرها في دلالة إلى الحديث عن فستانٍ ما، دخل قلبها فرحٌ من جراء تذكرها لحركت الفتاة، هذه الطريقة الحميمة في مخاطبة الآخرين من بعيد، ابتعدت الموظفة وبقيت أنيتا وحيدة من جديد، فالتفتت هنا ونظرت إليها بشكلٍ مباشر، كانتا على مسافة لا تتجاوز العشرة أمتار، ووقفت هي متجهّزة أمام الرفوف تدعي التمعّن في القمصان، انخفضت تشاهد سعر القميص وهي تشعر بالإذلال يعبر جسدها كحمام ساخن، ولما رفعت عينيها كانت أنيتا لا تزال تنظر نحوها، في غضون هذه اللحظات القصيرة تضخم دوي الضجيج في المركز التجاري في آذانها كأنها تغوصان في أعماق محيط صاخب. اقتربت منها أنيتا ببطءٍ ودون أن تبعد ناظريها عنها، وعندما وقفت قربها وصلتها رائحتها المميزة التي تشبه رائحة اللوز.

«لا تلحقي بي من فضلك».

لم تبدُ عليها أي تعابير، حتى المضايقة أو الانزعاج.

«عذراً!».

«ليس هنالك ما أعذرك من أجله، لطالما كنتِ جيدة معي».

ابتسمت أنيتا بغموض وبدا وجهها كقناعٍ أثري، استدارت هي وأخذت تنزل السلالم الكهربائية وفي حلقها حرقة متراكمة لكنها استمرت بالهرب فخرجت إلى الشارع ومشت حتى وصلت حديقةً وجلست على أحد المقاعد. فاحت في المكان رائحة ياسمين مكثّفة، ثم دون سبب معين أمسكت معدتها وانفجرت في بكاءٍ شديد لم تبكه قط في حياتها. يخرج النحيب من جسمها بصورة مدوية ومزلزلة، إلى درجة أصابت أنوثتها وإنسانيتها وجسدها في آنٍ معاً، هي فقط الفوهة التي يخرج منها البكاء كما تتفجر الينابيع من جوف الأرض. طال الأمر أكثر من خمس عشرة دقيقة، ثم بدأت تستجمع نفسها من جديد، دخلت إلى الحمام في أحد المقاهي المجاورة، غسلت وجهها، نظرت إلى المرآة وضحكت على وجهها المشرق والمنفوخ، على وجنتيها المحمرّتين، وعلى ذقنها المتقلّص، وخرجت أخيراً إلى الشارع بخفة استثنائية لم تتمتع بها من قبل، حرة من قيد عاشت تجهله طوال حياتها، حرةٌ إلى الأبد.

الوفاء

أخذت مارينا تفكّر وهي تمارس الحب للمرة الرابعة في حياتها (لأنها في المرات السابقة اكتفت بالإحساس وتخزين المعلومات)، فكرت بكم هي بعيدة في الواقع عن المتعة الجسدية. هذه العبارة البراقة التي يصفون من خلالها لعبة الجنس والمداعبة في الروايات. تثير غرابتها أشياء لم تسمع في وصفها الكثير، ذلك الاستعجال الموتور والخداع المباغت، ثم تأتي المتعة دون سابق إنذار. بدأت الآن تفهم أن الأمر لا يتعلق بتصاعد مفترض، ولا بتحفيزاتٍ متعاقبة، إنما بشيء أقرب ما يكون إلى الإعجاز. كر وفر، تراودها النشوة وتضمحل، ثم تعاود المجيء بشكل أقوى على شكل صعقاتٍ كهربائية تقتحمها كما يقتحم اللصوص المصارف، تتبدل أقنعتها في تفجرها داخل جسدها ذي الستة عشر عاماً. هي أنهت لتوّها سنتها الدراسية.

رامون الذي يكبرها بسنتين، خائف ومتوتر ومضطرب، هذا ما قاله قبل أن يبدأ بتقبيلها بعد أن كانا قد دخلا مكتبة والدها المتمثلة في بيتٍ مستقل.

كان رامون قلقاً لأنه قال أنهم «سيطحنوه» في امتحان الشهادة الثانوية، بدا المصطلح طريفاً جدّاً بالنسبة إلى مارينا خصوصاً بسبب التعابير اللينة التي ظهرت على وجهه، ملامح تمتزج فيها النشوة مع الخجل الدفين نصف المعتم الذي تسببه كتب أبيها له وثقافته العالية.

«هل حقاً أن والدك قرأ جميع هذه الكتب؟».

«هذه الكتب ليست إلّا بضعاً مما قرأ، نحن ننظف الكتب كل ثلاثة أعوام فنتخلص من القديمة منها... لا أدري ربما نتخلص من ثلث ما هو موجود، الكتب التي لم تعد تنفع. لكنه يملأ الفراغات على الفور بكتبٍ جديدة... إنّ ما تراه هو حصيلة انتقاءٍ نهائي. إن كان في هذا البيت أي شيء فهو قطعاً الكتب».

كانت هذه الجملة الأخيرة تعجبها جداً فتكررها في كل المناسبات، لكن وقعها على مسامع رامون كان له لذّة إضافية تشعرها بالانتصار، وتدخل في نفسه الرعب (كونه بالطبع سيسحق فعلاً في امتحانات الشهادة الثانوية)، علاوة عن الوهرة التي يتمتع بها هذا البيت الذي كان والدها قد استأجره تحت منزلهم خصيصاً للكتب؛ لأنها حرفيّاً لا تتسمع في مكانٍ آخر.

تتذكر مارينا منذ أن بدأت تعي حياتها أنها محاطةٌ بالكتب، بمجاميع من لفائف ورقية مضيئة كأنها كائنات مستقلّة تهدد وجودها. أمها دائمة التشكي من الكتب وهي نادراً ما تقرأ، وأما والدها فكان على علاقة وطيدة وفخورةٍ بكتبه، يخزّن هذه الكتل المتماسكة على الرفوف وكأنه خيميائيّ بارع.

بغض النظر عن اختيارها لهذا المكان لتجلب رامون إليه قبل أن يسحقوه في الامتحان، فإن مارينا لطالما فضلت هذه الخلوة التي تحميها الآن كما حمتها في المرات السابقة التي أتت به إلى هناك، حيث مارسا الحب في وضح النهار على السرير الذي وضعه أبوها قرب النافذة. وبما أن الخوف انتابها في المرة الأولى فقد قررت أن تجيء برامون دائماً إلى هذا المكان الذي يشعره بالجبن، وهكذا يكونان على الأقل متساويين. هو يعجبها وتراه كطائرٍ أبيض كبير، ليس ذكياً جداً لكنه ذو شخصية ظريفة. تشتهي رؤيته عارياً، تنتابها حمّى من العجلة الوقحة والممزوجة بالارتباك المكبوت. أعجبها خوفه حين تعرفت إليه في حفلة إحدى صديقاتها، «أفضّل ألف مرة الشبان الخائفين» قالتها لزميلة لها. وقد كان الإسقاط واضحاً في

كلامها. وهي دلالة على ذكائها وكأنها تستطيع رؤية نفسها في سن الأربعين، وقد جربت الحب ثلاثين مرة، وغدت مديرةً لإحدى دور النشر في برشلونة وتتصور نفسها وهي تدلي بتصريح ما: «كانت مراهقتي فظيعة».

في المرات الأولى التي مارست فيها الجنس، وخصوصاً أول مرة كان هناك شيء مضلل إلى حدّ بعيد، كان رامون خائفاً من أن يظهر أبوها في أي لحظة ولم يسترخ ولا دقيقة واحدة، ظل يسير بارتباك بين الرفوف ويسحب منها كتباً بشكل عشوائي، لم يكن مهتماً في الحقيقة بأي منها، أخذ بعد ذلك يتصفح الصور في كتاب حنا آرت (أصول الشمولية)، بدا مركّزاً جدّاً حتى يظن الناظر إليه أنه يقرأ تعليمات محددة عما يجب أن يفعله الآن. جلسَت هي بالقرب منه وتحدثت إليه كما لو أنها كانت قد قرأت الكتاب لتشعره بالدونية أكثر، استندت على كتفه ولمست صدرها بيده، ثم ادعت الحياء على الفور، وبصرامة دفعت رامون إلى الخجل، وهذا ما ارتد عليها خجلاً هي الأخرى.

«أمتأكدة أن والدك لن يأتي؟».

«بالطبع لن يأتي، إنه في تركيّا» قالت هذا وهي تحاول أن تخترع أي بلدٍ يحدث في الصياغة ما هو واقعي.

«وماذا يفعل هناك؟».

«ذهب لكي يشترك في نقاش، في مجمع النقد الأدبي».

كان رامون على وشك الاعتراف بأنه لم يفهم جيداً ما قالت، وأنه لم يعرف قط بوجود هذا المجمع، لكنه عوضاً عن ذلك اقترب منها ودفعها باتجاه الرفوف وقد أسقط من يده كتاب (أصول الشمولية) بشكلٍ غير لائق، ثم أخذ يقبّلها في عنقها. تأهبت لدى مارينا جميع النهايات الحسيّة وأخذا يتعريان حيث يساعد كلٌّ الآخر على خلع ملابسه.

هي تعرف أن رامون يحمل معه دائماً الواقي الذكري، ليس لأنه يستخدمه

حقّاً، لكن ذلك كان سبباً للتفاخر أمام أصدقائه الشبّان، يضعه في محفظته ويحاول إظهاره في جميع المناسبات. كانا هما الاثنان أبلهين بعض الشيء، تعريا كما لو لم يكونا يخجلان، يطمئنها أن رامون يسبقها في إظهار جلد جسمه، لكنها فجأة شعرت برغبة برمي نفسها من قمة منحدرٍ شاهق، فهما لن يكونا شخصين طبيعيين من الآن فصاعداً، أحست بأنهما سيفقدان أسماءهما وسيقتصر وجودهما على بياض أجسادهما الطارئ هذا والذي يوحي بالشهرة المفضوحة. ظَهر بعض الاسمرار على ذراع رامون، وبدا بياضها هي ملحّاً.

«هل فعلتها أنت من قبل؟».

«ليس كليّاً» أجاب رامون بعبثية.

«ليس كليّاً؟».

رمقها بنظرات استجداء وتوسل كي لا تسأله بعد عن شروحاتٍ أو تفصيلات، بدا مفلساً بالكامل. سألته وهي تودّ إنقاذه:

«هل تود أن تفعل الأمر كليّاً معي؟».

تسأل مارينا نفسها الآن بعد المرة الرابعة التي فعلتها مع رامون، أين؟ في أي كتاب يوصف هذا؟ هي لا تقصد المشاعر والأحاسيس، إنما الشيء الآخر، كانت قد شاهدت في غرفتها دون علم أحد بعض الأفلام الإباحية، ركزت فيها مشككة كأنها عالمة أحياء مختصة بالحشرات. حتّى اللحظة لطالما ظنّت أن النشوة هي أمرٌ يمكن العثور عليه أو فهمه، كانت تعد المرات في الفيلم الإباحي وقد استطاعت أن تكتشف ثلاث نشوات متتابعة، وتنظر إلى ذلك كما لو أرادت القول: (آه كم أحتاج إلى هذا). تظن أن عدم القدرة على الوصول إلى النشوة هو الإخفاق بحد ذاته، وتعتقد أحياناً أن السرعة هي الحل، ثم تكتشف أن الموضوع متعلق بالتقلصات العضلية. على الأحداث أن تتعاقب بين توظيف الركب والأكواع والمعدة والصعود والهبوط والانتفاخات ثم الإفرازات. أشبه بكون

طبيعة الجسد وبنيته بحاجة إلى توتر معين وفعال، وهذا ما يتطلب سلوكاً غير لطيف في بعض الأحيان بهدف إحراز التقدّم نحو مكانٍ أكثر وضوحاً.

يقودها كل هذا إلى فوضى مؤلمة وإلى تذمّر رافقها في المرّات الأولى. تحسن الأمر قليلاً في المرّة الثالثة، وأمّا الآن في المرة الرابعة، أي قبل أسبوعين من أن يُسحق رامون في الامتحان، فقد شعرت بنشوة اخترقت معدتها، وبعد أن اقتربت منه وراحت تتأمل جماله، اكتشفت أن النشوة تكمن في أمرين، أحدهما يسبب لها الخجل: وهي أن يخبر رامون باقي الفتية وهذا لم يكن مستبعداً. والأمر الثاني يسبب لها الفخر والإحساس بالنضج: وهو حدسها الدقيق في أنها بدأت تبرع في هذا الأمر، وبأنها ستفلح في الاستمتاع به وبجعل الآخرين يستمتعون أيضاً.

لم يكن إحساساً مجرّداً، إنما كان متصلاً حسيّاً ومتأصلاً في رامون نفسه، وفي جسده الغريب في ساقيه النحيلتين وصدره الذي يغوص نحو الداخل.

«كان الأمر مثاليّاً» قال رامون وهو ينتهي، تعابير وجهه تنم عن جمالٍ رياضيٍّ، يتعرق وكأنه كان يلعب كرة القدم، أو يترنح طوال ساعات على الأرجوحة في الحديقة. بدا جديّاً أكثر مما مضى وظهر النبل عليه وهو يعلق. ربما كان يشعر بالاتساخ، أو أنه تذكّر الآن بوضوح أكبر أنهم سيسحقونه بالامتحان بعد أقل من أسبوعين.

لم تعرف مارينا تحديد مشاعرها، تماماً كالمرّات السابقة، كان ثمة إحساس بالتواضع بعد هذه الملحمة، تود أن ترتدي ملابسها على عجلٍ أو أن تحتمي من عريّها بأن تعانق رامون في الحال. قفزت وارتدت ملابسها، سمعته وهي ترتدي بنطالها يقول:

«يتوجّب علي أن أدرس عوضاً عن أي شيء آخر».

كانت تودّ أن تقول ما هو مؤذٍ لكنها اكتفت بجملة عادية:

«ادرس إذاً».

ارتدى رامون ملابسه بهدوء وهو يفكر.

«سأدرس فعلاً، هل أتصل بك في هذه الأيام».

«سنرى».

نظر إليها هو بذعر، الذعر عينه الذي سينظر به بعد أن يسحقوه في الامتحان، ثم وهي تصعد ببطءٍ السلالم لتعود إلى بيتها القابع فوق بيت المكتبة مباشرةً، لم تستطع إخفاء هذا الغموض الذي يدلّلُ على أنها كانت تمارس الجنس. تنتابها مشاعر متعرجة ومختلطة، لا يصح وصفها إلا من خلال السرد العكسي أي باتجاه الماضي لتستطيع تكذيب ما كان وما لم يكن، أو لتستطيع إضافة تفاصيل جديدة: الحيرة، المتعة، الفظاعة حتّى تصل إلى نسجٍ أقل انحرافاً. كانت لا تزال تشعر بالنشوة، كدغدغةٍ منتشرة ومبعثرة، يرافقها الخجل من كونها ليست أكثر أنوثة. كانت تدرك أن النشوة تتصبب منها وخافت لأن أي شخص لبيب سيكتشف ذلك في الحال، لكنّ أمها لم تكن تدرك الكثير من حولها، فتحت لها والدتها الباب معلقة:

«أين كنتِ؟»

«في الأسفل، أقرأ قليلاً».

دخلت بعد ذلك إلى غرفتها مباشرةً وهي تقلد تعابير كلاريس ليسبيكتور في الصور، بوجه متجبّر ومتعالٍ وكأنها تعرف شيئاً لا يعرفه أحد سواها، فتبتسم لأن هذا الشيء فظيعٌ في الواقع. لم تقدر في الفترة الأخيرة على تحمّل أمها، ترفض فيها سكوت الصيادلة المتواصل، حتّى وجودها يزعجها، وعلاوة على ذلك هذا التشابه الكبير بالمظهر بينهما لذلك كانت تحاول بشكل لاشعوري تبني سلوكيات وتصرفات مختلفة ومتطرفة تميزها عنها إلى حدٍّ واضح. يزعجها أيضاً نموها في السنوات الأخيرة وتشكلها الطبيعي والمفاجئ هذا. لم يكن الأمر دائماً على هذا النحو، لكن كل شيء اختلف الآن، فقد فهمت أكثر بلادة حياة الأم وهذا ما كان يسبب لها الذعر. وكذلك صيدليتها كانت أشبه بآلة لضخ النقود، رداؤها

الأبيض ولطفها الزائد إلى حدّ غير مقنع، ثم أخيراً وفود المرضى المتهافتين عليها. لطالما أحست أن أمّها في قرارة نفسها شريرة وجشعة، لكن بصمت وسلبية، وكذلك أنها من هؤلاء الأشخاص الذين يسعون إلى إثارة الشفقة على الدوام.

وصل أبوها إلى المنزل مساء هذا اليوم أكثر تعباً من المعتاد، وبدا عليه الانشغال بأفكاره، حيث جلست مارينا تتناول عشاءها مع أمها دون كلام، قالت لها أمها بما أنها أنهت سنتها الدراسية للتو، وبما أنه لا يوجد فعلياً ما تفعله بوقتها، أنها تستطيع أن تكون كريمة وأن تساعد في جمع التبرعات لحملة أطباء بلا حدود. لم تكن المرة الأولى التي تطالبها أمها فيها بالأعمال التطوعية. لكن كلمة (كريمة) أثرت بها من جهة، ثم ومن جهة أخرى فكرة أنها لا تملك ما تفعله بوقتها، وهي معلومةٌ صحيحة تماماً.

«كنت سأبدأ بكتابة رواية غداً».

«وعمّ ستكتبينها؟».

ردت دون أن تفكّر لثانية واحدة: «عن مستنقع، مستنقعٌ يتوقف فيه الزمن.. تبدأ القصة برحلة تقوم بها مجموعة من الأصدقاء ينتهي بهم المطاف هناك...».

دخل أبوها إلى البيت هناك، ولم يدعها تكمل، يحمل كعادته كتاباً أو اثنين يضعهما تحت ذراعه، مستجدّات في عالم النشر كان لابد له من تصفّحها والكتابة عنها. التعب يناسبه جدّاً، يكسبه نوعاً من الراحة كالصدأ البطيء التشكّل. جميع صديقاتها معجبات به، فهو جذّاب وأنيق. اقترب وقبّلها هي، ثم قبّل أمها وهو يلقي التحية.

«هل انتهيتم من العشاء؟».

أجابت الاثنتان بنعم في الوقت نفسه ما سبب المزيد من الخجل لمارينا. إنها عائلةٌ غريبة، يتحمسون بلحظة ثم سرعان ما يشعرون بالوحدة وتتعكّر أمزجتهم فجأة، في داخلهم براكين هائجة تسكن روحهم جاعلة إياهم بعيدين

عن الطبيعية، ينتظرون طوال الوقت حدوث الأشياء، وأن تجبرهم هذه الأشياء على التحليق معها، ينتظرون التعذيب ليأتي، علَّه يترك عليهم بعض ردات الأفعال، وهذا هو الوضع الوحيد الذي يشعرهم بأنهم عائلة متماسكة.

«لا تقلقا، سأحضر لاحقاً ما آكله، أظن أنني سأستحم الآن».

لكنه بعد كلامه لم ينصرف، وظل واقفاً ينتظر ما يشبه الموافقة.

«بالطبع، لقد كان اليوم حارّاً جدّاً» علقت أمها.

وقع إجابتها هذه بدت كتجربة أداء رديئة لمسرحية على الممثلين فيها الرد بفارق زمني صغير من أجل سريالية الحدث.

«يبدو هذا شهيّاً».

«ما هو؟».

«هذا... ما أكلتماه للتو».

«آه، هناك المزيد في الثلاجة» قالت أمها.

تسجّلت في النهاية كمتطوّعة، لم تكن مشغولة بأي شيء، وأعطاها هذا مبرّراً لكي تبقى خارج المنزل طوال اليوم عمليّاً، سلّموها درع (أطباء بلا حدود) وطلبوا إليها التواجد في الصباح في ساحة (كايّاو). لقد فوجئت من حدّة مدينة مدريد قبيل قدوم الصيف. حر كهربائي وأناني، وساحة (كايّاو) التي تبدو وكأن شيئاً ما ينقصها. المكان بعيد عن بيتها، لكنها بلا شك من الأماكن التي تعتبرها مفضّلة لها في مدينة مدريد. يلاصقها شعور فرح من جراء اكتشافها بأن الساحة ينقصها أمر ما، فيدفعها إلى ابتسامات متمدّدة ومعدية، وإلى قدرة على التواصل تشبه تلك التي يتمتع بها الأشخاص غير الأذكياء. أعجبها أيضاً جهل المارّة في الشارع عندما تخبرهم بأن سعر فنجان القهوة قادر على أن يعيل عائلةً من ثلاثة أفراد في سريلانكا، سيما عندما تقول هذا لأحد قد خرج توّاً من أفخم المتاجر والمراكز التجارية وهو يحمل أربعة أكياس في يده. كانوا قد زوّدوها بعدة جملٍ أخرى لكي تذكرها خلال الحديث مع الناس وفي

لحظات معينة، وقالوا أنها تحدث آثاراً فارقة في ردّات فعلهم. بدا لها التفكير صعباً في أن الإرادة الإنسانية ذات أبعاد معقّدة وهي تختبر بنفسها وقع هذه الجمل وما تحفّزه من إجابات. خصوصاً إن قالت هذه الجمل على مهل وهي تنظر نحو أعين الناس، وعندما تكرّرها أيضاً لكي لا تدع مجالاً للشك.

«هل تعلم أنه بسعر مادّة البلاستيك الذي تصنع منه هذه الأكياس بغض النظر عن ثمن ما في داخلها – انتبه جيّداً– بسعر الأكياس فقط، يمكنهم أن يتناولوا طعام الإفطار».

يخيفها أحياناً أن تخرج منها مبالغة غير مقصودة، العائلة المثالية في سريلانكا، هذه العائلة النموذجية الرائعة والمهيكلة، ذات الابن الوحيد المحاط بالذباب، والأب العنيد الذي يمضي وقته بتقطيع قصب السكر (لا تعرف حتّى إن كان هناك قصب سكر في سريلانكا، رغم أن سيّدة وجهت لها هذا السؤال فعلاً)، وتلك الزوجة التي تطهو الرز الأبيض يوميّاً. كان على المتطوعين أن يمخروا عباب ضمائر المارّة في الشارع لينقلوا لهم صور وجوه هذه العوائل الشاحبة والتي تنم عن سوءٍ في التغذية، ويذبلون عيونهم متوسّلين لكي يذيقوا بعضاً من هذا العناء للمدريديين، مستجدين العطف في قلوبهم خلال ثوانٍ، لكن مارينا كانت تعلم جيّداً أن ساحة (كايّاو) ستعيد للناس تحجّرهم على الفور. فإنّ حر حزيران، بالإضافة إلى ملابس الفتيات الجذّابة،ونظرات الشهوة نحوها تجعل من تضامن المارّة حدثاً عرضيّاً أشبه بامتزاج الترف مع الخجل.

أصابها الملل بعد حين، ووقفت أمام زجاج أحد المحلات تنظر إلى الكتب والأقراص الليزرية، دخلت بعد ذلك إلى المحل، وكانت إذا تشجعت وأمسكت بأي شيء في يدها تفكر بسرقته. السرقة بالنسبة لها بتجرد، بعيداً عما يمكن أن يكون الهدف من ورائها لها وقعٌ مثير في مخيلتها، كالمتعة التي يجلبها لها التلصص على مذكّرات الآخرين، أو أن تفتح الرسائل والبريد الإلكتروني غير الموجّه لها.

لهذا فهي معجبة بمجاميع الرسائل التي يحتفظ بها الكتّاب، سيما إن احتوت على ما هو خاصّ ومثير للخجل. هذا الصباح بالذات كانت تلقي نظرة على رسائل ديلان توماس الغرامية، تحضنها وهي تجلس القرفصاء على الأرض في الزاوية، إلى أن جاؤوا وقالوا لها أنها لا يمكنها التواجد هناك والجلوس بهذه الطريقة. كان ديلان توماس يقول في الرسالة موجهاً كلامه إلى كايتلين ماكنامارا في رسالة حب:

«عليكِ أن لا تكبري كثيراً؛ لأنك ستبدين أكثر شيخوخة مني، ولن أدعك تصبحين أكثر حكمة ومعرفة. وأنت أيضاً عليكِ منعي من أن أصبح أكثر حكمة. وسنكون دائماً شابين وبلا خبرة، معاً».

فكرت مارينا بإمكانية سرقة جمل ديلان توماس، والبوح بها لأحدهم يوماً ما.

جرى الأمر في صباح أحد الأيّام، عندما كانت عائدة إلى البيت لتناول طعامها، كان يوماً عادياً جداً: حيث إنها جمعت معلومات اثني عشر شخصاً بعد أن وزّعت حوالي الخمسين ورقة توعية، وبعد أن حاول رجل في الخامسة والأربعين من عمره التقرب منها بشكل كسول، وهذا ما سترويه لرامون لتثير غيرته؛ لأن هذه الأشياء كانت تفقده أعصابه على نحو مبالغ فيه، وعندها رأتهم.

في البداية كان المشهد عابراً؛ لأن طريقته في المشي كانت مميزة، وربّما يمون سلوكه، أو لأنه كان يعانق فتاةً مجهولة، حتّى حجمه بدا مختلفاً، وكأنه الآن أكبر من السابق، أو أن شيئاً فيه قد تمدد وهذا ما لا يحدث في البيت، مرّ والدها والفتاة الغريبة بالقرب منها، وكانت تبعث رسالة إلى رامون، يحمل والدها كتباً تحت ذراعه كعادته، وأما الفتاة فتحمل كيساً قماشياً وترتدي تنورة صيفية عليها وردٌ أو ماشابه. لم تكن مارينا تجيد تقدير الأعمار، لكن الفتاة تظهر في الثلاثين تقريباً، لم تستطع رؤية وجهها بوضوح، بيد أن شكلها جميل بصورة عامة، لها ساقان

قصيرتان جذابتان ورفيعتان، وتتحرك أوراكها برشاقة وخصوصية ميزة لدى المشي، كأنها تقفز في كل خطوة وهذا ما دل على ذكاءٍ أنثوي يتميّز به جسدها.

يقوم والدها بهزّ رأسه قليلاً، ينظر إلى الشارع ثم إلى الفتاة، يبدو أنه يقص قصة ما عليها، يشكلون ثنائياً عادياً، ربما هناك اختلال طفيف في الأعمار لكنّ شيئاً فيهما لا يدعو إلى التعجّب.

شعرت مارينا للحظة بهيجان في دمها وكأنه غثيان أو اضطراب لحظي، فجأة بدت لها ساحة (كايّاو) واقعيّة إلى أبعد حد. وأحست أن الحجارة التي تصطف في الأرض مشكّلةً ممر المشاة أصبحت فجأة قاسية بلا مبرر، وكذلك الأبنية والطقس الحار. تشعر بوميض الناس من حولها وكأنهم وهمٌ لا يمكن لمسه، يدخلون ويخرجون منها بشفافية لا يمكن تفسيرها. كان للورود المرسومة على تنورة الفتاة تلك قدرة عجيبة على التنويم المغناطيسي. لا تعرف ما إن كان جميلاً أم قريباً جداً من أن يكون قبيح، وأما أبوها.... فقد كان هو وليس هو في آنٍ معاً، ربما يكون هو أكثر من أي وقتٍ مضى، وربما سائر تصرفاته وشخصيته في البيت كانت جزءاً من استعراضٍ طويل بعيد عن حقيقته.

قد تكون هذه هي طريقته الحقيقية في المشي، وهذه هي الطريقة الحقيقية التي ينظر بها نحو الآخرين، ولابد أن هذه هي ابتسامته الحقيقية أيضاً. إن له قوة رجل واثق من نفسه، أكثر جاذبية وابتعاداً. بدأت تتبعهم وكأنها ظلّ لهم، وانطفأ ضجيج الشارع وأصواته وبدأت أصوات جديدة تصدح في رأسها بتواتر مختلف. وتحول درع (أطبّاء بلا حدود) الذي ترتديه إلى لباسٍ متحرٍّ واقٍ من المطر وقبعة جلدية. تتبعت أثرهم من مسافة قصيرة دون أن ينتبها إلى وجودها، وكانا يقهقهان ضاحكين سوية، ثم أزاح والدها يده من على كتف الفتاة، فتمكنت من رؤية وجهها للمرة الأولى ففكرت مارينا أن هذه الفتاة لو لم تكن ترتدي هذه التنورة، أو لو ظهرت في الشتاء بمعطف طويل فهي لن تثير انتباه أحدٍ، تماماً كما تبدو مارينا الآن بلباس

التطوع. فهي من نوع النساء اللواتي يظهرن في الربيع وبداية الصيف وحسب، ثم يختفين في الشتاء حيث تكنّ في نهاية الصيف سمراوات للغاية وذوات أشكال عادية جدّاً. هذا يعني أنها الآن في لحظات عزّها الذهبية، يمشي أبوها بقربها كما لو كان يود التلامس معها بفارغ الصبر وبشكل مستمر، يضع يده على خصرها دون أن يلمسها لكي يشعر بملمس ثيابها، يبدو عليه الهمّ والإثارة،ويتصرف بشكل صبياني. وقفا أخيراً أمام بوابة بناء في إحدى الساحات، فأمسك أبوها بخصر الفتاة وقبّلها فشعرت هي بحر الصيف يحتدم كفقاعة كبيرة، تحدّثا بعدها هامسين أحدهما بأُذن الآخر، وأخرجت بعدها هي مفاتيحها من الكيس القماشي الذي تحمله، فتحا الباب ودخلا سوية، وصدح صوت إغلاق الباب وكأنه نهاية المشهد.

تأخرت عدة ساعات في العودة إلى البيت يومها، بقيت مهتمة جداً بمعرفة حقيقة مشاعرها، فلم يكن أحد يستطيع مقاطعة تركيزها هذا، وبالفعل فهي لم تقرأ حتّى رسائل رامون التي تصلها إلى الهاتف، وضاعت شهيتها تماماً فلم تعد جائعة. توجّهت إلى ساحة (كايّاو) وأبلغت المسؤول أنها لن تعود حتّى يوم الغد، أعادت له زيَّ أطباء بلا حدود ومشت في شارع الغرانبيا وهي في حيرة من أمرها، تنظر إلى الناس في الشارع وتشعر بأنهم جميعاً يستطيعون اختراقها ومعرفة أسرارها، تعبر الأحداث التي شاهدتها ذاكرتها جلية واضحة، صور ملحّة وقوية تجول في مخيلتها، وتحاول هي تحميل بساطة هذه الصور ووضوحِها هولاً إضافيّاً. لقد اكتشفت أن لأبيها قصة كتلك التي قرأتها في الروايات الفرنسية.

لقد ثملت مارينا مرات قليلة جداً، وقد دخنت الماريغوانا في مناسبتين أو ثلاث، وجربت الكوكايين مرة واحدة في حياتها. ومن جميع هذه الحالات الاصطناعية، كان أثر الكوكايين هو الأقرب إلى حالة الاستبصار الباردة التي هيمنت عليها الآن.

لم تشعر بالإهانة، ولا بالقرف، ولا حتّى بالإثارة أو الفرح، لم يكن هناك ما

يحزنها أو ما يدخل السرور إلى قلبها، كان فقط عبارة عن اضطراب بارد ومزعج، اكتشفت بعد نصف ساعة تقريباً أن ما يزعجها هو ليس خيانة أبوها لأمها كما اعتقدت في البداية (وهي الآن تتفهم الأسباب)، إنما عدم قدرتها على التعرف عليه حين شاهدته في بادئ الأمر، وأنها اكتشف فيه تعابير لم تكن تعيها من قبل، إضافةً إلى أنها تظن أنه كان بوسعها التوصل إلى هذه التعابير ما إذا جمَعَت سلوكيات والدها التي تعرفها وعالجتها قليلاً، وانتابها فجأة فضولٌ فظيع تجاه هذا الشخص.

دخلت إلى البيت مندهشة من جراء عدم تعاطفها الكلي مع أمها التي تجلس في الصالون وقد عادت لتوها من عملها وهي تشتُم الجو الحار. لبست لباساً منزلياً مريحاً وجلست تتفرج على التلفاز وهي تشرب شاياً بارداً. أمها مولعة بالبرامج التاريخية تتابعها باهتمام كامل، مشغولة بضوضاء بيضاء لا يقاطعها في التركيز بها أي حدث. شاي باردٌ إذن وبرنامج تاريخي عن مصادرة أملاك (مينديثابال).

جلست قربها لبرهة وهي لا تزال متوتّرة، الصّور التي شاهدتها منذ ساعات تتغلغل في هدوء والدتها وتسممه كأنها فراشة تضع بيوضها في تاج إحدى الزهور، لتفترسها اليرقات من الداخل فيما بعد.

في الفيلم الوثائقي يظهر رهبان وراهبات يتم طردهم من المعابد، وجوههم مليئة بالأسى والذل، كما لو كانت حفلة تنكرية انتهت بصدامٍ دامٍ. تنبعث من والدتها رائحة الصيدلية كالعادة، تضع يدها فوق ركبتيها وهي تمسك كأس الشاي البارد.

«سنتعشى حين تريدين، إن والدك سيتأخر قليلاً اليوم، أرسل لي رسالة منذ قليل» قالت أمها بعد أن ارتشفت من شايها.

«لِمَ تحبّين الأفلام الوثائقية التاريخية؟».

تنقصها المهارة في أن تكون ماهرة، توترها دل عليها، فندمت وأرادت

لأمها أن تشاهد الأفلام الوثائقية إلى الأبد وهي جالسة بنفس الطريقة. هي لا تكن لها العداء، لكنها تخافها وتشعر بأنها ستجلب لها المتاعب في المستقبل، تنظر إلى ردائها المهترئ وإلى عدم اعتنائها بجمالها، وإلى إفراطها في استخدام ووصف الأدوية، تتأمل شعرها المقصوص حديثاً، والذي لا يلق بها كثيراً.

«لا أدري لماذا أحب رؤية الصور القديمة، ربما تريحني مشاهدتا».

تشعر مارينا بالحرج من جراء لطف أمها هذا الدائم والفوري، فيها شيء كسول، فهي في العطل تنام كثيراً، ثم تستيقظ ببلاهة دون أن تدرك ما يدور حولها.

«شاهدت نشرة الأخبار منذ قليل وقالوا أنهم وجدوا جنيناً ملفوفاً بورق الجرائد ومرميّ في القمامة، جنين بشريّ» قالت وهي تنظر إليها لبرهة، ثم استدارت وتابعت مشاهدة وجوه الرهبان تلك.

«اعتقدت أن هذه الأمور لم تعد تحدث».

تناولتا العشاء بصمت، وظنت مارينا أنها إذا أخبرت أمها الآن بأنها رأت أباها مع إحداهن فإنها لن تحرك ساكناً، بل أنها على الأرجح ستكمل عشاءها ببطء. كانت هذه المرة الأولى التي تتألم بها من شدة براءتها.

التفتت أمها وكأنها تذكرت شيئاً وسألتها: «كيف تجري الأمور مع روايتك؟ هل بدأت بكتابتها؟».

بعد عدّة أيام قال لها رامون حزيناً: «لقد رفعوا درجة الدخول إلى كلية الصحافة، عليَّ أن أحصد علامات عالية الآن لكي أستطيع الدخول إلى الجامعة. هل سيأتي والدك الآن؟».

«كلا لن يأتي».

«متأكدة؟».

«بالطبع متأكدة».

التعاسة تزيد من جمال وجه رامون وتضيف على تفاصيله تعابير أكثر

حدّة، كانا قد مارسا الحب مرتين في الأسابيع الثلاثة الماضية، وخلالها أحست مارينا بنقرات واهتزازات دخلت بعدها في حالة من الذوبان البطيء. لرامون طريقة خاصة في النظر إلى جسدها العاري تدفع بها إلى المزيد من الحيرة التي يصعب التكهّن بحقيقتها، والتي تدوم لوقتٍ لا بأس به، أقرب إلى حساسية عالية وهشة من جرّاء أي تودد بسيط يقوم به معها.

يبدو أنها قد وصلت إلى النشوة الجسدية للمرة الأولى، فرامون الآن بدأ يتقن اللعبة أكثر بقليل، بدا الأمر أشبه بكرة ضخمة تتدرحج نحوها، ثم تستقر داخلها في نهاية المطاف. كرة مملوءة بالهواء سرعان ما تأخذ بالتقلص ويخرج منها الهواء شيئاً فشيئاً تاركاً خلفه إحساساً جميلاً.

أرادت أن تبكي فجأة، وأن تمسك بيديها وجه رامون الغريب هذا وتداعبه كأنه قطعة من الرخام تستطيع لمس سطحها الأملس لكنها لن تصل أبداً إلى داخلها. كان رامون في هذه اللحظات يدعها تراقبه ويتوقف عن الكلام فتأخذ هي في تأمل وجه: الجفون، الأنف، العيون، ثم رسمة الفم. وجه بشري يمكن لها مراقبته عن كثب، وجه لشخص منفتح ولا يكثر من الحسابات، وقد تحرر الآن أخيراً من كل ما كان يحميه في السابق. إنه كوجه الشقيق الآن، كلما أطالت التحديق به ازداد التشابه بينهما.

ثم جاءت الجملة التي قطعت عليها شرودها:

«سيسحقونني سحقاً مبيناً».

«عن ماذا تتكلم؟».

«عن امتحان الثانوية العامّة، لن أستطيع تحصيل علامات جيدة، أنا متأكّد».

للحظة معينة، أغرتها فكرة أن تفصح بكل شيء لرامون، أرادت أن تعرف الأثر الذي قد تحدثه هذه الكلمات في تعابير الوجه تلك، وكيف ستشعر هي لدى

إخباره. لم تكن تعرف كيف مرت الأيام مسرعة هكذا، فالأمر حدث منذ اثني عشر يوماً، أسبوعين تقريباً مرّا على رؤيتها لوالدها مع تلك الفتاة، كذلك أنها استطاعت نسيان الموضوع دون أن تقول له أي شيء، ودون أن تخرج منها أي سلوكيات أو تصرفات، أو ألّا يكون في كلام والدها و تصرفاته أي دليل أو فارق عن الأيام الطبيعية. إذا ما نظرت إلى الخلف واستذكرت جميع الأحاسيس التي انتابتها طوال هذا الوقت، لوجدت أن هذا الموضوع قد أفقدها وعيها بشكل جزئي.

لقد حلمت ثلاث مرات الحلم ذاته: كانت هي وأمها في المنزل وقد غادر أبوها للتوِّ، يرن الهاتف فتهرع أمها وتلتقطه بشكل مسرحي قليلاً، ثم تأخذ بالانتحاب قائلة: «لقد هجرني، والأمر جدي في هذه المرّة» ثم تسقط أمها مغمىً عليها وتنتفض هي لإغاثتها. لكن الحلم ينتهي بشكل غريب، فعندما تنحني هي لنجدة أمها تلحظ وجود ذعرٍ غير عادي على وجهها وكأنها من شدة إتقانها للدور تسبب لنفسها فعلاً بهجمة عصبية أدت إلى موتها المفاجئ. تستفيق مارينا دائماً من هذا الحلم منهكة ومرعوبة كأن أحداً ما يخنقها بكيس يحكم ربطه على رأسها. وجه أبيها في الصباح يوحي لها برابط وثيق مع الكوابيس التي تنتابها فتود تقليد أداء والدتها المسرحي. أن تنفجر في البكاء على الأقل، أو أن توجِّه إليه ضربات ولكمات في الوجه مثلاً، بقوة وصرامة إلى أن يمسك بها مدافعاً عن نفسه فتنظر نحو عينيه بكل ما أوتيت من عزيمة وتقول: (لقد أفسدت حياتي).

ظنت مارينا أنها الطريقة الأمثل لإخباره بأنه حول حياتها إلى جحيم، وأنها لن تستطيع إفساد المزيد؛ لأنه قد خسر تماماً ذلك التأثير الذي لطالما تحلّى به على حياتها.

لقد رأته مرة ثانية في المكان ذاته، كانت منغمسة في الحديث مع زوجين في الأربعين من عمرهم، تشرح لهم الفرق الشاسع بين حظهم وحظ تلك العائلة المسكينة السيرلانكية، وعن أن الأحرى بهم أن يكونوا مليئين بالإحساس

بالذنب حيالها، عندها رأت والدها مع الفتاة، وقد ارتدى والدها ذات الثياب التي خرج بها من المنزل في الصباح؛ قميصاً أبيض وبنطال جينز أزرق، أما الفتاة فترتدي ثوباً الآن. يمشيان بتوتر وتباعد لا يشبه المرة الماضية، تبعتهم من بعيد فلم تستطع معرفة ما إن كانا يتحدثان أم لا، وقفا أمام الباب نفسه ودخلا دون أن يكلم أحدهما الآخر.

انتظرته حتّى خرج من هناك جالسة القرفصاء في الزاوية، تسند نفسها على أحد جدران الساحة، اختارت التواجد في الظل، من شدة الحر. وكانت أيضاً تقرأ كتاباً شعرياً لسيلفيا بلاث كانت قد بدأته بحماسة عالية لكنها الآن تتململ منه:

الزنابق تثير الانفعالات؛ الشتاء هنا.

كل شيء أبيض وساكن، انظر إلى الثلج.

طال انتظارها أكثر من ساعتين تقريباً، ثم خرج والدها بهيئة حازمة، يتمشّى بطريقة تشبه تلك التي فاجأتها في المرة الأولى.أخذ قلبها يخفق بسرعة خيالية. تعرف جيداً ماذا تريد أن تفعل لكنها تجهل الكيفية التي ستفعله بها. تتلخص رغبتها في فعل ما هو مقتضب وحاسم. قادتها قدماها نحو باب البناء وراحت تنتظر خروج الفتاة. كانت على وشك الانسحاب طوال ربع ساعة وهي تقف هناك، أصرت على رؤية شيء ما، تحاول تصحيح مشاعرها لكي تفهم تماماً ما تكنّه لهذه الفتاة. تود مثلاً أن تعرف اسمها لتصل إلى الطريقة المناسبة في مخاطبتها، هل تكلمها بشكل هائج أم بذكاء وجاذبية.

دخلت البناء وبدأت تدق الأبواب، وفي المحاولة الثالثة أي في الطابق الثاني وتحديداً المنزل (ب) فتحت تلك الفتاة لها، كان من الواضح أنها ارتدت ثوب النوم على عجلٍ لكي تفتح الباب فقط، وأنها كانت تمكث في البيت دون ملابس فيما عدا الداخلية منها.

كانت جميلة جداً، لكن على نحوٍ خاضع، كأن جمالها هذا هو حصيلة

تلقائية متقطّعة لا تمتلك هي زمام أمرها ولا تستطيع السيطرة عليها. ببساطة هي فتاة جميلة ومبتذلة.

هي ليست ذكية بالطبع، لكنها حلوة التفاصيل، فكرت مارينا بكونها عارية تحت قميص النوم، فسبب لها الأمر حرقة في حلقها وبعض الإثارة. وانتابتها رغبة عارمة في تعنيفها أو ربما إخضاعها. هناك شيءٌ ما مسها وخرق غشاءً ما رقيقاً عندها لدى رؤيتها.

«هل تعرفين منظمة أطباء بلا حدود؟».

ثم ألحقت قولها بسرد الدعاية كاملة، كان الفتاة مشغولة بعدم رغبتها في أن يلمحها أحد الجيران فلم تطردها.

«هل تمانعين الدخول إلى البيت قليلاً؟» علقت بلهجة بدت لمارينا من مقاطعة غاليثيا، تأكدت أنها على الأقل ليست من مدريد. أكملت الفتاة: «كنت أرتدي ثيابي في الحقيقة».

«بالتأكيد» أجابت وهي تقوم بالدخول، توجّهت الفتاة نحو ما بدا أنه غرفة النوم وأكدت نها ستغيب لثوانٍ قليلة. وبدأت مارينا تتأمل غرفة الجلوس في هذا الوقت القصير الذي لم يتجاوز تلك الثواني فعلاً، هنالك رفوفٌ وضعت عليها كتب، وأريكة أمامها طاولة وضع عليها فنجانان من الشاي وصحن سجائر يحتوي على ثلاثة أعقاب. شعرت أنها قد خسرت أسلحتها من مجرد الدخول إلى المنزل. كلّ شيء بدا مؤقّتاً ولحظيّاً، من الواضح أنها تعيش بمفردها، ولم ترَ مارينا بحياتها بيتاً كهذا، لهذه الفتاة طاقة ضعيفة لا تقوى حتّى على خدش ورق الجدران. عادت بعد برهة وهي ترتدي التنورة ذاتها التي شاهدتها فيها المرة الأولى، وهكذا استرجعت مارينا على الفور سحر الحدث في وقعه الأول، توترت عندما خاطبتها الفتاة:

«اعذريني فإني لم أستطع الاستماع إلى ما قلته في السابق».

أخذت في إعادة الحاشية، وبصوت مرتجف أخبرتها أن سعر قهوة واحدة

في اليوم كفيل بإعالة عائلة كاملة في سريلانكا وهي تفكر في خلدها؛ (كم يكون عمرها؟؟ ثلاثين أم أكثر بقليل) حتّى أن هذه العائلة السيرلانكية فقدت فجأة هيمنتها على الحديث وأصبحت عبثيةَ المعنى، واتسخ لطفها الشديد، وضاع لباسها التقليدي وأسلوب حياتها المعتمد على زراعة قصب السكر. تحاول أن تبتسم لكن الحرقة في حلقها تحيّرها كأن أمراً ما هزها من الداخل دون سابق إنذار وأدخل الخوف إلى قلبها.

«هل أنت على ما يرام؟».

«لا».

«هل تريدين كأساً من الماء».

«نعم من فضلك، فقد أمضيت اليوم بأكمله هناك في الشارع. أعتقد أنني أشعر بالغثيان».

«حسناً اجلسي هناك».

جلست قبالة كأسي الشاي الفارغين والموضوعين على الطاولة، كانا يشبهان ما هو مجرّد وعارٍ. كأس منهما كان لأبيها، ظلت تردد هذه الفكرة في رأسها محاولة استحداث أية ردة فعل لكن أمراً لم يكن يحدث.

لم تعرف ما الذي توقعته فعلاً حينما دخلت إلى هذا البيت. فإن الأمور تجري بأفضل بكثير مما توقّعت: فهي لم تتخيل نفسها في أحسن الأحوال هناك مع الفتاة داخل منزلها، تصورت مثلاً أنها واقفة على الباب تحاول التلصص من بين رأس الفتاة وكتفيها علّها تجد بقايا حدثٍ يوصلها إلى تخمين ما. لكنها في الواقع وصلت إلى الداخل دون أي عناء يذكر، بل واستراحت في غرفة الجلوس فوق الأريكة التي أغلب الظن أن أباها مارس الحب مع الفتاة عليها، وهي علاوة على ذلك تنتظر أن تجلب لها تلك الأخيرة كأساً من الماء. لم تعرف في الحقيقة ما توجب عليها فعله، الوضع هزيل وغير مؤذٍ على الإطلاق، وهذا ما أفقدها كل الدوافع، وأخذت تتساءل

وهي تنظر إلى فنجاني الشاي: (هل كان مللاً، أم حكمة؟ أو ربما يكون حبّاً سيملأ هذه الرفوف الفقيرة بالكتب، وحياةً ستملأ التنورة التي ترتديها هذه الفتاة)، عادت مع كأس الماء وشعرت مارينا بالحر يزداد فشربت الماء دفعة واحدة دون توقف.

«هل تريدين كأساً آخر؟».

«لا شكراً».

يحرجها لطف الفتاة الزائد، وخجلها وهي تقف أمامها وكأنها ممرضة تعتني بمريضٍ ما في أحد المشافي. كانت حزينة فوق كل شيء.

«أحياناً ألمحكم حين أمر في الساحة، كيف باستطاعتكم تحمل الحر وأنتم واقفون طوال اليوم هناك؟» قالت الفتاة في محاولة لكسر الصمت.

«أنا أتواجد في الصباح فقط» أجابتها وهي تنهض فقد بدا الوضع لها غريباً وهي تتحدث جالسة مع أحدٍ يقف أمامها ويبدي الرغبة بالجلوس، لكن الفتاة وضعت يدها على ذراعها بنعومة تاركةً أثراً كهربائيّاً لطيفاً وعلّقت:

«لا تنهضي، ارتاحي قليلاً».

«لا شكراً، إنني أشعر بتحسن الآن، أريد المغادرة».

«متأكدة؟».

«أجل».

«يمكنك البقاء إن أردتِ».

«عليَّ الانصراف».

رافقتها إلى الباب، وحين اقتربت منها استطاعت تمييز رائحة جنسية، كما لو أنها بخطوة واحدة عبرت إلى مكان خاصٍّ وحميمٍ للغاية، وانتابها إحساسٌ بأن جدران المنزل اقتربت منها لتعانقها.

«حسناً سأرحل، وداعاً».

«ألن تتركي لي حتى إحدى الأوراق الدعائية هذه؟».

«آه، نعم بالتأكيد».

ابتسمت الفتاة. وارتجفت يد مارينا وهي تضع يدها في حقيبتها لتخرج تلك الورقة، تتذكر رفرفة تنورة الفتاة وهي تمسك بالورقة وتلقي عليها نظرة خاطفة بدت غريبة بعض الشيء؛ لأنها استطاعت من خلال هذه النظرة أن ترى محتويات الورقة تنساب من عينيها.

«لطالما احترمت عمل هذه المنظمة، ربما ينبغي عليَّ التبرع لهم يوماً ما».

«نحن موجودون على الدوام في ساحة كايّاو، شكراً على الماء» علقت وهي تنصرف نحو السلالم، كان جل خوفها يكمن من أن تقبلها تلك الفتاة مودّعة.

«ما هو اسمك؟».

«مارينا».

«أنا أُدعى ساندرا».

هبطت السلالم وهي تردد اسم الفتاة دون توقف: «ساندرا، ساندرا، ساندرا».

فكّرت في الأمر لاحقاً، بعد أن ابتعدت عن البيت حوالي المئة متر تقريباً، وكانت قدماها لا تزالان مرتعشتين: لم ترغب ساندرا لها أن ترحل من هناك، بدت بحاجة للحديث مع أحدهم، مع أيٍّ كان، أرادت أن تقول ما يشغل بالها. ثم تذكّرت شيئاً فشيئاً تفاصيل لم تستطع إدراكها عندما كانت هناك؛ ساندرا مثلاً لم تكن ترتدي أية حمالة صدر تحت ثوبها، ظل نهداها الطريان المرسومان، رائحتها الجنسية الرعناء، ثم لطفها الزائد. بعودتها إلى الشارع العام بدأت الحياة تعود إلى واقعيّتها، الناس منهكون ومتعرقون من حولها. خطر لها عندها ما لم تفكّر به من قبل: لابد أنها كانت هي حاضرة في مخيلة ساندرا قبل الدخول إلى بيتها، وأن أباها كان قد حدّث ساندرا عنها، ثم راحت تتساءل غارقة في عقلها، كيف كانت ساندرا لتتخيل هذه الفتاة ذات الستة عشر عاماً؟ وكيف تخيلت أمها؟ ثم انتقلت إلى صورةٍ

أخرىٰ: صورة أبيها فوق ساندرا وصورة وجهه الغائص في هذين النهدين الطريّين، وهي تقول له ريثما تداعب شعره: (يمكنك البقاء إن أردت). لقد سمعت هذه الجملة من قبل؛ في أحد الأفلام الإباحية التي شاهدتها عبر الإنترنت، سبق ذلك تعرفها علىٰ رامون، عندما كانت تستطلع وحسب. أثار وقع هذه الجملة بالذات فيها شهوة مفرطة، والآن تكرر الأمر وخصوصاً عندما تفكر بفم ساندرا الذي خرجت منه هذه الكلمات، لكنها شهوة في غير مكانها، إثارة لا تتماشىٰ مع إرادتها، فهي حبيسة غريزة أنثوية لكنها في الوقت نفسه حيوانية وتدعو إلىٰ القلق.

هي ذاتها أرادت أن تقول الكلمات هذه لأحدهم، أن يستسلم كيانها لرغبته بالكامل، وأن تكتفي هي بالتوغل في العبثية واللاجدوىٰ. لكنّ المشهد أكثر واقعية من ذلك؛ الطاولة الصغيرة، ثم فنجانا الشاي الفارغان، وتلك الرفوف نصف الفاغرة التي تبدو أشبه بصحراء موحلة، حر مدريد الذي يتسرب عبر النوافذ، ونهدا ساندرا اللطيفان اللذان يقفزان بتناغم مع كل حركة تقوم بها، وأخيراً، الفرصة التي ضيّعتها في أن تتسبب لها بالأذيّة حين كانت جالسة علىٰ تلك الأريكة، والأرجح أن ساندرا كانت فعلاً تنتظر الألم.

سُحق رامون في الامتحان، انتظرته أيام الامتحانات خارج المدرسة، يخرج مصفر اللون في كل مرة، وفي إحدىٰ هذه المرّات أخذ يركل سلة المهملات بقوة حتّىٰ حطمها بالكامل، ثم راح يشتم ويؤكد أن الأمر برمته لا يهمّه. يهدأ بعد ذلك ويتحول الاصفرار إلىٰ احمرارٍ خجل، يبدو كولد صغير خصوصاً عندما كاد يبكي وهو يشرح لها كيف أنه اخترع إحدىٰ الإجابات من الألف إلىٰ الياء من بنات أفكاره.

شعرت مارينا هي الأخرىٰ بعدم الرضا، كانا جالسين في حديقة صغيرة أمام منطقة الجامعات، يدخنان السجائر، أرادت لو أنها تنهض وتسدد له ركلة قوية أو أن تصفعه مثلاً وتقول له: (إن ذلك يكفي). لا تتعاطف معه، سيما عندما تشعر بأن حلقه يؤلمه من جراء التفكير في أنه لن ينجح في الامتحان. خطر لها أنه

ربما لو مارسا الحب سيتحسن الأمر، لكنها الآن لا تشتهي ذلك البتّة. حافظت على مسافة معينة بينهما وهي تراقب بدقة وجه رامون الذي يبدو غريباً الآن، تنظر إلى ذراعيه، ثم إلى فمه الجاف.

«أنت إنسانة رائعة» قال رامون وردَّت هي كأنها تعرضت للشتم:

«أنا لست رائعة».

«بلى، هذا رأيي».

شعرت مارينا أن كل شيء سقط فجأة:

«أنا سأرحل».

«إلى أين؟».

«إلى المنزل».

«هل أرافقك؟» علق رامون وعندما لم يسمع منها أي إجابة أضاف: «حسناً سآتي معك».

وبعد ساعة أخذا يخلعان ثيابهما في مكتبة الوالد، فكرت هي بساندرا للحظات عندما دخلا البيت، ثم بدأت بالتفكير بوالدتها، وبعدها اكتشف ما لم يكن في الحسبان بعد استذكار ملامح وجهيهما: إن أمها وساندرا متشابهتان. ليستا متطابقتين تماماً لكنهما نسختان مختلفتان للمرأة ذاتها، تلك المرأة المنصاعة التي يبدو أنها خلقت لكي تطيع الرجال.

رامون يغازلها بكسل وبلادة، وعاد فجأة للاصفرار كما في السابق عندما خرج من الامتحان، كان مستلقياً على السرير الصغير المتواجد هناك. هي أرادت أن تفعلها معه وأن تعيش الحدث للمرة الأخير ربما، فتكون وداعية، لكن شيئاً ما تغير فجأة وبدأ جسدها يصدر حرارة حميمة، وارتسمت دون قصد منها ابتسامة عريضة على وجهها.

«تحبين النكاح أليس كذلك؟».

«ماذا؟».

أجابته بغضب فاحمر خجلاً على الفور، ثم أحس بالذنب وكأنه يخاف أن تهرب منه.

تتذكر أنه كان يضع بثقل جسده الكامل فوقها، ويحكم لف ذراعيه حولها مثبتاً، ثم تذكر أن رامون ضرب رأسه بالرفوف الموجودة فوق السرير وهو يتحرك فلم تستطع هي ضبط نفسها وأطلقت ضحكات أثارت فيه الغيظ، بدا كطفل نال ما ناله من شديد العقاب والتوبيخ في يومٍ واحد، ثم انفجر في النهاية صارخاً وباكياً.

«ستسكتين الآن» قال بصوت مخنوق وغير مسموع.

«ماذا قلت؟».

«سألتك إن كنت ستسكتين الآن» قال وهو يرفع رأسه وقد امتلأت عيناه بالخوف يستجدي من خلال نظراته الغفران. ثم أخفى وجهه بكتفه مبعداً نظره.

ظلت هي ساكنة دون حراك خلال دقيقة كاملة، تستشعر ثقل رامون الملقى فوقها، ربما كانت كلمة (التحمل) أقدر على التعبير، نعم كانت تتحمل وزنه. لم تكن حزينة؛ لأنها لم تكن أصلاً هناك، كمن لا ينام لعدة أيام ويبدأ بالغياب عن الواقع وعن الوعي. أصابها الجمود في حين أن رامون يتحرك بنشاط وشهوانية، كان أشبه بولدٍ يفعل كل ما في وسعه ليكسر لعبة أعطيت إليه، لكن اللعبة كانت أقوى مما تصور ففقد الأمر متعته دون أن يمنعه من ضرب اللعبة مجدداً بلا توقّف. رفع رأسه بحركة خاطفة، فأخذت هي تتأمل وجهه الذي مُسحت تعابيره وغدا أشبه بوجوه الرياضيين، مركّز وغير واقعي، ويعبر عن تدفق الأدرينالين الذي لا يتوقف. ثم فجأة دفعها بقوة نحو السرير وأمسك رأسها ووصل إلى نشوته، ثم بقي ساكناً يتصبب عرقاً.

«انهض، أنت تثقل عليَّ».

نفذ رامون ذلك على الفور ودون أن يعلق، جلس على السرير يستعيد

تنفّسه تدريجيّاً، كان من المستحل التنبّؤ بما يجول داخله، ولم تكن هي مهتمّة من الأساس في معرفة ذلك، لكن كل شيء يجري من حولها يقودها إلى حقيقة ما تتركّز بساندرا وأبويها البعيدين نسبياً الآن عنها. لم تكترث لخجل رامون أو لحزنه، لم تودّ إزعاجه أو التسبب له بالأذى، أرادت ببساطة أن ينصرف من هناك.

«ارتدي ثيابك، أريد الذهاب إلى البيت».

التفت رامون إليها وهو يحاول استسماحها، فتح عينيه ما استطاع ووضع يده على ذراعها ببطء، لكنهات نهضت وارتدت ثيابها على عجلٍ وبقي هو شارداً لا ينظر إليها. ارتدى ثيابه هو الآخر دون سرعة وقبل أن يخرج فتح الباب ثم استدار نحوها وسأل:

«هل ستسامحينني؟».

«هل سأسامحك؟».

بالنسبة لها، لم يكن هو موجوداً أصلاً. فكيف لها أن تسامح أحداً لا وجود له؟

لكنه في الواقع واقف هناك، بجلده ولحمه وشعره الأشعث، وبكتفيه القويين وعجزه الكامل أمامها.

«نعم، سألتك إن كنت ستصفحين عنّي؟».

لا تذكر ما كان جوابها تماماً عندها، لكنها تذكر أنه رحل، وأنها صعدت إلى البيت وألقت التحية على أمها وقبلتها، ثم حبست نَفَسها في الحمام وخلعت ثيابها، واندست أخيراً تحت الماء لتستحم.

بعد مرور أسبوع على هذا، لم تستطع تحديد ما إن كانت سعيدة أم لا، لم تشتق حتى لرامون، وبالنادر ما ترغب بالقراءة. تذهب في الصباح إلى ساحة كايّاو للعمل كمتطوّعة، وفي المساء تذهب إلى مسبح إحدى الصديقات. حيث تستلقيان للتشمّس وتتحدثان قليلاً، وللمسبح قدرته على جعلهما تسترخيان كأنه كائن ذو روحٍ تفوح منه رائحة الكلور.

يكتب رامون ثلاث أو أربع رسائل يوميّاً، بعضها دافئ: (اشتقت لك)، وبعضها فيه محاولة ليرضي نفسه: (أنتِ تعرفين أنني لن أؤذيك في حياتي)، وأحياناً أخرىٰ تكون معبأةً بالذنب: (أنا لا أكف عن التفكير بالأمر)، وفي بعض الرسائل يقدم لها المعلومات: (لقد بدأت بالدراسة، سأخوض الامتحان التكميلي في أيلول). الأمر أشبه بسرد تدفق حياته كمن يضع إصبعه علىٰ وريد شخصٍ آخر ليصغي إلىٰ دقات قلبه وتدفق الدم فيه. لم تجب علىٰ أي من هذه الرسائل، لكنها احتاجتها لتقيس الزمن تقريباً، أو لكي تعرف متىٰ ينتهي هذا الأسبوع، ويبدأا الأسبوع القادم والذي ستذهب فيه إلىٰ الإجازة الصيفية مع والديها اللذين استأجرا منزلاً في مدينة سانتاندير.

لم ترَ أباها مع ساندرا مجدداً، لكنها رأتها مرةً هي وحيدة تحمل أكياس التسوق، تعرفت عليها ساندرا واقتربت منها:

«هل تتذكرينني؟».

«بالطبع».

«أنا أراك دائماً حين أعود إلىٰ البيت».

لم تتوتر في هذه المرة، وبدت رؤية ساندرا لها عادية، لم تتضايق حتّىٰ من تحديقها بها. ساندرا أكثر حزناً وصلابة الآن، ترتدي بنطال جينز وقميصاً عاديّاً وقد وضعت القليل من الكحل علىٰ عينيها، بدا واضحاً أنها أكثرت من الشرب ليلة الأمس، لكنها رغم ذلك لا تزال نضرة. سألتها إن كانت تقنع الناس بحملة أطباء بلا حدود جيداً اليوم، فأجابتها هي بالنفي.

«خذي معلوماتي إن شئت، هكذا علىٰ الأقل يكون لديك متطوع اليوم».

تبتسم ريثما تسجل هي معلوماتها، وعندما تلت عليها رقم هاتفها وعنوانها أحست هي بأن أباها قد هجر ساندرا لسبب ما لا تعرفه لكنها متأكدة من الأمر. لا تدع مجالاً للشك أنه تخلّىٰ عنها دون أن تقترف ساندرا أي ذنب.

وهي أيضاً لم تتصرف على نحوٍ دراماتيكي بعد ذلك، ولم تتبعه أو تتصل به في الرابعة صباحاً أو ترسل له الرسائل.

لأن كل هذا ببساطة لا يشبه شخصيّتها، من المؤكد أنها بكت كثيراً ولامت نفسها على الدخول في علاقةٍ مع رجل متزوّج. أخذت مارينا تفكّر: لابد أن الأمر جرى منذ أسبوعٍ تقريباً، ربما في نفس اليوم الذي دخلت فيه إلى بيتها، أو بعده بقليل. إنها الآن توحي بأنها قد هجرت للتو، مزيج بين عزّة النفس والكآبة الحادة، بدت أجمل من التصور، لكنها لم تَعِ ذلك، تضع القليل من عطر حلو.

«إنني لا أعرف رقم حسابي المصرفي».

«لا يهم، هذا رقم حساب المنظمة، يمكنك تحويل المال إليه».

«حسناً».

«يعجبني عطرك».

ألحت عليها الحاجة لكي تقول لها ما هو لطيف، أي مدحٍ أو إطراء كان ليفي بالغرض.

«شكراً لك، لقد أهداني إيّاه صديق لي، لا أعرف إن كنت أحبه أم لا، إنني نادراً ما أضعه، أليس هذا غريباً؟».

«لا» علّقت مارينا.

«في الحقيقة لست معتادة على وضع العطر، أحياناً أشعر أنه يفوح مني ويملأ الشارع».

«حدث معي ذات الشيء، فقد أهداني والدي زجاجةعطرٍ وكانت رائحتها تخترق أنفي وتستقر في دماغي، حتّى ظننت أنني لن أستطيع أن أستنشق أية رائحةٍ بعدها».

ضحكت ساندرا بثبات وثقة بالنفس، وبدا أن وجهها لا يستقيم إلّا إذا ضحكت. الأمر غريب ولطيف، الاثنتان تتحدثان وتضحكان. بدت هي سعيدة

لدىٰ معرفتها بأن أباها قد انفصل عن ساندرا وسبَّب لها الحزن، وأنها الآن تستعيد عافيتها. تنتبه إليها فتجد أن جسمها يتحرك باسترخاء، كمريضٍ يحاور جسده ويقنعه بأنه في حالة جيدة من الخارج وهو يدرك أن داخله مليء بالعلل. ظنّت أنها تفهمها جيّداً.

«هل نجلس في أحد الأماكن، هكذا تدعينني أنتِ لتناول المياه الغازية وأستطيع الهرب قليلاً من العمل».

أجابت ساندرا بابتسامة عريضة: «بالتأكيد».

فكرت هي في نفسها دون شفقة في أن ساندرا وحيدة للغاية إذن.

سارتا سوية حتّىٰ وصلتا إلىٰ أحد المقاهي فجلستا مدة لا تتجاوز الربع ساعة، ثم توجب علىٰ ساندرا الذهاب؛ لأنها قالت أن لديها موعد ما، شعرت هي أنها تكذب، لكن الأمر لم يزعجها. تحدثتا بشكل عابر مليء بالمجاملات. تحدثت ساندرا عن عملها في إحدىٰ الصحف وادّعت هي عدم إلمامها بالموضوع، بل ومثلت اهتماماً بالغاً.

اعترفت لها بأن حلمها يتمثّل في أن تصبح كاتبة، وأنها ستبدأ في الصيف في كتابة روايتها الأولىٰ، ثم أخبرتها عن قصة المستنقع الذي يتوقف فيه الزمن وأخذت تخترع قصص أبطالها خلال الحديث، ومن ضمن هذه الشخصيات أتت بقصة رجلٍ يخون زوجته مع امرأة أخرىٰ. لكن ساندرا لم تحرك ساكناً، ولم تبدِ أية ردة فعلٍ تذكر.

«هل تريدين أن أخبركِ بقصة قد تنفعكِ في روايتكِ هذه؟» سألت ساندرا.

«أجل».

«إنها قصة صديقةٍ كانت علىٰ علاقةٍ برجلٍ متزوّج».

تقرّب منها ساندرا من تحت الطاولة حتّىٰ تلامست ركبتاهما بالكاد، ثم

تحركت مصححة جلستها واستندت إلى ظهر المقعد، أرادت أن تجلس في وضعية مريحة خصيصاً لتروي هذه القصة، وظلت تبحث عنها كأنها في حلبة ملاكمة. لغتها ليست حزينة إنما ساخرة.

«صديقتي عرفت منذ البداية أن الرجل متزوّج، وأنه ليس وغداً، كما أنه ليس تافهاً البتة. كان رجلاً وسيماً. تعرفا إلى بعضيهما في المكتب، لم يحاول هو في البداية مغازلتها أو التقرب منها، يكتفي بالجلوس ومراقبتها دون كلام، ثمّ بعدها خرجا في يوم من الأيام حين أنهيا العمل لاحتساء شيء ما، وتحدث هو طوال الوقت، اعتقدت صديقتي في البداية أنه عجوزٌ بعض الشيء لكنه أعجبها، فهي قد وصلت للتوِّ إلى مدريد ولم تتعرف إلى أحد بعد. انتهى بهم الأمر في الفراش، يلتقيان كلما سمحت لهما الفرصة بذلك، غالبية المرات يلتقيان في بيتها، بعد العمل.

لا يتحدّث عن زوجته أبداً، وفي مرة من المرات سألته صديقتي عنها فقال أنه يحبّها. في إحدى الأمسيات كانا قد مارسا الحب، وفعل هو أمراً غريباً، حيث أخذ يداعب حاجبيها بسبابته وهو يمررها على طول حاجبها من البداية وحتّى النهاية، فشعرت هي بقرف قوي وفجائي، لم تدرك السبب لكن الأمر أثار قرفها إلى حدّ لا يطاق.

«لماذا؟».

«في بادئ الأمر لم تعرف، لكنها اكتشفت فيما بعد أن هذا الرجل يفعل ذات الشيء مع زوجته... الحركة عينها، هل تفهمين؟».

«نعم أفهم».

«لقد كان فعلاً يفعل هذا مع زوجته بعد أن يمارسا الحب، وطلبت صديقتي من الرجل أن لا يكرر فعل هذه الحركة معها أبداً. ثم بدأت هذه العلاقة برمتها تسبب لها القرف. مارأيك؟؟ هل تعتقدين أنه بإمكانك الاستفادة من القصة؟».

«لا أدري».

«اكتبيها، بالنسبة لي هي قصة مهمة للغاية».

«إنّها جيّدة».

«عليَّ أن أرحل الآن، سنلتقي يوماً ما في الأرجاء» قالت وهي تنهض وتلملم الفكة التي أعادها لها النادل.

«لا أعتقد، فأنا ذاهبة في إجازة مع عائلتي».

«آه، كم أنت محظوظة».

«أجل، سنذهب إلى مدينة سانتاندير».

«ممتاز».

ساد عدم ارتياح الأجواء، وأحستا بضرورة الفراق، قبلة ساندرا كانت كسولة وقليلة الحماس، رحلت أخيراً، وادعت مارينا أنها تستدير لكي تعود إلى الساحة، ثم التفتت مجدداً لتلقي عليها النظرة الأخيرة. أسلوبها في المشي جافٌّ وحاد، ورائحة عطرها لا تزال تفوح من خلفها بكثافة.

البيت الصيفي رائع حقّاً، وهو موجود خارج القرية، على بعد عشرين دقيقة من الشاطئ تقريباً، أخذوا معهم حقائب الثياب، وحقيبةً مخصصةً للكتب.

يستغل أبوها عادةً فترة الصيف ليقرأ كتباً سميكة لا يملك لها الوقت خلال العام. لاحظت مارينا أن ثلاثتهم بدوا منهمكين في التفكير طوال الرحلة في السيارة أكثر من المعتاد، أخذ والداها يتجادلان لمدّة ساعة بسبب أن أمها نسيت أن تشتري زجاجة من الماء عندما توقفوا في محطّة الوقود. تجلس هي في المقعد الخلفي وتراقب يدا أبيها التي يمسك المقود بهما، وتراقب طرف وجهه بالمرآة. لم يكن والداها دائمي الشجار، لكنها تعتقد أن أمها غدت أكثر غباءً وغير قادرة على معالجة المعلومات، وأن أباها دخل في إصرارٍ حلزوني وأخذ يعيد الجمل نفسها مراراً وتكراراً.

عاد الشجار مجدداً لدى وصولهم إلى القرية، هذه المرة بسبب أنهم لم يستطيعوا إيجاد الطريق المؤدية إلى البيت الذي استأجروه.

وصلو بمزاج معكر إلى حد أنهم رغبوا بالعودة إلى مدريد عوضاً عن إمضاء الإجازة.

أرسل لها رامون رسالة: (ألن تسامحينني طوال حياتك؟).

مرت الأيام الثلاثة الأولى بصعوبة شديدة، وكأنهم حين يستيقظون يعانون من وجود أغلالٍ افتراضيّة، تدفعهم إلى الادعاء واكمال هذه العبء الثقيل، أن يختلقوا مثلاً آليات للتصييف عبر الذهاب إلى مغامرات شاطئية كوظيفةٍ إجبارية، ثم السردين المشوي، وبعدها اللعب بالقرص الدوار في المساء. يمضي والدها معظم وقته في القراءة، بينما تستخدمها أمها كمرافقة في التبضّع والتسوّق من المنتجات المحليّة للمدينة. وأما البيت الذي استأجروه فكان ساحر الجمال إلى درجة بدا فيها أثره الجميل يطغى على بعض المنغّصات. في البدء لم ينتبهوا إلى ذلك، وواصلوا سلوكهم الأعوج والصاخب، هم لا يتحدثون كثيراً، وعندما يفعلون ذلك، تكون جملهم مختصرة وبلا معنى، وكأن ذهن كل واحد فيهم يسرح في مكان منفصل. لكن جدران البيت وممراته تجمعهم رغماً عن إرادتهم وبشكل فعّال. بعد اليوم الرابع أخذوا يسترخون أكثر، فراحوا ينظرون إلى بعضهم ويبتسمون بين الفينة والأخرى.

«إن هذا المكان جميل إلى أبعد تصور، أظن أننا حتّى إن عدنا إليه ثانية لن يكون بهذه الروعة» تعلق أمها، التي وهي في أوج تفاؤلها لا تزال تؤمن بالقضاء والقدر. يضحك أبوها بانطلاق وتهرب منه بعض التعابير التي ظهرت عليه وهو يقبِّل ساندرا.

يبدو أن الزمن قد عبر عليه، وكأنه منتهي الصلاحية، تحاول هي استذكار حبها القديم له، والذي لا يجدي نفعاً الآن. بدا الأمر كأنه جسر مكسور يفصلها عن اليابسة البعيدة.

كان قد ولد وترعرع في سانتاندير، وهذا ما يجعل من تواجده هناك ذا نكهة

خاصة، ويذكره بالعديد من الحكايات التي تحاصره أينما اتجه فيقصها من وقت لآخر، يكون منغمساً في القراءة، ثم ينزل الكتاب فجأة ويقول: «أذكر أنه....»

أما أمها فقد غرقت في زراعة بعض البذور في البستان التابع للبيت، كرست نفسها لهذا الأمر بطريقة معينة لا تستطيع فعلها إلا امرأة منحدرة من إحدىٰ المدن. فهي تخرج في الصباح المكبر إلىٰ الحديقة وبيدها كأس الشاي وكأنها تنتظر في سرّها أن تنمو النباتات بين ليلة وضحاها أو أن تجد فجأة ثماراً تأكلها كانت قد زرعتها مساء الأمس. تساعدها مارينا، وتفكّر برامون. غالباً ما يكون تفكيراً شهوانياً؛ لأن التواجد هناك وسط كل هذا السلام يثير فيها هيجاناً فجائياً. تندس في السرير بعض الليالي وتمارس العادة السرية، وينتابها إحساس بالكبر والنضج، ثم تنام مسترخية مع نسائم الليل العليلة التي تدخل من النافذة مصدرةً صوت حفيفٍ يوحي بأن يداً عملاقة تداعب الأشجار في الخارج.

ذهبت في إحدىٰ الأمسيات لصيد السمك مع والدها، اشتريا قصبات صيد سياحية واتجها إلىٰ الرصيف البحري، استطاعت هي اصطياد سمكة فضية متناهية الصغر، شعرت بحزن وتوتر في معدتها فأمسكت بالسنارة وراحت تحاول التقاط الخيط لكي تصل إلىٰ السمكة التي تتخبط وتتأرجح بعصبية كبيرة، ساعدها أبوها في تحريرها حيث أحاطها بذراعيه، شعرت هي بوزنه، وارتفع توترها وقد انتظرت والدها الذي استطاع أخيراً الإمساك بالسمكة، ولكن الأوان قد فات والسمكة ماتت، فأعادها ميتة إلىٰ الماء، وبقيت طافية علىٰ السطح بعين صغيرة جدّاً تنظر نحو السماء. ادعيا هما عدم النظر لكن الأمواج كانت تدفع بها أقرب وأقرب باتجاههما.

فكرت مارينا أنها اللحظة المناسبة لأن تقول له، أن تخبره بالأمر وأنها تعرف كل شيء. إنها للمرة الأولىٰ تشعر بالرغبة بإطّلاعه علىٰ الموضوع، ربما أرادت أن تبدو راشدة وناضجة أمام أبيها، وربما أرادت التواطؤ معه.

إن مجرد التفكير البسيط بالأمر دفعها إلى ارتباك شلَّ قدرتها على الحركة أو الكلام عدة دقائق.

«أذكر أنه قبل أن أنتقل للعيش في مدريد، وفي هذه القرية بالذات كان لي قصة حب عندما كنت في التاسعة عشرة من عمري».

التفتت إليه لترى على وجهه الملامح ذاتها التي تظهرعليه عندما يقص عادةً ذكرياته ولم تكن المرة الأولى التي يتحدث فيها عن علاقاته السابقة. اعتادت على سماع والديها في البيت يتحدثان عن العشاق القدامى من حين لآخر بحرية كسولة.

«كانت فتاة ريفية جميلة جدّاً، وخجولة أيضاً... كيف كان اسمها؟؟؟».

ظل ساكتاً لبرهة يتأمل السمكة الطائفة على سطح الماء وكأنها سترد عليه سؤاله.

«لا أعرف لماذا أخبرتها أنني أردت الزواج منها، وقبل الذهاب إلى مدريد عدت إلى سانتاندير وكات كل شيء قد أضحى بلا معنى، وقد أصبت بخجل كبير من أن أتصل بها ببساطة وأقول لها أنني راحل، أو أنني لم أعد أحبها على الأقل كتبت لها رسالة فيما بعد وأخبرتها أن مرضاً مريباً أصابني، مرضٌ جلدي عضال وقاتل، وأنه ليس بيدي أي حيلة».

صمت بعدها مبتسماً وكأنه سيطلق ضحكةً كبيرة.

«كيف كانت تدعى؟» عاد ليسأل السمكة.

«وماذا حدث بعد ذلك؟».

«ذهبت إلى مدريد وبعد أسبوعين اتصلت بي جدتك لتخبرني أن فتاة ما أتت إلى البيت تسأل عني، وقالت أنها لا تكترث لهذا المرض وأنها تريد إمضاء ما تبقى من حياتها معي رغماً عن المرض.... ما رأيك؟».

«لا أعلم».

«ألا ترين الأمر جميلاً؟».

«بلى».

«لا أتخيلها خرجت من هذه القرية، مستقلة الحافلة ومتوجّهة إلى سانتاندير، ثم أن تذهب إلى بيتنا وتتحدث مع أمي!! لا أعلم، كانت خجولة جداً».

اشتريا نبيذاً أبيض فاخراً وبعض الأسماك واتجها إلى البيت، ثم تحدثوا كثيراً وشربوا الزجاجة كاملة قبل الشروع بالعشاء، واحتسوا زجاجة أخرى أثناء تناول الطعام. وضعت أمها بعض الموسيقا، ويبدو أن قصة هذه الفتاة ساعدك أباها في الدخول في مزاجٍ جيد. لا تتذكر مارينا جيداً هذه الليلة لكنها تذكر بعض التفاصيل خلالها، الأصوات التي يحدثها تدفق الهواء من الجانب الآخر للحديقة، وفستان أمها الصيفي، ورائحة المستحضرات الواقية من الشمس. إن أباها وضع لنفسه كأساً من الويسكي، ثم قدم لها كأساً وإن أمها أثارت له فضيحة مدويّة. تتذكر أيضاً أنهم خلدوا إلى الفراش دون لملمة وتنظيف البيت، وأنها سمعت أبويها يضحكان طوال الليل في غرفتهما، ثم صوت أمها وهي تخرج باتجاه الحمام وبعدها تعود إلى الغرفة وتغلق الباب وتتهامس مع أبيها.

شعرت أن أباها لا يعير الكتاب الآن الأهمية القصوى، وأنه يفتح آذانه ويصغي أكثر، أحست لوهلة أن أحداً منهما يتعمّد التسبب بالأذية للآخر، لكن وبعد ذلك ظهر صوت موسيقا متدفقة بوتيرة لا تتوقف.

في الصباح استيقظت ومشت في الممر من أمام غرفة والديها التي كانت مفتوحة قليلاً، لم تكن المرة الأولى التي تراهما نائمين فيها، لكنها لطالما أحست بقوة ما تدفعها إلى غض النظر وعدم التمعن في المشهد، وهذا ما فعلته الآن، دخلت الحمام ثم توجّهت إلى المطبخ، لكنها سرعان ما عادت إلى سريرها بسبب رائحة الصحون والسمك التي تركوها ليلة أمس، قررت الاستلقاء وقراءة كتاب

ما ريثما تستيقظ والدتها وتنظف الصحون. عادت من الممر ووقفت أمام باب غرفة والديها وظلت واقفة هذه المرة.

فتحت الباب قليلاً دون إصدار أي صوت، وهذا دفعها إلى الارتباك.

أرادت النظر.

أرادت الشعور بالحياء.

أرادت أن تفعل أمراً فظّاً وحميميّاً.

أرادت أن تفتح الباب وتحدق دون قلق.

وقفت مستندة على العتبة لكي تستطيع النظر، وهي تنتظر حدقة عينها حتى تتعود على الظلمة، وهذا ما طال أكثر من اللازم. كانت تستمع إلى أصوات تنفسهم وكأنها حوارٌ بين صديقين منزعجين أحدهما من الآخر، يتشدق أحدهم ويجيبه الثاني بلطف. صفير أمها الرقيق، ثم شخير والدها الرخم.

بدأت الرؤية تتضح شيئاً فشيئاً، إنهما نائمان بعمق شديد، أبوها ببطنه نحو الأسفل يرتدي سروالاً داخلياً وقد وضع رأسه تحت الوسادة. وأمها مائلة باتجاهه وقد التف ثوب نومها بين ساقيها، بديا متعبين ولطيفين ومستسلمين وكأن شيئاً جعلهما يحلقان في الهواء طوال الليل ثم أنزلهما بهذه الوضعية. تملأ رائحة النوم الغرفة. حدقت بهما فوجدت أنهما متشابهان كالأشقّاء، تضع أمها يداً فوق المخدة وتمد الأخرى نحو ساق أبيها، وكأنها بحاجة للمسه لكي تنام، حتّى تتأكد أنه مازال هناك. رفع أبوها فجأة رأسه وأماله باتجاه أمها وهو يعدل وضعية نومه، وسند ركبته على خصرها، شعرت مارينا بخوف مباعت من أن يستيقظ والدها ويراها واقفة هناك، لكنه سرعان ما غطَّ من جديد في نومه، الأمر عبارة عن رقصة إذن، رقصة بطيئة وبلا حدود، كل واحد فيهم هبة بالنسبة للآخر، وكل شيء من حولهم هو مؤقت وعرضي، وجودهم فقط هو الذي كان يعطي الأشياء واقعيتها: مصباح السقف الليلي، الطاولة الصغيرة أمام السرير، لباس

ليلة الأمس الملقى على الكنبة، جريدة والدها التي جلبها ليقرأها ليلاً، ثم لم يفعل ذلك، صحن السجائر الذي يحتوي السيجارة الأخيرة التي دخنتها أمها في الليل.

لطالما ظنت أن ما يمنعها من التمعن في عري والديها ومراقبتهم ليلاً كان الخجل أو الخوف، لكنها فهمت الآن أن الموضوع يتعلق بأن الأمر يصيب صميم خصوصيتها.

أغلقت الباب دون إصدار أي ضجيج، وعندما سمعت صوت إغلاقه بالكامل أدركت بأنها كانت متوتّرة إلى أبعد حد، وشعرت بالذهول من جراء فكرة أن هذا الحدث وهذه الصور تتكرر منذ زمن بعيد، أكثر من عدد سنين حياتها، وهذا ما ذكرها بجملة ديلان توماس في رسالته التي أرسل بها إلى محبوبته، جلست في غرفتها أمام الشباك الذي يطل على شجرة الكستناء، فتحت الشباك وكانت قد أمطرت قليلاً في الليل فتسربت نفحة من هواء منعش ورطب، أخذت ورقة وقلماً وكتبت بخط جميل:

«عليكِ أن لا تكبري كثيراً؛ لأنك ستبدين أكثر شيخوخة مني، ولن أدعك تصبحين أكثر حكمة ومعرفة. وأنت أيضاً عليكِ منعي من أن أصبح أكثر حكمة. وسنكون دائماً شابين وبلا خبرة، معاً».

في السوق

بينما كانت تنتظر مجيء نيللي في زاوية ساحة كولون، أخذ الثلج يتساقط في الشارع، متناثراً بخفر في البداية، ثم زادت غزارته لمدة خمس دقائق تقريباً، ليعود بعدها إلى خفره من جديد. إنه الثلج في مدريد حيث تتأجج مشاعر الناس للحظات، رغم قساوة البرد والانهماك في التسوق بفترة أعياد الميلاد، ويتحولون إلى ما يشبه الأطفال. الثلج يحول الناس إلى أطفال دائما، قالت في نفسها، ونيللي دائماً تصل متأخرة، عشر دقائق أو خمس عشرة. للثلج أيضاً وقع خاص كعبور الطائرات من بعيد وخفة مميزة عند ذوبانه شبه الفوري على الرصيف. السماء مغطاة بلون أبيض براق مبهر للعيون تقريباً، كما لو أن ضوء الأرض يرتطم بصفحة السماء ويتغلغل فيها متبلوراً، لينعكس شحيحاً على رؤوس سكان مدريد. كان الناس يصيحون: «ثلج، ثلج...» بنبرات مختلفة جميعها طفولية تقريباً، وكانت تُسمع الأصوات والفرقعات الصماء بوضوح كما لو أن أحداً قد فرض الصمت. وأخيراً تنبهت إلى مجيء نيللي من الجهة المقابلة من شارع سيرّانو، مقبلة بكامل بهائها وهي ترتدي معطفاً أنيقاً بنيّ اللون قصيراً، وشعرها مردود إلى الخلف وشفتاها مرسومتان كما العادة بالأحمر المتوقد. لماذا لم تكن تناديها أبداً ماما؟ ربما وببساطة لأنه من غير الممكن لأحد أن ينادي من هو مثل نيللي ماما، أو ربما لأنها هي نفسها قد منعت ذلك مذ كانت صغيرة. لا تناديني ماما، ناديني باسمي: نيللي. لا تتذكر هذا الحوار، رغم أنها متأكدة من أنه قد حصل. وماذا

تعني ماما هذه؟ تتذكر أنها كانت دوماً تناديها نيللي وتتذكر بكل تأكيد ما كانت تحس به من غرابة من رفيقاتها في المدرسة عندما كنَّ ينادين أمهاتهن ماما، كما تتذكر أيضاً عدم اللباقة، التي راحت تترسخ على مر السنين، عندما فكرت ذات مرة في أنه من الممكن لها أن تنادي نيللي باسم آخر غير اسمها، رغم أنها ابنتها الوحيدة.

لوحت نيللي بيدها مسلمة عليها سلاماً خاطفاً، لتشير لها أنها رأتها، ثم أدارت وجهها نحو السيارات التي تمر في شارع سيرّانو. بالنسبة لنيللي، يسير الأمر دائماً على نفس المنوال: كل شيء يحدث حولها، كما لو أن عطراً غريباً مؤثراً ينبعث في المحيط. لم تكن قد رأتها منذ أربعة أشهر تقريباً، وذلك منذ المأتم، وهي الآن أكثر جمالاً من ذي قبل، وربما أكثر سكينة. إن جمالها موهبة. هناك ملايين النساء على أهبة الاستعداد لارتكاب جريمة قتل ليكنَّ مثل نيللي في السادسة والخمسين من العمر، وهي تعرف ذلك، لذا فإنها تتصرف أحياناً كما لو كان الجمال شيئاً عرضياً أو تافهاً، وهي توحي بذلك أيضاً في كل واحدة من حركاتها؛ في طريقة إشاحة وجهها عنها وفي متابعة النظر إلى تدفق السيارات، فتبدو كما لو أن الشخص الذي تتوجه نحوه موجود في مكان آخر غير الجهة المقابلة من الشارع، وكما لو أنها ترقبه دون أن يراها أحد. بل أكثر من ذلك: كما لو أن شيئاً قد عطل تفكيرها بطريقة ما وأسلمها للشرود. فجأة أحست بالخجل؛ لأنها لم تعتنِ بهندامها بما يكفي ولأنها لم تتأنق أكثر للخروج إلى التسوق مع نيللي.

كانت هذه الفكرة قد راودتها عند خروجها من الحمام وتوقعت حدوث هذا الموقف، لكنها حزمت أمرها في نهاية المطاف وارتدت سترة وبنطالاً من الجينز ومعطفا عادياً وانتعلت حذاء طويل الساق. كان في ذلك شيء من الانتقام. لن أعتني بمظهري من أجلها فقط، قالت لنفسها، وارتدت ثياب الجينز وقد انتابها إحساس لا معنى له بالانتصار، ثم خرجت إلى الشارع وهي في أحسن

حال لكنها أخذت تفقد الثقة بنفسها شيئاً فشيئاً، إلى أن وصلت إلى مكان الموعد في الزاوية المحددة حيث تلاشت ثقتها بنفسها تماماً، وكما العادة انطوت على نفسها وأخذت تردد مرة تلو الأخرى أن ليس للأمر أهمية، لكنها كانت تنظر إلى نفسها في زجاج جميع واجهات المحلات في كل لحظة سانحة. وهناك أخذت تنظر باهتمام إلى صبية في الثلاثين من عمرها تبدو وكأنها أم لأولاد، ذات مظهر رث قليلاً ووجه حسن لكنه طافح وخشن جداً، تنتعل حذاء طويل الساق لا ينسجم مع ملابس الجينز التي ترتديها، ولها مشية مضطربة قليلاً، فكانت كلما نظرت إليها تنتابها رغبة في القول: أنا لست مثلك. ولقد أحست الآن بذلك أكثر من أي وقت مضى، عندما أصبحت إشارة مرور السيارات حمراء وبدأت نيللي تخطو نحوها.

«يا للفظاعة من هذا الثلج» قالت فيما كانت تقبلها، «أما رأيته؟».

«بلى».

إن توقع اعتذار من نيللي على تأخرها في الوصول إلى الموعد لهو أمر مستبعد، وهي لا تطلبه أساساً، لكنها غاضبة من نفسها ويشق عليها أن تظهر في معنويات عالية، سيما أنها تعتقد أن النهار سيكون طويلاً وشاقاً؛ لأن عليها أن يقوما بشراء هدايا عيد الميلاد للخالات والعمات. سوف يكون نهاراً طويلاً بصحبة نيللي.

«إن الثلج في مدريد يحدث دائماً ذات الأثر؛ بضع من طبقات رقيقة لا قيمة لها كفيلة بأن توحل كل المدينة بشكل مثير للاشمئزاز. لقد قلت ذلك لرفائيل، عندما كنت أهم بالخروج من المنزل».

رفائيل هو زوج نيللي، وهو مصرفي تعرفت عليه منذ ثلاث سنوات، تتحدث عنه وكأنه وهم أو خيال، وذلك عندما ترغب في تكرار عباراتها المفضلة. «إنه الزوج المثالي»، تقول، «بالكاد يفتح فمه ليتكلم.». لقد تزوجا منذ عامين

وهي تتذكر حفلة العرس، وتتذكر ما جرى في غرفة فندق سانتاندير، عندما كانت تنتهي نيللي من تبرجها، وتتذكر اتصال البابا الهاتفي («كيف تسير الأمور هناك»)، كما تتذكر صوته متصنع الود والجريح بشكل عجيب («هل تبدو جميلة أمك؟»)، ثم استعراض نيللي أمام بنتها قائلة: «أأثير دهشتكِ؟» وهي إلى جانبها، كما لو كانت تحس بغتة بهوة سحيقة تفصلها عنها، ثم تتذكر رائحة الزهور المغروسة في شعر نيللي والتي كانت تبدو وكأنها من زمن الطفولة، لكنها لم تكن، وحضور نيللي الطاغي، ثم المطر الذي أخذ ينقر زجاج النوافذ («لا، أرجوكِ، لا تقولي أنها ستمطر الآن») والذي اختفى على الفور بعد حين ليفسح الفرصة لنهار مشرق اغتسل بالماء منذ قليل.

«حسناً، وماذا الآن؟ من أين نبدأ».

«لا أعرف، من حيث تريدين».

«ماذا بك؟ لا تبدين على ما يرام».

«لا شيء، أنا بخير، لكنني أشعر بالبرد نتيجة انتظاري لك في الشارع».

«كان بوسعك الانتظار في مقهى قريب».

من غير الممكن أن تكون إجابة نيللي أفضل مما أجابت به، قالت في نفسها. لديها موهبة في تبسيط الأشياء دائما بطريقة تمكنها من حرف وجهتها وتغييرها حالاً وبسرعة البرق، عندما يتهددها خطر التعرض للّوم أو العتاب. إن عتابها لنيللي كان دائماً يعود عليها وبالاً. من البديهي أنه كان بوسعي أن أنتظرها في أي مقهى، لكن المشكلة ليست هنا. المشكلة وبكل بساطة أن نيللي وصلت متأخرة. وربما تكون المشكلة من نوع آخر أيضاً: فهي لا تستطيع التخلي عن ابتسامتها وتتخيل نفسها دائماً كما لو أنها أمام المرآة بابتسامتها الجريحة العصية على الفهم والتي تتلاعب بها نيللي، والساذجة قليلاً، كابتسامة أبيها الرقيقة والناعمة، لكنها خالية من طيبته، ابتسامة كنغمة نشاز. ليس بوسعي أن أحمل هموم الأرض كلها،

كان من عادة نيللي أن تقول. وكانت تقول أيضاً: أنت غير معقولة يا بنت، مثلك مثل أبيك، لن أعرف أبداً ما الذي يدور برأسكما حولي.

«يمكن لنا أن نبدأ بشراء هدية الخالة ماريانا»، قالت في نهاية المطاف.

«حسناً»، قالت نيللي، «إنها الأقل تطلباً والأكثر بساطة».

مع نيللي، لا يمكن أبداً للمرء أن يعرف هل البساطة فضيلة أم نقيصة في تكوين الشخصية؟ والأمر بالنسبة لها ليس كذلك في أي حال من الأحوال؛ فلطالما كانت تعتبر البساطة الأكثر صرامة وغير العفوية واحدة من المعارك التي يمكن للمرأة أن تخوضها. وأحياناً كانت تعتقد أن البساطة ليست شيئاً آخر غير الاستقامة الأشد تكلفاً، وهي تراكم غير متجانس من الحركات الإجبارية التي تتحول إلى أفعال منعكسة نتيجة تكرارها المستمر. ليس الأمر كذلك بالنسبة لنيللي؛ فهي طبيعية وبسيطة كإعصار، ككل الأنانيات بحقّ، طبيعية كما الكارثة أو كما الأخدود العظيم في أريزونا، أو كتحفة ثمينة محفوظة على منصة صغيرة متواضعة في واجهة متلألئة. ولأنها كذلك توجهت على الفور إلى محلات (لوفي)، وكما لو أنه غير ضروريٍّ أن تقدم تفسيراً لما يدور في خلدها.

«الأحرف الأولى، ذكريني بأن يضعوا الأحرف الأولى».

«ولكن، ما الذي تريدين شراءه؟».

«حقيبة يد نسائية».

«لم أكن أعرف أنه من الممكن طلب كتابة الأحرف الأولى من الاسم عليه».

«من المؤكد أنه يمكن طلب ذلك. ولسوف يضعونها بأحرف من ذهب».

بعد ذلك وعند دخولهما إلى المتجر قامت نيللي بحركة سريعة تعبر فيها عن استيائها.

«لقد أجريت تغييرات في المتجر»، قالت، وكأنها تلقت طعنة للتوِّ في أعماقها.

«نعم»، أجاب البائع باهتمام، « لقد افتتحنا المتجر الجديد منذ ثلاثة أشهر».

«أقدم لكم تعازي القلبية».

ابتسم البائع ابتسامة خاطفة مزيفة، فيها براءة وتنم عن خوف، كما لو أن أحداً قد غرس في وجهه كلابات معدنية وشده بعنف نحو الأعلى، ثم أجاب لكي يتفادى أي تعليق آخر وقد اعتراه الاضطراب:

«شكراً».

«لا شكر على واجب».

قد تكون هي الوحيدة التي لها الحق في أن تضحك من سخرية نيللي، وقد تكون بذلك الوحيدة التي تسللت بالفعل إلى أعماق شخصيتها. فسخريتها تبدأ كما لو أن إيماءة ترتسم في الحاجبين، من نقطة مركزة دقيقة وغامضة فيهما، لتنتقل بعدها إلى كامل وجهها بطريقة مبهمة، وكأنها تلغيها من جديد، مثلها في ذلك مثل شيطنة طفل ذكي، وخبيث بشكل لافت للنظر، يستثمر سحنته الطفولية البريئة. السخرية لدى نيللي ضرب من ضروب التسلط. وهي التي على مقربة منها لا تعرف تفسيرها بشكل أفضل، ولاتعرف أن تفكر فيها بشكل أحسن، ككثير من الأشياء الأخرى لدى نيللي. إنها تتذكر الكثير من نكاتها، وطريقة قولها رائع عندما يحرك مشاعرها شيء ما، وطريقة رفع ذقنها بخفة وفتح شفتيها متصنعة الدهشة، وحديثها إلى الشخص الذي تمزح معه ولكن دون أن تتوجه إليه، كما لو أن السخرية تقتضي زوغاناً ومراوغة تحدث بين ثلاثة أطراف.

«إن إسبانيا هي بلد عبارة أريد ولكن لا أستطيع»، قالت بينما كانت تنظر إلى تزيينات المتجر، ثم توجهت بعدها نحو حقائب اليد النسائية. أما هي فلقد

أخذت تنظر إلى الحقائب أيضاً. هناك بعض الحقائب الجيدة فعلاً لكن أسعارها فاحشة، وفخامتها توحي بالحزن. لِمَ يبدو لها دائماً أن الفخامة محزنة؟ لا تعرف. إن هذا الشعور بالنسبة لها هو واحد من ثوابت وعيها وهو حقيقة شهوانية وقاسية قليلاً، وتجربة معتادة لم تستطع أن تتأقلم معها أبداً لسبب لا تستطيع تحديده. أما بالنسبة لنيللي، فإن الأمر ليس كذلك أبداً. بالنسبة لأمها كانت الفخامة دائماً شيئاً مستطاباً ومحفزاً، أو نوعاً من الموسيقا في حياتها، لا تعيره اهتماماً كبيراً، وإن انتبهت إليه فبشرود. الفخامة بالنسبة لها هي شيء محدد ومعروف، كشعارات النوادي ولوحة الرسام الفرنسي (كورو) الموجودة في غرفة المعيشة (لا يمكن لك أن تتخيلي حجم سعادتي لعدم بيعي تلك اللوحة)، والخزانة التي تؤوي أحذيتها المرتعشة كعش طيور يقض مضجعها الجوع، وكذلك نظافة المنزل قبل أي شيء آخر، تلك النظافة الصبيانية المبالغ فيها والتي تعشعش في الهدايا والذكريات التي بحوزتها من طفولة نيللي، والتي تتشرَّبها جميع أشياء المنزل كعلامة على الذوق والمزاج، وبطبيعة الحال فإن الأمر يتعلق بسلوك الآخرين أيضاً. والفخامة أيضاً هي أن تعود إلى المنزل لتجد زهور الأزاليا بأحسن حال على الشرفة (لا أحب الورد ولا أريده لو سمحتم، فالورد يبدو وكأنه فم داخل فم، داخل فم آخر)، وكذلك ألا تتحدث عن الحب وحسب، بل أن تمنحه للآخرين بلا حساب.

«إن محلات (لوفي) هي كالزوج الحريص على زوجته والممل قليلاً» قالت نيللي دون أن تدير رأسها لتنظر إليها، «ألا توافقيني فيما أقول؟».

«بلى»، قالت مبتسمة.

«أيهما يعجبك أكثر من هذين الاثنين؟ البني؟» وعلقته على ذراعها الأيسر. «أم الأسود؟» وعلقته على ذراعها الأيمن. ثم أدت رقصة مبهمة أما المرآة الضخمة، من اليسار إلى اليمين، مستعرضة مظهريها المختلفين، وكانت في حقيقة الأمر تنظر إلى نفسها وكذلك إلى الحقيبة التي في يدها بشكل خاطف ومبهم. أما

هي فلقد اغتنمت الفرصة لتنظر إليها للمرة الأولى بانتباه. لم تكن قد رأتها منذ منذ أربعة شهور، يوم المأتم. فكرت في الأمر من جديد وتذكرت أنها قد تحدثت معها هاتفياً مرتين أو ثلاث لكنها لم ترها. بالفعل هي تبدو الآن أكثر سكينة، وبالفعل استعادت رشاقة جسدها، تلك الرشاقة المثيرة جنسياً إلى حد ما والتي تتميز بها نيللي، أو التي تحولها إلى أداة جنسية متميزة. لم تنتبه إلا منذ سنوات قليلة إلى ما تمتلكه نيللي من ميزات تؤجج مشاعر الرجال نحوها، وذلك منذ أن بدأت تعي نفسها وجسدها، ولم تعاين حتى ذلك الحين ما كان يجعل البابا يغرم بها (ولكن لا، لقد كان البابا مختلفاً)، ويثير ذاك العاشق المهول، أو هذا المصرفي الوسيم الذي يشبه غيره من المصرفيين الكثر، أو أولئك الذين لم تعرفهم، لكنها متأكدة تماماً من وجودهم.

«البني».

«الأسود، يبدو لي أجمل»، أجابت نيللي. «البني يبدو عادياً جداً».

«ممكن».

«لكنك على حق، يمكن لها أن تستعمل البني أكثر».

هل ما قالته هو إطراء أم ذم؟ لا تعرف. هل هو حكم قيمة على الخالة ماريانا؟ هل يجب أن تتمتعا بشيء من الحس العملي وللمرة الأولى، وأن تفضلا الحقيبة العملية على الحقيبة الجميلة ونكران كل ما كان، أم يجب عليهما أن تفضلا دائماً وإلى الأبد، وقبل كل الأشياء العملية الأخرى، الحقيبة السوداء الجميلة باهظة الثمن، التي تمثل المعادل الأرعن والجامح للرغبة؟ Who is the person you love the most? وبصوتها الطفولي قالت: The person I love the most is… Nelly.

إنها جملة تدل على الحب. هل ستذهب المدرسة الخصوصية فيما بعد لتقول لنيللي ما كانت قد سمعته؟ ...The person I love the most وتذكرت صوت

نيللي (لا أرغب بأطفال متسخين، ولا بورق على الأرض، ولا بأوساخ هنا وهناك، ولا بآرائك متسخة بالدبق.) في مرآة الطفولة يتكرر السحر الذي يكتمل الآن، كما لو أن بالوناً قد ألقي في الجو عندما كان عمرها ست سنوات ولم يعد إلى الأرض بعد. هل قالت المدرسة لنيللي ما كانت قد سمعته أم لا؟ لم تقله لها. قالته لها. في مرآة الطفولة هناك نيللي، وليست هناك. شيء ما ينقص هنا، كالمثل الشعبي الذي لا يكتمل لأن الجميع يعرفون نهايته، يوجد هنا تزيينات لعيد الميلاد وثلج خفيف فوق مدريد، وهنا أيضاً ضجيج أناس يتسوقون والبابا مات بطواعية. هل هذا ما تغير؟ طواعية البابا في أن يموت؟

«الأسود، ولن نتحدث بالأمر أكثر».

ولكن لم يكن قد تحدث أحد بشيء ما. إلا البائع الذي وقف إلى جوارها طوال الوقت، والذي، بعدما أعطته نيللي الحقيبة، قال:

«لو تسمحين لي بإبداء رأيي...».

«بكل تأكيد».

«أعتقد أنك قمت بالخيار الأمثل».

عندما خرجتا من محلات (لوفي) كان الثلج قد توقف ولم يبق إلا البرد. إنها تحس بشبابها لكنها في نفس الوقت تحس بشكل غامض أنها تشيخ. لها من العمر ثلاثون سنة فقط، ولها جسد جميل ولكن ليس كثيراً، إذ إنه يميل للسمنة قليلاً. نظراتها طفولية متثاقلة وفيها نداء استعطاف. لها هيئة بشكل عام لا تساعدها على فهم العالم والحياة، وتجمعها بعموم الناس الذين يمرون حولها في شارع سيرانو، أكثر ما تجمعها بنيللي، كما لو أن أفكارها كانت دائماً متأخرة خطوة عن أفعالها. هي بطيئة جداً في كل شيء وتفكر بذاتها كثيراً، وليست لديها أبداً المقدرة على اتخاذ مبادرات. كان ذلك فضيلة في شخصية أبيها، لكنه عندها نقيصة. لكن لديها كما نيللي شيء غريب وخطير، كما لو كان شيئاً مخفياً في ظلمة غرفة.

«هل ترغبين في أن نمشي صعوداً نحو ساحة الاستقلال؟ وبعدها يمكن لنا أن نعود. سيكون من دواعي سروري أن نمر على محلات سيبيلا Sybilla، فأنا أيضاً أرغب في شراء غرض ما لي، وربما تعثرين أنت على شيء يعجبك.»

«بكل تأكيد».

لا يجب التحدث مع نيللي بشكل زائد أبداً. حتى أن ذلك لم يكن ضرورياً في وضع معقد، عندما كانت هي بنت ست سنوات وغادرت نيللي المنزل. تتذكر غرفة معيشة ذلك المنزل، المؤجر حالياً، كما تتذكر صرير أرضيته الخشبية ولعبها الطفولي على وقع طقطقته، وهي تنشد أيها القبطان، أيها القبطان، مركبنا يغرق. كان ممتعاً لها أن تفكر في أن مطراً غزيراً سيهطل على مدريد ويغرق شوارعها ومبانيها حتى الطابق الثالث (كانوا يسكنون في الطابق الرابع)، وأن بوسعها أن تقفز إلى الماء من خلال النافذة، ثم فجأة تقفز إلى ذاكرتها صورة أبيها وغرفة المعيشة وفناجين القهوة وعلى واحد منها أثر شفتي نيللي (شفتا نيللي ساحرتان أثرهما على فناجين القهوة وأعقاب السجائر وعلى خدي البابا قرب شفته، تقريباً على حافة فمه، كما لو أن كل ما كانت تلمسانه يبقى فيه أثر من عناق منها). سوف أغيب عنكم لمدة يا بنيَّة. كان يومها مشهداً فجائياً وغامضاً، بدا كما لو كان مطلياً بطبقة سميكة وبراقة من الزنجار، ترسمه حركات نيللي ودهشة أبيها. لا تبكي، رجاءً، حتى لو كنت ذاهبة لأعيش في مكان بعيد مثل باتاغونيا. هل كان في الأمر صفاقة أم لا؟ العاشق، الهجر، وسائق التاكسي الذي ينتظر نيللي (كانا ذاهبين في رحلة بالفعل، ولكن إلى لندن)، كل ذلك يبدو فجأة وكأنه هيكل مشهد من فيلم عاطفي سيّئ. لكن حبها ليس هيكلاً، فهو حي وحاضر، يتكرر كل يوم.

كانت تجلس مع البابا في غرفة المعيشة لأيام طويلة، حيث كان هو يمسك بكأس الويسكي بحركة مضطربة، أما هي فلقد كانت تلعب دور الميتة،

وتغمض عينيها دون أن يرف لها جفن وهي تتخيل أن الجميع من حولها سيصيحون مذعورين «إنها ميتة، إنها ميتة!»، وهي جامدة لا حراك فيها، كما لو كانت حبيسة جسدها، تضحك في أعماقها وتتذكر قول الطبيب: (طالما أن كبدك لم يتشظَّ ولم يتحول إلى نتف، لن تصدق، أليس كذلك يا أنطونيو؟). لم ينزعا صور نيللي، وكيف لهما أن ينزعاها؟ فحبها سحر يمتد ولعبتها تلك مجنونة. تتذكر أنهما كانا يتحدثان عن نيللي كل يوم تقريباً، عن جمالها، عن حبهما لها، وعن اشتياقهما لها، ويتساءلان هل ستعود أم لا. لم تكن تعرف هل تغدو أكثر نضجاً بأحاديث كهذه أم أن البابا يغدو طفلاً، لكنها كانت تعرف أنهما بذلك يحافظان على النار متقدة في معبد حب نيللي، الذي لم يكن أي منهما قادراً على تجنبه. والآن بالتحديد، وبعد خمسة وعشرين عاماً، يبدو لها أنه كان من الجنون أن تنغمس في تجربة كهذه في طفولتها، لكنها لا تندم على ذلك. إنها كمن عايش ضعفاً غريباً عنه وتغذَّى منه، لمجرد تطابقه مع ضعفه الخاص. أحياناً كانت تصلهما بطاقة بريدية أو يرن الهاتف فتكون هي. حينئذ يبدأ القلب بالخفقان بجنون، وتعوز اللسان الكلمات وتكون الأجوبة مبتسرة متلعثمة. «ما الذي يحل بك حينما تسمعين صوتي؟».

«كم أنت قليلة الكلام اليوم».

«نعم...».

«الأحرف الأولى».

«ماذا؟».

«لقد نسينا أن نضع الأحرف الأولى».

«آه، صحيح».

«هيا بنا إلى محلات سيبيلاSybilla أولاً، وبعدها نمر من هناك في طريق عودتنا».

«وكيف يقومون بذلك؟» سألت أخيراً. إنه السؤال العادي الأول الذي استطاعت أن تطرحه طوال اليوم.

«وضع الأحرف الأولى؟ بالحرارة، على ما أعتقد. الحقائب مصنوعة من الجلد، ويجب أن يكون الأمر شبيهاً بوسم الحصان على جلده».

كم تبدو رائعة هذه الكلمات المفاجئة، وكم هي ملائمة: وسم الحصان على جلده. هل يبدو غريباً ألا تكونا قد تحدثتا عن البابا بعد؟ بالطبع لا، لكنها عندما خرجت من المنزل، خطر في ذهنها للحظة أنها أخيراً ستتحدثان عنه اليوم، وأن الحديث سيأتي في السياق بشكل طبيعي. لم يتحدثا عنه يوماً بشكل جدي قط، وهو الآن ميت، وبهذه المناسبة ألم تحن الساعة للحديث عنه بشكل جدي فعلاً؟ لكن المؤكد أنها لن تعرف حتى من أين تبدأ، فجسامة الموضوع هائلة ولن تؤدي إلا إلى طرح أسئلة لا أجوبة لها، هائلة وغير معتادة وعامة: لماذا؟ أسئلة سيكون من المؤكد أن نيللي لن تجيب عليها بطيبة خاطر، ماذا تعني لماذا؟ ولماذا ماذا؟ كم من الوقت أمضت خارج مدريد؟ عاماً واحداً؟ أم أكثر؟ لقد أمضت كل هذا الوقت في لندن. في ذاكرتها الطفولية لندن مدينة محظوظة وفردوس أرضي مسحور؛ لأن نيللي كانت فيها. البطاقات البريدية التي كانت تصلها منها بين الفينة والأخرى، كانت تحمل جميعها في مكان ما ذلك اللون اللندني الأحمر البراق، الشبيه جداً بشفتيها. أنا هنا يا بنيَّة، وهذه المدينة ساحرة. تتذكر اللعبة الطفولية التي كانت تقوم بها: القراءة المتكررة بتغطية بقية الجملة أنا هنا، ثم تقلب البطاقة وتنظر إلى صورة هايد بارك، أنا هنا، ثم تقلب البطاقة وتتمعن في صورة قلعة باتل، أنا هنا، ثم تقلب البطاقة وتحدق في صورة كابين الهاتف العمومي اللندني الذي ربما كانت تتصل بها منه، أنا هنا، ثم تنظر إلى صورة تموُّج الغيوم المغلفة بالبلاستيك ذات الخلفية المعتمة لبيت ريفي يغطيه اللبلاب، أنا هنا، أنا هنا، أنا هنا.

ثم تتخيل نيللي الآن وليس من قبل، مع ذلك العاشق (ابن الكونت الفلاني)، فمن قبل كانت تبدو من النافذة الطيور المهاجرة التي كان البابا يعرف أسماءها كلها تقريباً: اللقلق الطائر ومالك الحزين والبط، أما هي فكانت كانت تفكر بالأشياء التي ستقولها لنيللي عندما تتصل بها وكانت تسجلها على الورق: لم تدعني صوفيا إلى حفلة عيد ميلادها، سقط من أسناني سن في المدرسة أثناء الطعام وكدت أبتلعه، ذهبنا إلى حديقة الحيوانات و أكثر ما أعجبني كانت الدلافين، ودار شريط ذكريات تلك المحادثة في مخيلتها بسرعة البرق، وتذكرت الأشياء التي قالتها لها، والمشاعر التي انتابتها عندما كانت على وشك ابتلاع سنها ولم تبتلعه، وغضبها العارم والمذل تقريبا لعدم حضورها حفلة صوفيا، وجلد الدلافين الملون بلون قزح الذي سُمِحَ لها بلمسه لأن دورها أتى الأخيرة في الزيارة، ووصف الملمس المدهش الشبيه جداً بملمس البلاستيك والذي يبدو بعيداً جداً، لكن الصوت الساحر كان يخنق كلماتها، صوت نيللي القادم من بعيد، من لندن، برنينه الصافي، كان يجعلها تتلعثم وتبتسر عباراتها. «ما الذي يحل بك حينما تسمعين صوتي؟».

«منذ زمن بعيد لم أذهب إلى محلات سيبيلا Sybilla. أتراها ما تزال هناك تلك البائعة اللطيفة؟».

«لا أعرف».

اقتربت نيللي منها وأمسكت بذراعها، فما كان منها إلا أن نقلت كيس المشتريات الأول إلى اليد الأخرى لتكون مرتاحة أكثر. أحست بقرب جسم نيللي الذي التصق بجسمها، وباحتكاك وركيهما، وتقريباً ساقيهما، وهما تتقدمان بنفس السرعة. كانت الاثنتان تسيران لوهلة في صمت. وبدا لهما لوهلة أيضاً أن مدريد جميلة، بل أكثر من جميلة: إنها مكان للمواعيد، وذلك كما لو كانت هذه الميزة هي الأكثر نعومة ورقةً ولطافة في هذه المدينة. ثم هناك فيها ميزة أخرى: إنها مدينة

حانية. يبدو أن أي شيء يمكن له أن يغوص في مدريد ويدخل في جوفها لتبتلعه وتهضمه، وذلك حتى الحجر. البرد يضفي رونقاً خاصاً على وجوه الناس الذين يمرون حولها؛ يصقلها ويصفيها، كما لو كانت من حجر المرمر وتم تمرير مبرد عليها بدقة وعناية. هي لا تعتقد أنها أكثر ذكاء أو سعادة من أي من هؤلاء البشر الذين حولها. وحقيقة الأمر هي تعتقد أنها ليست على قدر عال من الذكاء وأن سعادتها بالحياة ليست كبيرة، بل ربما تظن أنها غير طيبة الطوية أيضاً، ولكثرة ما تأملت نفسها وفكرت فيها تعبت: أنا هذا وذاك معاً.

منذ وفاة البابا بالكاد قَرَأت كتاباً، بالكاد خرجت للتنزه في مكان ما، والشيء الوحيد الذي فعلته، وهو الشيء الوحيد الذي ترغب به، كان ممارسة الجنس، لكنها لا يمكن أن تفصح عنه لنيللي مقابل أي شيء في العالم. مارست الجنس طوال الأشهر المنصرمة مع خطيبها السابق ومع عشيق جديد أيضاً، هو رجل متزوج يتصل بها عندما تتاح له الفرصة ويحضر إلى منزلها في إشارة منه إلى شوقه للقياها، ثم يتحدث معها لمدة تقارب ربع الساعة من باب الاحترام، لينزع عنها بعد ذلك ثيابها مباشرة في المطبخ أو في الحمام. إلى حد ما تشعر باللذة معه أكثر من خطيبها السابق. منذ عدة أيام وبينما كانت تمارس الجنس معه، أخذ يشتمها من دون سبب، ثم راحت هي أيضاً تبادله الشتائم، وتبادل الاثنان البصاق لفترة دون أن يعرفا لماذا؟ وانتابتها رغبة في أن يسبب لها أذى جسدياً، رغبة كالشعور بالفشل الذي يسبب اضطراباً ويغري بالمزيد، ووصلت إلى ذروة نشوتها ثلاث مرات، وعندما انتهيا وغادر المنزل، انتابتها رغبة في الاتصال به من جديد وتوسله في أن يعود ويمارس الجنس معها طوال المساء. كان مهولاً وممتعاً ومدهشاً، كما كان أمراً يعتريه الكثير من الهشاشة، أن تجرب كيف لحركة لم تخطر على البال، أن تسبب هيجاناً غير متوقع لمشاعر حادة وصاعقة، منغلقة على نفسها كما لو كانت كبسولة. كانت تستمع أحياناً في أن يسبب لها شريكها بعض الأذى

الطفيف. و يحلو لها أن تشعر بدايةً بالجوع الضاري تجاه شريكها، ثم تتلذذ برؤيته رهينة إشباع رغبته. يعجبها هذا السلوك الذي يبدو مدمراً في البداية ليصير عذباً فيما بعد، ويرجع ليبدو مدمراً من جديد، وأخيراً يتلاشى كالتصميم المجنون على امتلاك شيء ما، لا يلبث أن يتلاشى كما لو أنه لم يوجد أبداً، مخلفاً وراءه الرغبة في إعادة الكرة من جديد وحسب. وكل إعادة كرة كانت بمثابة تأكيد على الفشل وتأكيد على النجاح.

تترك التفكير بأبيها جانباً، وكذلك التفكير في نيللي، وتقترب الآن من هؤلاء الأشخاص الذين يمرون بجانبها في الشارع وتحس بهم، باردين وجميلين وعاجزين عن حل أي مشكلة، لكنهم مشبعون بالرغبات، أشخاص من مدريد محملون بالأكياس، مثقلون بالترقب والانتظار. هل تماس ذراع نيللي بذراعها هو الذي يجعلها تقترب من كل هؤلاء؟ لكنه ليس اقتراب بالفعل، تماماً كتماس ذراع نيللي بذراعها الذي لم يكن مجرد تماس.وحسب. إنه كشف لأسرار قلبها وبوح كرصيف شارع سيرانو الذي هو كشف واتساع، فيه مشهد باب القلعة من بعيد، وفيه نظرات المارة، وفيه صخب شذرات من أغان شعبية مرحة، تُسمع عندما تفتح أبواب بعض الدكاكين، كما لو أن المرء يسمع مجرد مقطع صغير من حوار كامل، يقول فيه أحدهم فجأة: آه منك يا ولدي.

«لقد جن هذا العمدة تماماً.» قالت نيللي في إشارة إلى الأشغال التي تقوم بها البلدية في الشارع. «منذ مدة، قال لي أحد أصدقاء رفائيل الباريسيين: إن مدريد مدينة رائعة، وستكون أكثر روعة عندما يتم العثور فيها على الكنز».

استدارت نيللي نحوها بمرح، وكأنّ عليها أن تشرح لها الطرفة.

«فهمتِها؟ إنهم يبحثون عن الكنز».

«على الأقل، ضجيج آلة الحفر يغطي على أغاني أعياد الميلاد تلك» أجابت لأنها تعرف أن هذه المزحة ستعجب نيللي.

«لا تظني ذلك، فالأغاني تلك تصدح بتردد غير قابل للمحو. إن تصوري عن الجحيم ليس إلا تكرار أسطوانة الأغاني الشهيرة باسم الطبال».

وأخيراً نجحت في إضحاكها واكتشفت بالفعل الآن ومنذ قليل ميزة لم تكن تعرفها من قبل في نيللي، لها ضحكة مثيرة جنسياً فعلاً. لقد كانت حياة نيللي الجنسية بالنسبة لها لغزاً غامضاً وذلك لأعوام طويلة، ولم تكن ترى منه إلا بعض العلامات والأحداث: العشيق الذي تركت أباها من أجله، ورجل آخر رأته معها عدة مرات، صديق أبيها الذي كان يطري دائماً على جمالها، وزوجها الحالي، هذا المصرفي الأخرق بطريقة عجيبة والوسيم بشكل خال من المعنى. كم رجل مر في حياة نيللي؟ ثم تتذكر نصيحة خالتها ماريانا: إذا ما أردتِ أن تعرفي كم رجلاً مر في حياة امرأة، افترضي رقماً معقولاً وزيدي عليه خمسة. إن النظر إلى نيللي هو كالنظر إلى كامل جسدها، الذي ينبعث منه دوماً رنين يقطع النظر، رنين هو بالتحديد جسدها، وجسدها لا شك في روعته لكنه لا يتجه إلى أي جهة كانت بعينها. تطفو على سطح ذاكرتها بعض صور من نظرات جنسية قامت بها نيللي نحو بعض الرجال، تطفو الآن منزوعة من سياقها، وهي لم تكن تعرف آنذاك معناها، لكنها الآن تتذكرها وتفهمها. إن نظرة نيللي الجنسية هي ابتسامة امرأة في وجه البائع الذي يريد بيعها شيئاً بسعر غالٍ جداً، وفجأة كما لو أن شيئاً يرفرف على خديها أو على جفنيها، بإحساس أشبه بالشك والتوجس وربما بالالتزام. الأمر عندها كما لو كان الجنس شأناً يخصها وحدها ولا علاقة له بأي شخص آخر غيرها، لذلك تبدو فريدة، وربما تعرف نيللي ذلك، مع أنه من المرجح ألا تكون قد تجشمت عناء التفكير بالأمر، وهي الوحيدة القادرة على تصور ذلك بشكل أقرب إلى الحقيقة في بعض المواقف، وعندما تقوم بأشياء محددة. لا، لا يستطيع ذلك أحد غيرها، حتى الرجال الذين ضاجعوها ورأوها. لا، حتى البابا لا يستطيع ذلك. وهي على ثقة أيضاً أن هناك من أساء فهمها. وهي تعرف: هناك

شيء في نيللي لا ينال رضاها، شيء مادي، تحس به كما لو كان بوسعها أن تضع يدها عليه وتداعبه، ولكن بمرور الوقت، كانت تحس وكأنّ الأمر يتعلق بشيء مخزون في الذاكرة وحسب، أو بعاهة أنتجت عقدة في أول الأمر، ثم انقباضاً، ثم لا مبالاة، ثم كبرياء وأخيراً لا شيء.

«أحب مدريد في الشتاء، فهي مدينة شتوية.» قالت نيللي.

لقد حدث شيء ما حتى تحسن مزاجها، وربما كانت نكتة الأغاني وراء ذلك. لدى نيللي يحتاج المزاج الطيب للآخر دائماً، فهو الجسر الذي يهوي عليه كيانها الاجتماعي. أما هي فتعرف ما يجب أن تفعله بدقة لتثيرها: أن تعارضها.

«لا»، أجابت، «إنها مدينة ربيعية».

«يا للحماقة، إن جميع المدن ربيعية».

«الحق أقول لك لا»، أجابت بسرعة فائقة، «أعرف تماماً الوقت الجميل في مدريد: من سبتمبر إلى نوفمبر، بداية الخريف، إنها أجمل أيام مدريد بحق على مدار العام».

مشت نيللي بضع خطوات بصمت. أما هي فلقد أحست بأنها تبتعد قليلاً عنها، ثم عادت لتقترب منها وتمسها بذراعها المرتبك من جديد لينشأ توتر طفيف. استدارت نحوها.

«نعم، إنك على حق تماماً».

يا له من إحساس عجيب بالانتصار: نيللي تعترف لها أنها على حق، يا له من إخلاص غريب غير متوقع. حتى أنها كررت قائلة:

«أنتِ على حق تماماً، وأنا لم أتبصر بالأمر ملياً من قبل أبداً».

لماذا لا تبتهج أكثر لنصرها المتواضع هذا؟ والذي يبدو وكأنه يتبدد في الحال، كما لو أنها لم تعد ترغب ولو للحظة برؤية ذراع نيللي متكئاً على ذراعها. كانت تكره هذه الخصلة التي فيها، انتقالها من حالة التوهج والاتقاد إلى نقيضها

بسرعة ولأتفه الأسباب. إشباع الرغبات لديها يثير حزنها بدلاً من سعادتها. لدى الأب كان الأمر مختلفاً أيضاً، فرغم مرضه كان اهتمامه وانشغاله بنيللي أشبه بمصباح ضوء متقد على الدوام. ربما لذلك بالتحديد هجرته نيللي، تعتقد الآن، ولأنه جعل من حياتها المبرر الوحيد لحياته. الآن أتفهم أنه ليس من السهل تحمل أن يكون المرء محبوباً على الدوام، مهما بدا في الأمر من غرابة وعبثية. أن تكون محبوباً لهو شيء منهك. أنا هكذا كما تريني، وأنت تعرفين ذلك، ولم أحاول مرة واحدة في حياتي أن أخدع أحداً، قالت نيللي، وفي مناسبة أخرى منذ سنتين قالت أيضاً: إن أباك يعتقد أحياناً أن جميع الناس مستعدون لأن يفنوا أنفسهم في الحياة برضا، كما يفعل هو. تتذكر أن هذا التعليق أزعجها، ثم وفي الحال لم يعد يزعجها، تماماً كما المس العرضي للجرح، حيث يمكن اعتبار الفضيلة نقيصة أيضاً، وذلك بتغيير زاوية الرؤية قليلاً. لكنها قد تكون استخفت بشيء ما، تعتقد، ليس بنيللي وحسب وإنما بنفسها أيضاً. إنه لأمر غريب حقاً، يبدو لها الآن أن حَدْساً ما يقترب منها وأنها على وشك امتلاكه، ولسوف يكون متعلقاً بأمر لم يحصل من ذي قبل.

وما هو أكثر غرابة أيضاً: لقد تلقّى دماغها الحدس لكنه لم يجرؤ بعد على بلورته وصياغته. وبغتة يخرجه في صيغة: البابا كان يعرف ذلك. تبلغ الفكرة من البساطة حداً بعيداً ومؤثراً، فأحذية الأمس، والخاتم الذي أوصى صائغاً دانماركياً أن يصنعه، والسجادة ذات الألوان الحمراء، وعمله كمهندس معماري، وروايات غي دي موباسان التي كان يحب قراءتها،أشياء كان يعرفها، وكذلك أيام الأحد والكلمات المتقاطعة في الجريدة (إلى جانب الكحول، عيبه الوحيد الذي يعترف به)، كان يعرف أن نيللي ستهجره منذ البداية، وأن المسألة ليست إلا مسألة وقت. للفكرة حياة غريبة كتلك التي امتلكتها بقية الأفكار مرات كثيرة لكنها لم تُفهم أبداً. الآن تعتقد أنها تفهم الأمر: كان يعرف بذلك منذ البداية، مثله مثل الأرنب

الذي يدخل قفص الأسد وهويعرف أنه سيتم التهامه، وعندما يتعرض للعضة الأولى لا يئن ولا يصرخ ولا يصدر أدنى صوت، لكنه لا يستطيع تفادي أن ينكمش ويتلوى من جانب إلى آخر. ليس المريع في الأرنب أنه قدم نفسه طعاماً لغيره، وإنما صمته، والابتسامة المرسومة على شفتيه الشاحبتين، وحركاته الضعيفة الشبيهة بحركات فرخ حمام، والانعدام شبه المطلق للمبادرة في الهجوم، وأكثر من ذلك، القناعة المغرقة في الواقعية بأن محاولة القيام بفعل شيء من هذا القبيل تجعل حب الأسد له مستحيلاً وإلى الأبد.(هل تحدثت أمك عني بأمر ما ذات مرة؟)، لذلك ينكمش الأرنب في شجاعته الواقعية الوحيدة المتمثلة في دخوله إلى القفص، ويبقى حبيساً فيه (هل يحاول أنطونيو أن يثبت لنا شيئاً ما بطريقة شربه هذه؟)، لا تبدر منه حتى إشارة واحدة قاسية، يبقى واقفاً، لا يموت، لا يتغير، انعدام مقاومته نصر له، نصر بلا حساب (كم كانت جميلة أمك هذا المساء، أليس كذلك؟) وفيما تبقى يستمر اهتمامه منصباً كضوء مثبت على نيللي (لا تتحدث عني معك أبداً، أليس كذلك؟)، يدخل إلى المنزل ولا يوحي بأية إشارة تدل على حاجة به، بل على جاهزية للشراكة فيما هو معد، يحتاج أن ترافقه هي وتأخذ بيده في حبه للأسد، يحتاج إلى شريكة في جنونه ولقد عثر على ضالته في ابنته.

عندما دخلتا إلى محلات سيبيلا Sybilla أحست على الفور بعذوبة الجو المكيف، وشعرت بأن الحرارة سببت لها نوعاً من القشعريرة المبهمة، إضافة إلى الضيق الذي نتج عن الأفكار التي كانت تنتابها. أفلتتها نيللي من ذراعها الذي كانت تمسك به عندما دخلت إلى المتجر وتوجهت نحو طاولة البائعين وسألت على الفور:

«أما زالت تعمل هنا تلك الصبية...، لم أعد أذكر اسمها!».

وككل الأنانيات الصريحات بحق، لدى نيللي أيضاً نقيصة تشترك فيها مع

شبيهاتها: تعتقد دائماً أن كل الناس تفهم ما تريد قوله، كما لو أن ما يثير دهشتها أو يغريها هو أيضاً سبب لدهشة وإغراء الآخرين جميعاً.

«تقصدين ديانا؟».

«قد يكون هذا اسمها».

«لم تعد تعمل هنا».

«يا للخسارة، لقد كانت رائعة. هذه الصبية».

هي أيضاً تحب هذا المتجر كثيراً؛ لأنه يدفع الزائر للإبطاء والتأمل فيه، وللمس القماش بشغف وبشكل ممتع، وفيه الشماعة التي تعلق عليها الفساتين أولاً ثم القمصان والتنانير، وفيه مانيكان قديم، وله تدرجات في لونه الأمغر، وأرضيته من الخشب، وفيه رائحة الملابس. لكل قماش رائحته الخاصة لكن في هذا المتجر الصغير اختلطت جميع الروائح، كغرفة كان ينام فيها شخص ما. إن الدخول إلى هذا المتجر هو كالدخول إلى فردوس بناه شخص بروية وعناية، وهو يجرب فيه طوال أشهر تجارب تخللتها أخطاء، إلى أن صار جاهزاً بكل بساطته، شخص تعلم أن الأشياء التي لا قيمة لها مهمة، وأن تحريك المشاعر يقوم على مخالفة ذوق الآخرين وإثارتهم، وأن سطوة أي إيقاع أو نظام هي في الحقيقة مثل الغزل. فساتين المناسبات، وفساتين الأعراس التي تبدل الحياة فعلاً، والقمصان التي تبدو وكأنها مصممة لامرأة واحدة منذ بدء الخليقة، تكون موضوعة بشكل سيّئ دائماً على العلّاقات. وللحظة نسيت أنها مع نيللي، فانتابها شعور لطيف. نسيت نفسها ودخلت في عالم رغباتها وشهواتها. الفساتين التي تغير الحياة والتي تصير جلداً آخراً للشخص، لا تكتسب قيمتها إلا على الجسد وليس على العلّاقات. إنها حقيقة هذي الفساتين، وهي حقيقة لا بطولة فيها لكنها أيروتيكية. تعجبها هذه السطوة العاصفة التي تتفعل فيها فجأة وتتولد بغتة كما التشنج، أو التعاطف مع أحد ما، أو كالحفيف المتولد عن احتكاك القماش، هي

سطوة لا تشبه الحب في شيء وإنما تشبه نزوة عابرة وشعوراً خاطفاً، وتشبه الشعور بحرق في الجلد والأنانية والأشياء المثالية التي لا تعدو كونها كذبة من أكبر كذب التاريخ. يسبب لها قربها من نيللي الآن، بعد وفاة الأب بأربعة أشهر، مشاعر كانت تنتابها قبل وفاته، لقد نسيت للحظة مشاعر اليتم الملازمة لها والإحساس بملامسة يد المريض، والأذرع النحيلة، وكذلك ضيق التنفس، والخوف، والمجهود المضني لاحتواء المشاعر، نسيت كل هذا وأطلقت لنفسها العنان.

«لا أحد يصنع ملابس المناسبات مثل محلات سيبيلا Sybilla»، قالت نيللي وهي تشير إلى فستان أسود، «أعتقد أنني سأجرب هذا الفستان، وأنت، ألم تعثري على شيء يعجبك؟».

«ليس بعد».

دخلت نيللي إلى غرفة القياس وطلبت منها بعد بضع دقائق أن تدخل وراءها. انطفأت الأنوار في الشارع فجأة ثم عادت واشتعلت. الثياب التي كانت نيللي ترتديها، هي الآن على المقعد، ونيللي الآن ترتدي فستاناً أسود، ربما يصلح أكثر لمن هي أصبى منها، يكشف ظهرها حتى لوح كتفها ويبلغ طوله حتى بداية ركبتيها. لم تكن تتوقع أنها ستشعر بإعجاب تجاه نيللي وهي بهذا الثوب، لكنها شعرت به. وإذا لم تشعر بإعجاب نحو نيللي، فبماذا ستشعر نحوها إذن؟ لقد تمردت على هذا الشعور مرات كثيرة، وكرهتها، وقالت ذات مرة أنها غير موجودة، حتى أنها حاولت أن تتصرف كما لو كانت قد ماتت. ولتفكيك كل هذا، تكفي رؤية نيللي لثانية واحدة بفستانها الأسود في غرفة القياس، بعد أربعة أشهر من وفاة البابا، ويكفي التأمل في وجهها الممتد بعيداً، لاكتشاف كيف تم تصويره بضربات ريشة حادة، مخلفة منعرجات لا متناهية تجعل من المستحيل استجلاءه بوضوح وصفاء.

«كيف ترينه؟» سألت نيللي، من دون أن تنظر إليها وهي تقوم بحركة غريبة، كما لو كانت تمسِّد الفستان عند الوركين.

«يليق بك».

ضحكت نيللي من نفسها. وكانت ضحكتها خبيثة قليلاً ومسمومة. لم يكن في ضحكتها شيء من الحزن وإنما حركة متموجة وناعمة كانت تبدو حبيسة وانفلتت الآن في فضاء غرفة القياس الصغيرة. إذا ما أطلقت لنفسها العنان فمن الممكن أن تشعر حتى بالغيرة منها، من جسدها، ومن طريقتها في اعتبار الحب غير مهم، ومن عزيمتها وطريقة تفكيرها. هناك، داخل الفستان، نيللي عارية. لِمَ يبدو أن لهذه الفكرة قوة لا تقهر؟ إنها طريقة تفكير ذكورية وتبسيطية. أن تبقى محافظة على هدوئها أمام حقيقة نيللي المنعكسة في المرآة وهي بفستانها الشبابي لهو أمر بمتناول يدها من دون شك، لكنها غير قادرة على التحكم في عسفه واعتباطيته.

«لم تعد هذه الفساتين ملائمة لسنِّي، لكنه ما زال يسرني أن أرتدي شيئاً كهذا من وقت لآخر. ربما كان ذلك ممكناً منذ خمس سنوات، أما الآن...».

«لماذا كان ذلك ممكناً منذ خمس سنوات والآن لا؟».

بدت نيللي غاضبة من هذا السؤال:

«لا تتجاوزي حدودك يا بنية».

«لم أقل شيئاً فيه تجاوز للحدود.»

«هيا، أخرجي من هنا، سوف أغيِّر ملابسي».

«لكني لم أقل شيئاً فيه تجاوز للحدود».

خيِّم توتر طفيف على الجو فجأة، ولم يدم طويلاً كالحبور الذي سببه الفستان، إنه تأرجح خاطف كحركة النواس. استدارت نيللي أخيراً نحوها بحركة تمثيلية. ما زالت قوية وقادرة بعد، قوية وهائلة جداً. بأية طريقة يمكن

تمثيل الحب في هذا الوجه؟ كيف يمكن وصف هذه الحركة؟ دامت لحظة فقط، لحظة أحست فيها أنها تحبها وتحتقرها، وأحست بالشعورين معاً مناصفة وبشكل غير كامل، لكنها أحست أيضاً أن شيئاً ما قد تغيَّر، إنها تمتلك الآن وبغتة شجاعة المجانين وجرأة النمور، فليس لديها ما تخسره، حتىٰ أنها تحس في أعماق نفسها قوة وحماسة غير مألوفتين، كتلك التي تظهر في روايات تشيخوف التي كان يحبها البابا: الشخصية الضعيفة التي تحملت أنانية جميع الشخصيات الباقية، تنتفض ذات ليلة غريبة وتتكلم. كانت قد أعجبت مرات كثيرة وبصمت بشخصيات تشيخوف تلك، والتي كانت أنثوية علىٰ الدوام، نساء ملؤهن الطيبة قليلات الكلام وغنيات بالمعاني، يبرزن فجأة كأنهن شحنة تتفرغ ويبدأن بتوجيه اتهامات مفحمة غير قابلة للاستئناف، يبدو لها أنهن يمتلكن نبض الحياة ويتحركن بحيوية واستقلالية وحرية لا نظير لها، وأن اتهاماتهن ليست اتهامات حقد وضغينة وإنما إشارة إلىٰ العدالة والاستقامة. أنا لم أطلب منك أن تحبيني،سترد نيللي بهذه البساطة، وبهذه الجملة التبسيطية يكون كل شيء قد انتهىٰ. كيف يا ترىٰ سيردّ تشيخوف علىٰ ذلك؟

«ولِمَ لا تنتظريني في الشارع؟».

وهذه المرة سوف تكون هي من ينتفض بعد هذا السؤال. ستتحمل لبضع ثوان أكثر قبل أن تقوم: بانتفاضتها الأخيرة.

«حسناً، سأنتظرك هناك».

إنها أكثر عصبية مما كان يُفترض، لكنها أيضاً أكثر ضعفاً. ويداها ترتجفان قليلاً وهي ترتدي معطفها. ذهبت ولم تمر لترىٰ البائعة وأطاعت نيللي: خرجت إلىٰ الشارع. الجو أكثر برودة من قبل، أو هكذا يُخيَّل لها. عند خروجها فكرت فجأة بأن تكمل طريقها وتغادر. ولعدة ثوان كانت تلمع في ذهنها تلك الفرضية الخيالية: أن تتابع طريقها وتتركها هناك، في ذلك المتجر. لكنها إن فعلت ذلك،

سيكون انكساراً جديداً لها وحدها وليس لنيللي. كانت تشعر بخوف غير مستحب يدغدغ كيانها. كان شعوراً ثابتاً ومستمراً تقريباً خلال الأشهر الأربعة الأخيرة، وذلك منذ وفاة البابا، لكنه لم يصل لحد أن يأخذ شكلاً صريحاً، كما لو كانت تحتمي من فكرة لا تجرؤ على التفكير بها. هي أيضاً كانت جبانة، فلقد هربت منه أيضاً. هذه الشبهة ليست من دون أساس. فالذاكرة تحتفظ بها بشكل ملموس، فهي أيضاً أرهقها هذا الحب الميئوس منه والذي لا يمكن تجنبه، كحب الأطفال. وكذلك كانت غريبة تجربة الأشهر التي أمضتها في المشفى. هناك تكون الأفكار كما شرر البرق والجسم يتعود على فعل ما يحس به ضرورياً لراحته يومياً، والأفعال والإشارات لا تغدو أكثر تمايزاً، بل على العكس تتكثف وتنضغط، والأيام تمتلئ بأشياء في نظرات المريض المتتابعة، والإرادة تقود الذاكرة إلى حيث يمكن البقاء على قيد الحياة، اليدان، اللسان، الشعر، الصدر، التخلي عن الأملاك، المساءات المقنعة بالتفاؤل، الاحترام، الأمل، الإنهاك الجسدي، عدم المقدرة على الكلام، بساطة مخططات الحياة التي يتم التفكير بها، أنا هنا... كل شيء هنا له ضرورته.

ولكن عندما يموت المريض (ولقد مات، والحمد لله أن ذلك لم يحدث أمامها) هناك ما يشبه الإدراك الرؤيوي للميت، كما لو أن الأمر يتعلق بخيط رفيع شديد الإغراء وطويل، شبيه بالحدود البيضاء للأفق على الشاطئ. الميت (لم يعد اسمه البابا، وكيف تمكن مناداته البابا وقد مات؟) له مقدرة التدفق كالسائل والوميض كالشرر الكهربائي، يختفي ثم يظهر فجأة هنا، بكامل وضوحه، عند الخروج من متجر أثناء البرد، يتم نسيانه ثم يبرز فجأة وكأنه يوجه اتهاماً: لا تفهميني بشكل خاطئ، لا تعيدي تصوري كما تريدين، ولا تجعلي مني الشخص الذي تحتاجين. يجب أن تكون وفية لأبيها الذي مات، لكن الأمر ليس بهذه السهولة، وهي ليست على القدر الكافي من القوة. بينما

كانت تنتظر نيللي وما تزال تستمع بفكرة إمكانية المغادرة وبسرعة وتركها هناك (كيف تبدو ملامحه؟)، تذكرت أيضاً ردود أفعال نيللي خلال تلك الأشهر: كيف تبدو ملامحه؟ لم يكن البابا قد طلب مجيء نيللي إلى المشفى، لكنه كان يرغب بذلك. كانت مدهشة تدرجات رغبة البابا، فهي مزيج لعوب ومخادع للنوايا، وفي أعماقه كان متأكداً أن أحداً لن يأسف لحاله، وأن كل ما يسببه رفض ونفور (اعترف يا أنطونيو أنك أنت حضرتك من سبب في الأصل لنفسه كل ذلك)، لكن لا أهمية للخطر أمام الرغبة. أحياناً يكون بغيضاً اختلاط الرغبة مع قليل من الحب. ينفجر هذا الخليط بغتة، وينضغط الأول إلى الثاني، ويتنفسان من حرارتها الذاتية، كما لو أن الأمر يتعلق بجرعة من المخدرات، وهي تعرف أن هذه الصورة تشغل مخيلة البابا بالكامل، كما لو أن كل رغبته الغريزية في الحياة مركزة هناك، ونظراً لحالته فلقد بدأ يصير غير عادي ويغضب بسرعة كما الأطفال.

كيف يمكن الشك بشيء بديهي ولا يمكن التنبؤ به: أن يتشبه الموت أخيراً بنوبة غضب سريع؟ لكن نيللي: كيف هو مظهره؟ وهل ما زالت ملامحه واضحة وبينة؟. كان متورماً. لا أعرف هل أذهب لرؤيته أم لا؟ وما فائدة ذلك بعدما بلغ هذه المرحلة؟ كان الأمر غريباً أيضاً: لم يكن في كلمات نيللي شيء من الخوف، ولا أي شيء من الضيق والكرب المحتمل أن يسببه جسد يموت لجسد حي سليم، لا شيء من هذه المشاعر أبداً، وإنما بدلاً عن ذلك نوع من المشاعر المألوفة في حياتها الآنية وغياب تام لإحساسها بالوفاء بالمعنى المتعارف عليه. لقد كانت حركة أصيلة فيها بالفعل، ما فائدة أن أذهب لرؤيته؟ لكن ذلك لا يكبح رغبة البابا، بل يغذيها: يوماً بعد يوم ينام ويستيقظ وهي تعرف أن هذه الفكرة تنمو فيه (قومي بتهوية الغرفة قليلاً، فرائحتها كريهة، أليس كذلك؟ أقول ذلك على فرض أن نيللي ستأتي).

«آه، أنت هنا، لم أكن أراك»، قالت نيللي وهي خارجة من المتجر وفي يدها كيس.

«هل اشتريتِه؟».

«نعم».

قالت نعم بحيوية ووضوح وبدت وكأنها تفكر: لا تتجرئي عليَّ ولا تقولي أي شيء. إنها كبيرة في السن الآن، لقد كبرت في السن، هكذا تعتقد الآن ولكن بعد أن اشترت الفستان. إنه أول تصرف فاشل لنيللي. لقد كان لديها تصرفات فاشلة أخرىٰ بالتأكيد، لكن هذا هو الأول الذي تراه هي بوضوح، وهذا ما يمكن له أن يغير حرارة الشارع وحرارتها هي وحرارة خوفها الخاص. منذ لحظة كانت علىٰ وشك المغادرة، والآن تُسرّ لعدم مغادرتها لتكون شاهدة علىٰ هذا التصرف الذي يبدو مفيداً: فشل نيللي وهي تخرج من محلات سيبيلا Sybilla حاملة فستاناً لن ترتديه أبداً، تم شراؤه لنيللي التي كانت وليس لنيللي الآن. عندما كان لها من العمر سبع سنوات أهدتها نيللي الدمية التي كانت ترغب بها وهي بنت ست سنوات، أحضرتها لها من لندن مع أشياء كثيرة أخرىٰ (لا يمكن لك أن تتصوري ما بداخل هذا الكيس) تتذكر السحر الذي أصابها والعذاب غير الضروري الذي كابدته لعدم مقدرتها علىٰ فتح الكيس قبل أن تتناول الطعام، وعندما فتحته أُشبِعت رغبتها وأُطْفِئ توقها، ولكن عندما أُطْفِئ توقها برؤيتها سخافة الدمية الشقراء المحشورة في العلبة البلاستيكية الشفافة، تذكرت رغبتها البعيدة وخجلها من استعدادها لفعل كل شيء في وقت سابق من أجل الحصول علىٰ هذه الدمية الشقراء مثل الممثلة فيرونيكا ليك ولكن لا طعم لها.

عندما كان عمر نيللي ستة وخمسين عاماً اشترت الفستان الذي كانت ترغب به وهي بنت خمسين. إنها غاضبة من نفسها،هي، وليس لديها رغبة في

الكلام، لذلك هي من يتحدث الآن. الجو مفعم بشيء شبيه باللطافة والحزن. وبما أن نيللي الآن مثيرة للضحك فهي تحبها أكثر، لكنه حب من بعيد. لو كان بمقدور نيللي على الأقل أن تراجع ما حدث وتقول: هل تتصورين حماقتي؟ لقد اشتريت الفستان... لكنها لا تقدر على فعل ذلك، وهي لا تستطيع التحدث عن نيللي وعدم استطاعتها هذه ليست إلا امتداداً لفشل نيللي في شراء الفستان، تماماً كما الرغبة التي تبددت حيال الدمية، تتغلغل في جسد الدمية وتنتشر فيه ولا تعود مرغوبة. لذلك هي من يتحدث الآن، وكما لو كان تصرفاً حاذقاً (الوحيد الممكن) أن تتصنع أنها لم تعلم بشيء. هل هذا هو الحب؟ هي فيها جانب خبيث بكونها طيبة. وفيها جانب خبيث بحبها لها.

قالت:

«نستطيع الآن الذهاب إلى محلات إيف سان لوران لشراء شيء ما لخالتك لُو».

قالت:

«انظري، لقد توقف الثلج وبدأ الجو بالانجلاء».

قالت:

«أحب الأنوار البيضاء في مدريد».

كانت نيللي توافق على كل ما تسمعه منها تقريباً، وتنظر بالتناوب إليها وإلى السماء بينما هي تحس أن الكيس الذي فيه الفستان يقل وزنه شيئاً فشيئاً، ويصير أكثر خفة وخلال لحظة يبدو غير محسوس، كثقل وهمي يقاوم بشكل غامض ثقل مدريد. لا أحب الألاعيب، ولا أحب الناس قليلة الوضوح، كان من عادة نيللي أن تقول وتتذكر مناسبة، عندما عادت من رحلة إلى الصين (البلد الأكثر فظاعة من كل البلدان التي زرتها في حياتي)، روت فيها نكتة: منذ ستمئة عام وُضِع تمثالا شخصين خائنين في أعماق بئر؛ حتى اليوم عندما يمر الناس على

البئر يبصقون فيه. لقد كان هذان التمثالان برّاقين ، أو تدرين؟... ستمئة عام والناس يبصقون عليهما. لماذا تتذكر هذه الطرفة الآن؟ هي كوخزة يسببها انفعال ما والخوف من استمرار الازدراء بعد الموت، والخشية من ألا يعود ممكناً تنظيف شارع سيرّانو، الذي ستعودان إليه من جديد، والخشية من ألا يعود ممكناً تنظيف شراشف المشافي وألا يعود ممكناً تنظيف الذاكرة. لم تفعل أي شيء في حياتها. عمرها ثلاثون عاماً ولم تفعل أي شيء في حياتها: دراسة إدارة الأعمال، العيش في باريس لعامين، الاعتناء بصحة البابا، الذوبان في حب نيللي، ازدراء نيللي، محاولة العيش كما لو كانت نيللي غير موجودة، وحتى نسيانها تماماً. آمال وإحباطات البنت الثرية، البنت المدللة.

محلات إيف سان لوران هي عالم معقد يغص بالأشياء على خلاف بساطة محلات لوفي أو أيروتيكية محلات سيبيلا، هي عالم وثير وفيه شيء من العدوانية، والخالة لُو هي أصعب الحالات فيما يخص الذوق. نيللي تحل الأمر دائماً كما تحل جميع الأشياء الصعبة: تختار أول شيء تقع عليه عيناها ويكون رد فعلها الذي لا يصدق أمام الاستياء أو خيبة الأمل بقولها ببساطة: لقد بدا لي أنه مناسب جداً لك. ورغم أن نيللي نفسها متطلبة في الذوق جداً، فإنها لا تتفهم صعوبة ذوق الآخرين وتطلبهم، شخصيتها معقدة لكن يبدو لها من التفاهة ألا يكتفي الآخرون بأشياء بسيطة. هل هذا علامة على نقص في خيالها أم علامة على الأنانية؟ هي لا تعرف، والاستياء الذي أحدثته فيها بعض المرات تلك العلامة في شخصية نيللي لم يعد موجوداً. أحياناً مع نيللي يجب التحلي بصبر شبيه بالصبر مع طفل يُعرف أنه طيب ويتصرف بلا تفكير، بل أكثر من ذلك صبر شبيه بالصبر مع طفل خالص الطفولة. وهي عندما تتحلى بالصبر هذا، فجأة وعلى حين غرة، يبدو لها أنها تنزلق وترى وجه نيللي، وجه غير مفهوم أبداً في الحقيقة كوجه الحيوان. بلغت بشاعة المتجر حداً مذهلاً، كما لو أن مصممي إيف سان لوران قد

فقدوا صوابهم بغتة وأخذوا بتصميم أزياء لعشيقة وزير تشبه ببغاء ريفيا يعج بالألوان.

هذه المرة هي تفضل أن تبقى إلى جانب نيللي وتحتمي منها بأن تبقى قربها. لديها إحساس مقلق: إحساس يشي بأن الكلمات فقدت صلاحيتها. أيضاً مع البابا كان ينتابها أحياناً هذا الإحساس، وكأنها عشيقته أكثر من كونها ابنته. لكن الإحساس لم يكن يفتقر إلى الصوت، بل على العكس تماماً: أيام المرض كانت تحس أكثر بضجيج أصم، يشبه الصوت الذي يحدثه من يعبر بين أوراق شجر كثيف، أومن يحرك بيده جريدة، صوت أقدم منها نفسها عبر ليصل إليها أزمنة مديدة ومساءات صيفية كاملة (نيللي في الصيف، بثياب البحر الزرقاء)، وصادف في طريقه ملابس كتلك التي تتفحصها نيللي الآن بنظرات شاردة (باستياء؟).

«الجو حار هنا، أليس كذلك؟».

«نعم» أجابتها، وحصل لها ما حصل لنيللي، إنها تتعرق وبشكل مباغت داخل معطفها.

أحستا بدوار بسبب الحرارة، لذا خلعتا معطفيهما بحركة متناغمة. وفيما تخلع معطفها تأملت للمرة الأولى في المرأة التي إلى جانبها، وبدت لها كما لو كانت تفتقر إلى الانسجام. دخلت معهما إلى المتجر ويبدو عمرها حوالي الأربعين عاماً. ليست قبيحة ولا جميلة، شفتاها صغيرتان وكأنهما ممحيتان وليس عليهما أحمر الشفاه، تنظر حولها بعينين واسعتين فيهما شيء من الخوف، بنظرات فيها ازورار وسرعة مدهشة، ترتدي معطفاً فضفاضاً لم تخلعه رغم حرارة الجو ولها يدان صغيرتان مضطربتان ترتجفان كعصفور. سيحدث شيء ما، قالت في نفسها. ثم تأكدت مما سيحدث: هذه المرأة على وشك أن تسرق شيئاً. لماذا تقترب من نيللي بشكل غريزي وكأنها تلتصق بها؟ ثمة شيء خطير يحدث، كالتعاقب المترابط بين السبب والنتيجة، والرغبة في الصراخ، والتنبيه،

ليس لمن يعمل في المتجر، وإنما لنيللي، أو ربما للسارقة نفسها. طبقاً لمظهرها لا أحد يتوقع أن تكون سارقة. تنحني متظاهرة بأنها تنظر إلى بعض الأقراط والأطواق، تأتي ثم تعود إلى نفس المكان، وبين الفينة والأخرى تحتمي في تحركها خلف زبون آخر في المتجر، كما لو كانت تستعمله كحاجز لحمايتها، وتعطي الانطباع بأنها تختفي خلف الضباب.

«كم أنت تشعرني بالحر.»، قالت نيللي.

«ولِمَ لا نغادر هذا المكان؟».

«هل تمكنت من النظر إلى بعض الأغراض؟».

«لا شيء يعجبني هنا».

«وأنا كذلك».

ثم حدث كل شيء بشكل مباغت قبل أن تخرجا. ارتدتا المعطفين وكانت هي ترقب المرأة كيف تضع شيئاً ما في كم معطفها، لم تعرف ما هو، بحركة عصبية وخفيفة جداً، كظل حركة يد ساحر. هل حدث الأمر أم لا؟ ما الذي تمت سرقته؟ أقراط، أم ربما طوق؟ ثم توجهت نحوهما لتستعملهما كغطاء في هربها من المتجر. هي تشعر بتماسها معها في ظهرها الملتصق تقريباً بظهر نيللي التي لم تنتبه لحدوث أي شيء، وعندما وصلن إلى الباب تماماً، أوقفهن الثلاث أحد البائعين في المتجر، ثم توجه مباشرة إلى السيدة.

«هل يمكن لك أن تأتي معي للحظة من فضلكِ؟».

«من؟ أنا؟»، سألت نيللي.

«لا، حضرتك، لو سمحتِ»، قال وهو يتوجه إلى السيدة.

«لماذا؟».

كان تصرف البائع موفقاً، وفيه تهذيب الصياد المزيف وضبط مشاعره. السيدة تعرف حقيقة الأمر وهو أيضاً. أما هي فأحست بضيق لا معنى له، كما لو

كانت هي السارقة، وشعرت بغصة وانكماش في حلقها، وخرخرة في تنفسها، و تسارع في دقات قلبها.

«ولكن ماذا حدث؟»، سألت نيللي.

«أنتِ يا سيدتي، يمكن لكِ أن أنت تنصرفي، ليس هناك شيء أقوله لك.»، أجاب البائع، لكن عندما استدارت هي نحو المرأة رأت البائع وقد أمسك بها من ذراعها، بحركة تبدو عادية وتكاد تكون لطيفة لكنها مباغتة بصمت، قابلها على الفور حركة فيها انقباض مؤلم للمرأة.

«إنك تؤلمني»، قالت المرأة بصوت خفيض.

«تعالي معي من فضلك».

«إنني على عجلة من أمري، ماذا تريد؟»، سألته في محاولة يائسة منها للهرب نحو الأمام. لم يكن الجواب لطيفاً:

«حضرتكِ، تعرفين تماماً».

«هلا تترك ذراعها، لو سمحت؟» قالت نيللي دون أن تعرف أي شيء مما حدث. ثم فجأة يبدو أنها فهمت الأمر، ربما عندما نظرت إلى المرأة. إنه مشهد خالٍ من المعنى، تماماً كما في الأشهر الأخيرة من حياة البابا، فجأة وفي وسط الهموم اليومية والاعتيادية يبرز العنف والخزي والتشهير والاعتراف بالخطأ. هي تعاين تجربة لغة الجسد كما لو كانت تتقدم في عتمة غرفة تجهلها، مليئة بالأثاث والأغراض التي تتعثر فيها. العالم غير معقول ولا يُصدق، تعتقد. ثم هناك في هذه المرأة نظرات يائسة، أو أنه تهيَّأ لها ذلك. وفي نيللي نظرات قاسية لا ترحم، أو أنه تهيَّأ لها ذلك.

«هيا بنا، لنمشِ من هنا».

استدارتا وخرجتا. عادت، هي، للمرة الأخيرة لترى كيف يقود البائع المرأة نحو الداخل. بعد ذلك وعلى الفور عادتا لتجدا نفسيهما في الشارع، في البرد

وفي مرح الثلج مرة أخرى. بدأ الثلج بالسقوط من جيد. تبدو لها غريبة.الطريقة التي يبدو فيها العالم متناسقاً في تقلباته.

«قامت بسرقة للتوِّ، أليس كذلك؟» سألت نيللي.

«نعم، أعتقد ذلك».

«وهل رأيتِها أنتِ؟».

«رأيتها كيف كانت تقترب من الأقراط، ثم كيف كانت تقترب منا، كما لو أرادت التظاهر بأننا نحن الثلاث سوية نعرف بعضنا».

تمشي نيللي للحظات في صمت، من دون أن تتضح وجهتها، فقط لأن أعصابها أثيرت، وهي إلى جانبها. هل هي غاضبة؟ حانقة؟ مع نيللي الأمر دائماً هو ذاته، لديها إحساس أنه حتى في اللحظات العصيبة شيء ما يمسها مساً خفيفاً، دون أن يكون التماس شيئاً آخر غير ذبذبة طفيفة. وهي تلمسها، ولكن ربما برفق مبالغ، وبشكل حذر جداً، ربما لكي تجعل التماس حاسماً. لِمَ أعصاب الاثنتين مستثارة إلى هذا الحد؟ لا أستطيع أن أشعر بالأسف لأوجاع كل الناس، لا وقت لدي لذلك، قالت نيللي ذات مرة، وإذا كنت لا أستطيع المضي في الحياة وأنا أوزع العطف على الناس، فهل علي في هذه الحالة أن أطلب منهم الاعتذار؟ فجأة عبر في الشارع رجل وسيم ونظر إلى نيللي نظرة اهتمام، لكنها لم ترَ نظرته أبداً. إنها منغمسة في التفكير بنفسها. أن يكون المرء جباناً، هو أمر يتطلب مقدرة، تقول أيضاً. إنها جملة مبهمة. فجأة تلتفت نحوها:

«أنت لم تسرقِ في حياتك أبداً، أليس كذلك؟».

«من؟ أنا؟»، سألتها هي، وبدا وكأنه اختبار طفولي. إنه جواب لكي تمنح نفسها الوقت، لكن نيللي فهمته على أنه نفي. ثم قالت شيئاً أكثر غرابة:

«إن الهوس بالسرقة هو أسوأ ما في النساء» قالتها بازدراء تام، كما لو أنها لم تكن امرأة، أو كما لو أنها تتحدث عن شيء مادي تشمئز من رائحته. انخفضت

الحرارة من جديد بسبب الثلج وعندما كانت نيللي تتكلم، كانت هي ترى البخار الساخن يخرج من فمها ويمر على شفتيها. ما قالته نيللي للتوِّ، صار فجأة يطفو في الجو، مثل البخار أو الضباب، مثل حقيقة ساخنة ورطبة. هاجس التملك عند النساء، هذا الهاجس الغريب في التملك، كخلل دفين في الأعماق، خلل لا يستسلم للاستنزاف أو الإنهاك، وهو حاضر أبداً: الافتتان بالتملك والعجز عنه. ربما تكون نيللي ذكورية بهذا المعنى، على الرغم من كل شيء. هي، وبكل تأكيد، ليست كذلك. هي مجنونة بالتملك، تحس به بشكل متقطع كأنه كل ما يهمها فعلاً، وعلى شكل نوبات عنيفة تتفعل ثم تخبو، وبكل تأكيد لقد سرقت ذات مرة. ماذا سيحدث لو أنها اعترفت لنيللي بذلك الآن، تحديداً الآن؟ ولماذا ستكون سرقتها أكثر ضعة من سرقة تلك المرأة في المتجر، وأكثر سوءاً؟ وما الذي سيحدث لو قالت لها ببساطة: مرة، سرقتك أنت؟ كيف سيكون رد فعل نيللي؟

تتذكر ذلك الحادث، كان البابا ما يزال على قيد الحياة. ذهبت إلى منزل نيللي لزيارتها، واضطرت نيللي للنزول إلى الشارع، فكانت متأكدة من أنها ستكون لوحدها في المنزل لمدة عشرين دقيقة. إنه إحساس لجوج: تتذكر أنها كانت لوحدها وأن قلقاً غريباً استبد بها، وأنها توجهت إلى غرفة نيللي وفتحت إحدى خزاناتها. إنه تصرف حب مقهور وممنوع. تتذكر ملمس الصندوق الذي كانت نيللي تُخبِّئ فيه جواهرها التي لا قيمة كبيرة لها والتي كانت تنثرها جميعها على السرير وهي تجلس القرفصاء. تتذكر بعضها بشكل غائم، وبعضها الآخر لا تتذكر أنها رأته أبداً: أقراط طويلة، سوار صغير، أربعة خواتم، مشبك أسود له حلقة بيضاء في المركز داخلها حلقة سوداء. استولى عليها سحر المشبك بشكل تلقائي وأحست بذهول من شدة جاذبيته. هل يمكن أن تقول لنيللي: أحسست بذهول من شدة جاذبيتك؟ هل تستطيع استخدام هذه الكلمات أم سيكون من الضروري استخدام كلمات أخرى فيها لف ودوران،

لتشرح لها أنه لم يكن هناك من مفر من أن تضع المشبك في حقيبتها، وتعتبر أن شيئاً لم يحدث؟ هل من معنىً في أن تسرق ما هو ملكها؟ لأن المشبك ملكها وليس ملكها، هي مالكته الطبيعية، وهو لها في منطق وراثة الأملاك، وفي نظرات التملك التي تبديها كوارثة شرعية. الشرخ كامن هنا. بعد ذلك، وعندما تعود، ستعتذر فجأة من نيللي وتخرج على عجل من المنزل، وهي تحس بملمس المشبك الذي لا يحتمل. أخرجته وتفحصته، لقد فقد كل بهائه الجميل، لكنه لم يفقد وزنه. لقد تغيَّر شيء ما فيها وليس في المشبك، هي التي كانت تريد أن تستدير نحوها، كما لو رغبت في أن تقول لنيللي: بما أنك أنتِ من أثار الموضوع، فالمسؤولية تقع عليكِ.

«نيللي...».

«نعم؟».

«وأنتِ؟».

«أنا، ماذا؟».

«هل سرقتِ ذات مرة؟».

توقفت نيللي بغتة في عرض الشارع ووقفت قبالتها، كشخص راشد يستعد لتوبيخ طفل. هي تقول في نفسها الآن ستنفجر غضباً. تقول في نفسها ستنفجر غضباً كما لو كانت مستعدة مسبقاً لتلقي غضب نيللي العنيف الذي سينهال على جسدها. حدث ذلك في مرات أخرى أيضاً، ودائماً كانت تحس مسبقاً بنفس الشعور الذي تحس به الآن: الخوف كقشعريرة معدية، الرغبة في أن تكرهها. لماذا ترغب في أن تكرهها؟ ربما يكون الكره سلوكاً حقيقياً وامتحاناً فعلياً وإخلاصاً وأمانة بصراحته. لن تكون جديرة بحبها، إلا إذا كانت جديرة بكرهها، إنها فكرة خرقاء، لكن التفكير فيها في عرض شارع سيرانو تحت الثلج الذي يتساقط بخفر يجعلها معقولة، من دون أن يعرف أحد السبب.

«وما مناسبة هذا السؤال الآن؟».

«لا أعرف.».

ما الذي فعلته؟ ما الذي مسّته؟ لقد مست شيئاً من دون رغبتها. فجأة تعرف ما هو، وهي متأكدة تماماً أنها فعلت ذلك، شيء ما يرتعش في نيللي، ويصدر صخباً كأنه قطار. وبغتة، في لحظة واحدة، تزداد حدة نظرات نيللي بشكل غريب.

«لقد سرقت مرة.» أجابت، «هل أنت مسرورة الآن؟».

«لا».

«انتهى الكلام».

هي تشعر برغبة عنيفة في أن تلمسها. لا عناقاً ولا تقبيلاً ولا مداعبة، وإنما لمساً خفيفاً، هي على وشك القيام به ولكنها ترددت، فتحولت الحركة المزمَعة إلى خطوة خرقاء ومضحكة قليلاً، كما لو أنها تصنعت التعثر قليلاً وهي واقفة في مكانها. لم يسبق لها أن رأت نيللي تنظر بهكذا نظرة أبداً؛ ليست نظرة عطوفة ولا خجولة ولا غضوبة. فيها شيء عميق تم ترويضه، شيء من حيوان، لكنه حيوان متعب يتخلّى طواعية حتى عن زخمه الخاص. عليها أن تحافظ على نظرتها الخاصة، عليها أن تلتهم هذه النظرة وتعيد اجترارها والتفكر فيها. لا تحس بشيء، تقول في نفسها. هل هذا ما يحدث الآن، وربما هذا ما كان يحدث دائماً؟ سوف يكون من السهل كثيراً الاعتقاد بأن نيللي لا تحس بشيء، لكن في صياغة هذه الجملة ثمة ما يبدو مؤكداً. الاعتقاد بأن نيللي لا تحس بشيء، هو في الحقيقة بداية الجملة الحقيقية، والتفكير الصحيح، كوضع اليد على مقبض الباب وفتحه، والآن ستعبر الباب وترى ما في الداخل. سوف يحدث ذلك اليوم، تقول في نفسها، وهي متأكدة أنه سيحدث اليوم، وكل ما عليها فعله هو تتبع مسار هذه الجملة، كما يتتبع متسلق الجبال التائه مسار نهر.

«لم أكن أرغب بإزعاجكِ»، قالت بينما كانت الاثنتان تستأنفان المسير، لكنها ندمت فيما بعد على قولها هذه الجملة، فهي لا تبدو معقولة. ونيللي لن تتأخر في الرد:

«بل هذا بالضبط ما كنتِ ترغبين فيه منذ رأيتني هذا الصباح، يا بنيَّة.» ليس هناك أدنى أثر من التعنيف في ردها، بل مرة أخرى مسافة فاصلة وصوت كعبي حذاء نيللي، وحفيف معطفها القصير الذي ينفتح وينغلق في كل خطوة وكأنه يتحدث بلغة غريبة وساحرة. هناك شيء غامض: في كل تصرف أو حركة تقوم بها نيللي يظهر نوع من المعنى الخاص في علاقة الانتماء. ذات مرة قال أبوها كلمات أشبه بالخيالية، وذلك عندما غادرت نيللي المنزل وسألته هي هل ستعود؟: سوف تعود؛ لأنها منا وفينا. تتذكر ذلك الآن أيضاً. الصمت ليس امتداداً للغضب. والحقيقة أن الغضب لم يتمكن حتى من أن يمس نيللي بشيء. بل إن الصمت هو امتداد لتلك الجملة التي ترفض الفشل: سوف تعود؛ لأنها منا وفينا.

ثم في المطعم. غطاء الطاولة الأبيض المصنوع من الكتان، والكؤوس الأربعة المتراصفة، والشُّوَك والسكاكين المتلألئة، وقائمة الطعام بورقها الأصفر الفاتح ذي الملمس الخشن العذب، وصوت أحاديث الآخرين التي لا يمكن تجنبها. أحست الاثنتان بشهية لتناول الطعام فجأة ونيللي أتت بها إلى هذا المطعم الذي يعجبها، والذي لا تعرفه هي ولم يسبق لها أن أكلت فيه. تخيم هنا مشاعر حبور رائعة، وجو مؤثر عذب ولطيف، لا يهم ما يقال هنا، وهناك إحساس بأن أية دردشة أو أي حديث مهما كان عادياً يصبح جميلاً على الفور، كما في الخدر الذي يصيب الأشياء. تشعر بالراحة تماماً بعد هيجان حديثهما في الشارع وما سببه لهما، الراحة، كما لون أن كل الأشياء الجميلة في هذا العالم اجتمعت لتقدم لهما هداياها بكل لطف تعويضاً عما جرى. وربما أيضاً حكمة نيللي، التي لم تصر على ما كان من المستحيل إيجاد حل له. كيف يمكن تحديد ميزات الأشخاص على أنها

فضائل أو نقائص؟ ما كان منذ عشرين دقيقة نقيصة محبطة في نيللي هو الآن فضيلة رائعة، يشهد على ذلك رصانتها في التعليق على قائمة الطعام (إياكِ وأن تطلبي طبق الرافيولي، فهو الوحيد السيّئ في هذا المطعم)، وتروِّيها في اختيار الأطباق، والاستمتاع باستراق النظر إلى بعض صحون الطاولات التي حولها، والنبيذ طيب المذاق، والانقطاع عن صخب أعياد الميلاد الذي كان يخيِّم في الشارع، والذي لم تشعرا به فعلياً إلا هنا بعدما أقصي عنهما. كانت ترغب بالاعتذار لتنال رضاها. لكن ما يبعث على الرضا أكثر هو كبح هذه الاندفاعية والتركيز على الأشياء المادية: كلذة إشباع المعدة بعد الجوع، ورائحة الخبز الساخن الخفيفة التي يعبق بها المطعم، وكأس النبيذ. عندما شربت جرعة من كأس النبيذ، قامت بحركة حاذقة ومسرحية قليلاً ممثلة دور الخبيرة، لتعلن للنادل الذي ابتسم، رضاها عن جودته. إنها عادات يتعودها المرء، ولن نكتفي أبداً من تعلم العادات،قالت في نفسها. كانت عبارة يحبها البابا. لكن من كان صاحب هذه العبارة؟

«إنها عادات يتعودها المرء، ولن نكتفي أبداً من تعلم العادات» قالت بصوت مرتفع، وبنبرة من يستنطق ذاكرته وبمرح، كما لو أنها ممثلة من خارج العصر، من القرن التاسع عشر.

«من كان يقول هذا؟».

«البابا».

ابتسمت نيللي بطريقة فيها غرابة.

«كان يقول هذا؟ لم أكن لأعتقد أنه يقول شيئاً كهذا».

«إنه قول شهير في حقيقة الأمر، ولا أتذكر من صاحبه، كان يقوله عندما كان يُسر لوجودنا سويّة.»

أصوات خاصة، أقوال خاصة، أفكار خاصة، تعرفها جميعها، اختبرتها

مرات عديدة وعاشت معها. وبغتة تكتشف الطبيعة المنمَّقة جداً الذي يمتلكه هذا القول الموجه أصلاً كغزل لنيللي، كما عندما يستعمل المرء شخصاً ثالثاً ليُفْهِم أحداً ما أنه يحبه. وما معنى أن يمضي المرء طول العمر وهو يقول: «أحبك» على الدوام؟ وكيف يمكن للمرء امتلاك شجاعة قول شيء من هذا القبيل لأحد ما؟، قالت نيللي في إحدى المناسبات. الميت يتنحَّى من تفكيرها قليلاً، للمرة الأولى منذ أربعة أشهر. لا تشعر بالذنب لذلك، كما لو أن الحياة كانت هكذا، ولا أهمية كبيرة للميت ذي اليد الرقيقة والرشيقة، وهي تفكر بذلك بطريقة عادية: تنتظر الطعام الذي أتى أخيراً: طبق لازانيا الخضار لنيللي، وطبق النيوكي بالكريما لها.

«في نهاية المطاف، لم نشترِ شيئاً للخالة لُو».

«فيما بعد سنذهب إلى مركز ABC التجاري في شارع سيرانو، ففيه أشياء كثيرة.» أجابت نيللي لتنهي هذا الحديث.

يبدو لها طبيعياً ومألوفاً هذا التصرف، هذه الطريقة في تجنب كل ما هو منغص. تركز اهتمامها في طبق اللازانيا. عندما تبدأ نيللي في تناول طعامها، لا تُعير اهتماماً لأحد أبداً، وتنكب عليه كمخلوق أسير لذته، بل إن حركاتها تصير أكثر لطافة، فيها مزيج من حركة طبيعية، كحركة الفرس، وملامح أرسطقراطية، كملامح إمبراطورة. ربما يسعدها الاعتقاد بأنه لا يوجد شيئان متشابهان في هذا العالم مثل الفرس والإمبراطورة. وهي أيضاً تركز اهتمامها، كما لو كانت تقلد حركات نيللي، في قطع طبق النيوكي، وفي التلذذ في بنيتها المدورة والطرية، وفي طريقة ذوبانها في فمها. طلبت المزيد من النبيذ. إنها تحب الشراب. أحياناً تحس بالرغبة العارمة في أن تسكر، كحركة عصبية تجتاحها، ويحدث لها ذلك دائماً مع النبيذ. هل هذا معقول: أن تكون على وشك التحليق من شدة الحبور فجأة، أن تحس بدغدغة النبيذ وبأول السكر، أن تكون سعيدة بكونها حية وتستمع بكل

شيء، وأن تستطيع استراق النظر دون وجل تقريباً إلى وجه نيللي؟ لقد فعلتها أخيراً: إنه وجه كلاسيكي في حقيقة الأمر. وجه زوجة الإمبراطور وابنة القيصر. ذات يوم وفي متحف الفن الروماني في مدينة ميريدا، في إحدى الصالات، أدهشها ذلك الشبه الغامض بين أحد التماثيل الرأسية ووجه نيللي. لم يكن الأمر متعلقاً بشبه من النوع العادي كالشبه الفيزيائي، رغم أنه كان قائماً بالفعل أيضاً: كرسم الحاجبين الرفيعين والشفتين الرقيقتين، وكبروز عظم الوجنتين المتسق مع الخدين انتهاءً بالذقن الصلبة، وإنما شبه مجردٌ صعب الشرح والتفسير: نوع من السطوة والتسلط.

«ذات مرة، انتحر رجل من أجلي، أفكر فيه مرات كثيرة» قالت بغتة.

«ماذا؟».

مسحت نيللي شفتيها بالفوطة وشربت المزيد من النبيذ، وشدت سترتها لترتبها على جسدها. نظرت إلى النادل ونادته مشيرة له بيدها.

«هل لديكم حلوى محضرة في مطبخكم؟».

«لدينا حلوى الباناكوتا، وهي كريما مطبوخة لذيذة الطعم جداً».

«أحضر واحدة منها مع ملعقتين صغيرتين».

التفتت من جديد نحوها وهي تخرج سيجارة من علبة السجائر. لا تدخن نيللي إلا في اللحظات المؤثرة. وحياتها اليومية مليئة باللحظات المؤثرة، كما لو أنه يجب وقف توتر نهاية الأشياء.بشكل مستمر.

«رجل شاب، انتحر من أجلي منذ أكثر من عشرين عاماً».

قالت نيللي الجملة وأخذت من السيجارة نفساً طويلاً بمنتهى العفوية وهي تتلذذ بها. حركات نيللي في اللحظات الحرجة فيها نوع من قواعد المبني للمجهول في اللغة، لكن ليس في هذه اللحظة. ليست مستثارة الأعصاب، ليست كذلك على الأقل بطريقة واقعية.

«لم يسبق لك وأن رويتِ لي ذلك.أبداً».

«لم أروِه لأحد أبداً».

«ولكن، كيف حدث الأمر؟».

«كتب لي عدة رسائل. كان يلاحقني ويتتبع أثري. كان ابناً لأحد أصدقاء أبي. كان يقول أنه مغرم بي. حتىٰ أنني لا أتذكر وجهه، لكنني أتذكر أنه عندما كنت أخرج من المنزل، كنت أخاف أن يكون هناك في الخارج. له نظرات مبهمة وشاخصة، كما لو كانت نظرات جوفاء. أتذكر نظراته، لكنني لا أتذكر وجهه. كان بغيضاً».

أتىٰ النادل حاملاً حلوىٰ الباناكوتا وملعقتين صغيرتين متلألئتين، واحدة بجانب الأخرىٰ. ابتسمت نيللي لتشكره وأخذت علىٰ الفور إحدىٰ الملعقتين وحركت بها الحلوىٰ قليلاً، ثم أكلت أخيراً قطعة صغيرة منها.

«ليست سيئة.» قالت بشكل قاطع.

جربتها هي أيضاً. من المؤكد أنها ليست سيئة. ترغب في أن تقول شيئاً ما، لكن نيللي لا تبدو بحاجة إليها. وكذلك لا حاجة لأن تخدع هي نفسها: لا تشعر بأي شيء يمكن أن يضيف ولو القليل علىٰ ما قالته نيللي للتو. والمنطقي هو أن تسأل حول المزيد من التفاصيل، وأن تبدي اهتماماً مبالغاً فيه بالأمر: كيف كان يلاحقها، كيف انتحر الشاب، ما اسمه، هل ما زالت نيللي تحتفظ برسائله أم لا؟ والمنطقي ربما يكون أكثر وبالاً بكثير وأكثر عبثية: الاعتقاد بأن نيللي هي هكذا، لأنه حدثت معها تلك الواقعة. إن هذه الفكرة تثير الضحك في نفسها. والحقيقة أنها تشعر بشيء ما: إدراك تام بعدم الفائدة من إضافة أي شيء. كما أنها تشعر أيضاً بشيء آخر: رغم أنها كانت تحب البابا أكثر، إلا أنها كانت تنحاز دائماً لنيللي، وهذا أمر محير. كانت تعتقد دائماً أن نيللي علىٰ حق.

عند خروجهما من المطعم توجهتا فوراً نحو مركز ABC التجاري في

شارع سيرانو، ليبحثا عن هدية للخالة لُو. كانتا تمشيان كل واحدة لوحدها في حقيقة الأمر، لكنهما غير منشغلتي الفكر ولا متباعدتين. انخفضت الحرارة من جديد. اقتربت قليلاً وعندما بدأت تشعر بحفيف معطف نيللي بمعطفها دست ذراعها تحت ذراع نيللي وتأبطتها. الأشخاص يسببون لها الآن شعوراً غريباً، شيئاً ما لا يمكن تصديقه، كما لو أنهم ينتصبون على ركبهم ببطء ويرتجفون، وكما لو أن أحداً حرَّرهم من خطر ما بمحض الصدفة. وعندما تكون في هذه الحال لا تستطيع منع نفسها من تصور هؤلاء الأشخاص وهم يمارسون الجنس وتصور انقباضاتهم ثم استرخائهم، وملمس جلدهم، وكأن شيئاً يجعلهم ينتفضون من الداخل ليظهر في تعبير عصبي ومؤلم، شيء لا يمكن تفسيره، لكن شيئاً غريباً يبدو الآن في التماسٍّ بذراع نيللي، كما لو أن هذا الملمس هو بالتحديد ما يبعد عنها هذه الفكرة. أحياناً، مجرد التفكير في أنها ولدت من صلبها كانت تبدو لها مرعبة، الآن وبغرابة لا يبدو لها ذلك. وهي فكرة كانت تراودها دائماً وتعرفها وكانت تلجأ لاستخدامها أحياناً، ومن المؤكد أن نيللي وبنفس الطريقة كانت تستخدم بعض الأفكار التي تجهلها هي. في حقيقة الأمر إنه الشارع، على كل حال، الذي يفرض لغته ولكن يحلو لها أن تلتفت نحو نيللي وتقول: يا ليتك تنفُذين إلى أعماقي، يا ليتني أقدر أن أتكلم دائماً، وأعهد بنفسي إليك، أعرف أن هذا مؤكد كحقيقة تم تصويبها، أعرف هذا وهويتردد في مسامعي، جسدك، الاحتكاك بمعطفك، أعرف أن هناك حقيقة أكبر من ذلك. لكن بروز هذه الفكرة بشكل مستمر في شارع سيرانو وتحت سماء عادت لتكتسب بريقاً يثير الاضطراب، يجعلها تحس وكأنها تتأرجح، تماماً كما لو كانت في أرجوحة إحدى الحدائق.

إن رصانة تصميم مركز ABC التجاري تبعث على السكينة، وبشكل عجيب هو خالٍ من الناس تقريباً. وإذا ما قال لها أحد ما أن نيللي وهي لن تعودا

للتحدث مع بعضهما فسوف تصدقه لأنه أمر غير ضروري في هـذا الجـو، ولكـن عندما التفتت نيللي نحوها وقالت:

«كم هو غريب ألا يكون أحد هنا تقريباً، أليس كـذلك؟»، أجابـت هـي بحياد: «نعم، ربما أن الناس لم تنته من تناول الطعام بعد».

فجأة ينتابها الخوف، وتفضل ألا تفكر كثيراً، تفـضل ألا تفكـر في البابـا، ولا في الشاب الذي انتحر من أجل نيللي. لماذا تبدو عقلانيـة جـداً هـذه الفكـرة العبثية: أن ينتحر المرء من أجل نيللي؟ زارتا عـدة متـاجر بـشكل عـابر وفي هـذه الأثناء اشترتا الهدايا اللازمة: هديـة الخالـة لُـو، وهـدايا بعـض بنـات الخـالات والأقرباء. تقريباً نيللي هي التي تقوم بذلك دائماً وتقرر ما يجـب شراؤه، أمـا هـي فلديها نظرة عن نيللي أنه يجب أن تتدخل باستمرار، كما لو أنها تحتاج لعـدم الثقـة بالأشياء التي تحس بها والتي لا تعرف أن تسميها باسمها أيضاً.

ما سيحدث بعد ذلك سيكون محاولة تفـسيرالأمر مـرات عديـدة خـلال حياتها دون أن تفلح في ذلك. ولطالما ستحاول فإنه سيبدأ من هناك، وذلك بغض النظر عن سابقة الاعتراف الذي باحت به نيللي في المطعم. ستقول:

كنا في مركز تجاري نشتري هدايا عيد الميلاد، أبي كان قد مات منـذ أربعـة أشهر.

ستقول:

فجأة ونحن نخرج من المحلات التجارية علا ضجيج، فكان جميع الناس قلقين وأخذوا ينظرون نحو الأعلى.

«ما الذي يجري؟» سألت نيللي.

«لا أعرف».

إنه طائر، رآه الجميع على الفور. لكنه ليس بالطائر العادي.

«أي نوع من الطيور هو هذا؟».

هي، فقدت النطق أمام جمال الطائر. في سماء قبة المركز التجاري كان يحلق مخلوق بحجم جذع طفل، له ريش أخضر وأصفر وأحمر وهاج. جمال ساحر لا شك فيه، ازداد سحره لغرابة المكان وخصوصية الصمت الذي نشره. وللحظة كما لو أنه تم التوقف عن سماع ضجيج أعياد الميلاد وموسيقا أغانيها الشعبية الرتيبة.

«إنه طائر من الجنة». قال أحدهم.

«وماذا يفعل هنا؟»

استدارت نحو نيللي. هي كذلك ترقب الطائر بشغف كبير. ووسط الصمت الذي نشره الطائر انتابها إحساس غامض: كما لو كان بوسعها أن ترى عروق وجهها كما تُرى عروق خشب ناي. ثم عادت لترقب الطائر من جديد. لقد صعد حتى أعلى القبة، وحاول أن يخترقها لكنه اصطدم بالزجاج. هبط لعدة أمتار وهو يرفرف بطريقة مأساوية، ثم عاد ليحاول اختراق القبة من جديد. هذه المرة دوَّت ضربة حادة وهوى الطائر بشكل عمودي، ككتلة من لهب، ليصل إلى إحدى شرفات الطابق الثاني. ثمة من حاول الإمساك به هناك. سُمعت تنهيدة مخنوقة. حاول معاودة الطيران، لكن بلا أية قوة ففقد ريشة من ريش ذيله الذهبية. وسقط على الأرض، حيث شرع يطير بشكل دائري ومحموم حول الطاولات. حاول بعض الأشخاص الاقتراب منه، لكن الطائر استأنف الطيران وبعزم هذه المرة، وصولاً إلى الطابق الثاني، ومن هناك انتفض من جديد ليتجه نحو القبة، ولكن من دون محاولة اختراقها. كانت لحظة إثارة وبهاء آخر، كما لو أنه يولد من جديد. هذا أيضاً يجب محاولة تفسيره، هذا النوع من استعادة عزة نفس الطائر بكل ألقه، وبكل ريشه الساحر وجناحيه المفتوحين وبكثير من الأشياء الجميلة الأخرى التي لا يعرفها إلا الله، أشياء ربما لم تحسها في تلك اللحظة، لكنها تسربت إلى الذاكرة

عبر صورة الطائر كما لو أن الأمر يتعلق بغربال: حضور نيللي الصامت كما الكهرباء، ضجيج أعياد الميلاد الأصم، الوجوه الموردة بسبب حرارة المركز التجاري المباغتة، الأكياس المثقلة بالهدايا التي تم شراؤها، كل شيء له قوام غريب من جديد، وفيه وقار حزين، ويتم الإحساس به كتردد بعيد للحضور. في تلك اللحظة قالت نيللي:

«إنه رائع».

«ما هو الرائع؟».

«هذا المخلوق، أليس رائعاً؟».

«بلى»، أجابت، ولكن دون أن تفكر بالأمر. فهي تحس في حقيقة الأمر بخوف غامض من طائر الجنة هذا، كما لو كان فيه شيء خبيث وساحر، شيء لا يمكن السيطرة عليه وقبيح، كأنه فيض من العدوانية.

أطلق طائر الجنة زغردة ثم نعيباً هائلاً، جرب أن يغيِّر وجهة طيرانه لكنه لم يفلح، وبقي مكانه يرفرف بجناحيه بشكل عمودي وبجزع شديد، ارتفع مترين أو ثلاثة، ثم خرَّ بضربة حادة وسط الطاولات، حيث كان الناس يتناولون طعامهم. ابتعد جميع الناس مذعورين، كما لو أن الذي سقط عليهم لم يكن طائراً وإنما لعنة من لعنات السماء. سُمع صراخ ما وأخذ خيال أخضر ناعق يطوف بين أرجل الناس وهو يطير كطيران الدجاجة. كان يذهب من اتجاه إلى آخر وهو ينعق بحدة متزايدة ومصدراً صريراً إلى أن تأكد فجأة أنه متوجه نحو الأرجل فابتعد عنها بصورة غريزية. سوف تتذكر ذلك أيضاً: أنها أمسكت نيللي من ذراعها كما لو كانت تحاول حمايتها وأن نيللي بقيت جامدة في مكانها، وما هو أكثر من ذلك، أن لدى نيللي صلابة غير طبيعية سيطرت عليها. رفرف طائر الجنة بجناحيه باضطراب إلى أن وصل إليهما، ثم عبر جانبهما وكأنه مجرد اصطفاق أجنحة ورائحة حيوانية غريبة وحامضة. بعد ذلك انكمش في إحدى الزوايا

وعاد ليطوي جناحيه. إنه كسيدة عظيمة مسَّها الجنون ذات عينين خرقاوين مفتوحتين على اتساعهما.

تستطيع أن تتذكر كل حركة من حركاتها: الطريقة التي تطأطئ بها نيللي وتنهض لتترك الأكياس على الأرض، التروِّي، الصمت، الرقة، رقة لم ترها فيها أبداً ولن تراها، طريقة اقترابها من الطائر بخطوات واثقة لكنها شديدة التأني، وعندما وصلت إلى حيث هو، انحنت عليه كما لو أنها غرقت في تأمل صامت، طريقة وضع يدها على صدر طائر الجنة المنتفخ والطريقة الرصينة التي ردَّ بها الطائر، برجفة بالكاد كانت محسوسة، استسلم لها فيما بعد. بدأت نيللي تداعبها، لكن لا شهوانية في الأمر، وإنما شيء يعوي كالريح ويصرخ كطفل. أما هي فلقد انتابتها حينئذ فكرة جريئة ومستحيلة: كيف ستموت نيللي عندما تموت؟